ساسلىت القصت العالمىت ك

# (2) 9. V. 7. 9. V. 7.

ماشادو ده أسيس سرجسة خليل كلفت



دارالیاس<u>تالمبرت</u>ت



nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رون کا زمور ک

دار الياس العصرية للطباعة والنشر ١ شارع كنيسة الروم الكاثوليك بالظاهر – القاهرة تليفون ٩٠٣٧٥٢

رقم الأيداع بدار الكتب: ١٩٩١ / ١٩٩١ الترقيم الدولي: 1 ISBN : 977 5028 05 onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

ماشادوده أسيس

دون کازموری

ترجمها عن الإنجليزية خليلكلفت



### ١ - العنوان

ذات ليلة منذ وقت غير بعيد ، وأنا عائد من المدينة إلى إنچنيو نوقو\* ، فى قطار برازيل سنترال ، التقيتُ مصادفة بشاب من هنا فى الحيّ كان بينى وبينه تعارف فى حدود انحناءة التحية. تكلّم وجلس إلى جانبى وتحدّث عن القمر والحكومة وانتهى بقراءة بعض الأشعار على كانت الرحلة قصيرة ، وربما كانت الأشعار غير رديئة تماما. مع ذلك الننى كنت متعبا – حدث أن أغمضتُ عينى ثلاث أو أربع مرات –كان ذلك كافيا لجعله يتوقف عن القراءة ويضع الأشعار فى جيبه.

- « استمرّ" ، قلتُ ، وأنا أُوقظ نفسي ».
  - « انتهيتُ" ، غمغم الشاب »،
    - « أشعارك رائعة جدا" ».

رأيته يأتى بحركة لإخراجها من جيبه مرة أخرى ، لكنها لم تتجاوز مجسرد حركة ، كان متضايقا ، في اليوم التالي قال بعض الأشياء القاسية

<sup>\*</sup> إنچينو نوڤو: « مصنع (السكر) الجديد »، ضاحية من ضواحى ريو دى چانيرو،

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنى ومنحنى لقب دون كازمورو، جيرانى ، الذين لا يحبون طبعى الصموت والشبيه بطبع ناسك ، تلقّفوا اللقب : فالتصق، أغضبنى هذا جدا. رويتُ القصة لأصدقائى فى المدينة ، وبه ينادون على ويكتبون إلى ، مازحين : « دون كازمورو ، سآتى لأتغدى معك يوم الأحد ». « ساذهب إلى مكانى القديم فى پتروبوليس يا دون كازمورو، فكّر فيما إذا كان بإمكانك أن تنتزع نفسك من ذلك الكهف فى إنچنيو نوڤو وتأتى لقضاء أسبوعين معى ». « عزيزى دون كازمورو ، لا تتخيّل أنك سنتهرب من حفلى المسرحى مساء غد. يمكنك أن تبقى حتى صباح اليوم التالى فى المدينة. أعدك بمقصورة في المسرح ، وشاى ، وسرير، الشيء الوحيد الذى لا أعدك به — فتاة ».

لا تبحث في قواميسك ، إنهم لا يستخدمون كازمور وهنا بالمعنى الذي تذكره القواميس لهذه الكلمة ، بل بالمعنى الذي يستخدمها به رجل الشارع : شخص متجهّم صموت منسحب إلى داخل نفسه، أما كلمة دون فكانت للتهكّم : لإضفاء مظهر أرستقراطي عليّ، كل هذا لأن النعاس يغلبني ! حسنا ، لم أجد عنوانا أفضل لقصتي؛ وإذا لم يظهر عنوان أفضل فليبق هذا العنوان كما هو ! سيعرف شاعرى الذي التقيت به في القطار أنني لا أحمل له ضغينة، وسيكون قادرا ، بقليل من الجهد ، مادام العنوان عنوانه ، على أن يقرّر أن هذا الكتاب كتابه. هناك كُتُب لا تدين بأكثر من ذلك لمؤافيها ؛ بعضها وليس كثير منها،

والآن بعد أن شرحت العنوان ، سأنتقل إلى الكتاب. لكن دعوني أوّلاً أدقّق في الدوافع التي وضعت قلما في يدي.

وأنا أعيش وحدى ، مع خادم واحد، البيت الذي أقيم فيه ملكي. كنتُ بنيتُه بوجه خاص لإشباع رغبة شخصية جدا يخجلني أن أطبعها على الورق -لكنَّ لنتوكَّلُ على الله. ذات يوم ، منذ عدد من السنين ، قرَّرتُ أن أبنى في إنجنيو نوڤو نسخة طبق الأصل من البيت الذي تربيتُ فيه في شارع ماتاكاڤايوس القديم. كان ينبغي أن يكون للبيت الجديد نفس المظهر والتصميم اللذين كانا للبيت الآخر ، الذي كان اختفى. فهم البنَّاء والنقَّاشِ توجِبهاتي. إنه نفس المبنى المرتفع ؛ بثلاث نوافذ في الواجهة ، وقرائدة في الخلف ، ونفس الحجرات فوق وتحت، في حجرة الجلوس ، زخرفة السقف والجدران متماثلة إلى حد كبير: أكاليل من الزهور الصغيرة جدا تستقرّ ، على مسافات ، في مناقير طيور سمينة، في أركان السقف الأربعة ، رموز الفصول ، وفي وسط الجدران رسوم بارزة لقيصر ، وأغسطس ، ونيرون ، وماسينيساً ، وتحتهم أسماؤهم .... ولا يحضُرني السبب في اختيار هذه الشخصيات. عندما انتقلنا إلى بيت ماتاكاڤابُوس كان مزخرِفا بها فعلا ؛ كانت تلك الرسوم من العقد السابق. ريما كان من ذوق ذلك الزمن إضافة سمة كلاسيكية وشخصيات قديمة إلى التصاوير الأمريكية، وباقى المكان في نفس الجنِّ، عندي عزية صغيرة ، وحديقة خضروات ، وشجرة جازوارينا ، وبركة حول البس ، ومنخور للغسيل. وأنا أستعمل الصيني القديم والأثاث القديم، والآن ، كما كان فيما مضي ، هناك نفس الاختلاف الصارخ بين الحياة داخل البيت -وهي هادئة ، والحياة خارج البيت- وهي مليئة بالضوضاء وقلقة.

كان هدفي هو أن أوصل طرفي حياتي ببعضهما ، لأستعيد عهد المراهقة في سنَّ الشيخوخة. حسنا ، ياسيدي ، لم أنجح في استجماع ما كان ولا ما كنتُه. إذا كان الوجه هو نفس الوجه فالتعبير مختلف. لو كان الآخرون فقط هم المفقودين ، لكان الأمر أهون. الإنسان يتعزّى إلى هذا الحدُّ أو ذاك في أولئك الذين فقدهم ، لكنني أنا نفسي مفقود ، وهذا النقص جوهري، مالدينا هنا يمكن تشبيهه بصبغة على الشعر أو اللحية: فهي تحافظ بالكاد على المظهر الخارجي ، كما يقولون في تشريح الجثث ؛ أما البنية الداخلية فلن تتأثر بالصيغة، يمكن لشهادة تقرّر أنني في العشرين من عمرى أن تخدع غريبا ، كأيّ وثيقة مزوّرة ، لكنها ان تخدعني. الأصدقاء الذين تركتهُم تاريخهم معى قريب ، أما الأصدقاء القدامي فقد ذهبوا جميعا ليدرسوا جيولوجيا التَّربُّة المقدسة. فيما يتعلق بصديقاتي من النساء ، يرجع بعضهن إلى خمس عشرة سنة مضت ، وأخريات إلى أقلً ، وكلِّهن تقريبا يعتقدن أنهن شابات. يمكن لاثنتين أو ثلاث منهن جعل الآخرين يعتقدون ذلك ، لكن اللغة التي يستخدمنها تجبر المرء في كثير من الأحيان على البحث في قاموس ، ومثل هذا التّعامل مرهق حقا،

مع ذلك ، لا تعنى حياة مختلفة حياة أسوأ ؛ إنه ليس نفس الشيء تماما، تلك الحياة القديمة تبدو الآن –من بعض النواحي – مجردة من كثير من السحر الذي كنت أجده فيها ؛ لكنها فقدت أيضا الكثير من الشوك الذي كان يجعلها مؤلة ، وأنا أحتفظ في ذاكرتي ببعض الذكريات الحلوة والساحرة، والآن ، أخرج قليلا ؛ وأتحادث مع الناس نادرا، اللّهو نادر، الجانب الأكبر من وقتى أقضيه في العمل في الحديقة وفي القراءة، أكل جيدا ونومي ليس سيئا.

لكنْ ، لأن كلّ شيء يصيبني بالملل ، فهذه الرتابة أيضاأضنتني

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في نهاية الأمر. رغبت في التغيير. ماذا لو ألفت كتابا ؟ القانون ، والفلسفة ، والسياسة ، اقترحت نفسها على ؛ لكنها لم تجلب معها الهمة اللازمة. عندئذ فكرت في وضع كتاب عن : تاريخ الضواحي ، تاريخ أقل جفافا من مذكرات الأب لويس جونسالفيس دوس سانتوس عن مدينتنا ؛ سيكون عملا متواضعا ، لكنه سيحتاج إلى وثائق وتواريخ كإجراءات تمهيدية – مهمة بطيئة طويلة. عندئذ فقط كلمتنى التماثيل النصفية المنقوشة على الجدران وقالت أنه مادامت هي أخفقت في إرجاع الأيام الخوالي ، ينبغي على أن أمسك بقلمي وأروى قصة تلك الأزمان. وربما استطاع فعل الحكى أن يستدعى الوهم لى ، فتأتى الأطياف تخطو برفق ، كما فعلت مع الشاعر ، ليس شاعر القطار بل شاعر فاوست :

كنت بالغ السعادة بفكرة أن القلم لايرزال يرتعش في يدى. نعم يا نيرون ، وأغسطس ، وماسينيسا ، وأنت أيها القيصر العظيم ، أنتم يا من تحتونني على تأليف مذكراتي ، أشكركم على نصيحتكم ، وسأضع على الورق الذكريات التي تأتى متزاحمة متدافعة. بهذه الطريقة سأعيش ماكنت عشته ، وسأقوى يدى في سبيل عمل أعظم غاية. فلنبدأ إذن نفخ الحياة في الماضي بأصيل جدير بالذكر في نوقمبر ، أصيل لم أنسه قط كانت لي أوقات أخرى ، أفضل ، وأسوأ ، لكن ذلك الأصيل لم يتلاش أبدا من روحي - كما ستكتشف بالقراءة.

## ٣- الوشاسة

كنتُ على وشك الدخول في حجرة الجلوس عندما سمعتُهم يذكرون اسمى واختبأتُ وراء الباب. كان ذلك في بيت شارع ماتاكاڤايوس، والشهر نوڤمبر، والسنة – السنة شيء تافه قديم، لكنني لست بالشخص الذي يغير تواريخ حياته لمجرد إرضاء أولئك الذين لا يحبون القصص القديمة – كانت السنة ١٨٥٧.

« دونا جلوريا ، هل عقدت العزم نهائيًا على إدخال عزيزنا بنتينيو في المعهد الديني ؟ لقد أن الأوان ، وحتى الآن ربما كانت هناك صعوبة ».

« أيّ صنعوبة ؟ ».

« صعوبة كبيرة »،

كانت أمى تريد أن تعرف ما هى المشكلة، بعد لحظات من التردد ، أتى چوزيه دياس ليرى ما إذا كان هناك أحد فى الصالة ؛ لم يشعر بوجودى وعاد وقال ، خافضا صوته ، أن الصعوبة قائمة فى البيت المجاور ، أسرة بادوا ،

« أسرة يادُوا ؟ »

« كنت أريد أن أقول هذا منذ وقت ، لكن لم تكن عندى الشجاعة. لايبدولى أن من المناسب لعزيزنا بنتينيو أن يختبى دائما فى الأركان مع ابنة ظهر السلحفاة العجوز، وهذه هى الصعوبة ، لأنه إذا حدث وانطلقا فى ممارسة الحب سيكون عليك أن تخوضى بنفسك صراعا لفصلهما عن بعضهما ».

« أنه ، لا ! الاختباء في الأركان ؟ »

« هذه طريقة في الكلام، يتهامسان سرًا ، دائما معاً. دائما تقريبا لا يغادر بنتينيو ذلك المكان. البنت بنت طائشة، أبوها يتظاهر بأنه لايرى ؛

وهو يود أن تمضى الأمور إلى أبعد حد بأسرع ما يكون ... أنا أفهم إشارتك ؛ أنت لا تعتقدين أن هناك أشخاصا ماكرين إلى هذا الحد ، أنت تظنين أن كل شخص نو طبيعة صريحة ، مفتوحة ... ».

« لكننى ، يا سنيور چوزيه دياس ، رأيت الصغيرين يلعبان ، لم أر مطلقا شيئا يجعل المرء يسىء الظنّ – عمرهما فقط – بنتينيو فى الخامسة عشرة بالكاد. كاپيتو كان عيد ميلادها الرابع عشر فى الأسبوع الماضى. إنهما طفلان. لاتنس أنهما تربيا معاً ، من أيام الفيضان الكبير منذ عشر سنوات ، عندما فقدت أسرة بادوا الكثير جدا ؛ ذلك ما أدى إلى بداية صلتنا الحميمة، وهل على أن أعتقد ... ؟ أخى كُوزمه ، ما رأيك ؟ » بداية صلتنا الحميمة، وهل على أن أعتقد ... ؟ أخى كُوزمه ، ما رأيك ؟ » لغة مبتذلة : « چوزيه دياس وخياله ! الصغيران يسليان نفسهما ! وأنا أسلى نفسى ! أين الطاولة ؟ »

« نعم ، أعتقد أنك مخطىء يا سنيور ».

« ربما، أرجو من الرب أن يكون الحق فى جانبك ؛ لكننى ، صدّقينى ، لم أتكلم إلا بعد الكثير من الملاحظة الدقيقة .. ».

« على أيّ حال ، الوقت يقترب » ، قاطعتْ أمّى ، « يجب أن أتدبّر إدخاله في المعهد الديني بأسرع ما يمكن ».

« حسنا ، إذا كنت لم تتخلّى بعد عن فكرة جعله قسيّسا ، هذا هو الشيء الرئيسي، بنتينيو مكنم بأن يطيع رغبات أمّه. كما أن الكنيسة البرازيلية سيكون لها بالتالى مصير نبيل. لا ينبغى أبدا أن ننسى أن أسقفًا رئس الجمعية التأسيسية ، وأن الأب فيچو حكم الامبراطورية ... » « حكم بكل حمقه ذاك! » قاطع الخال كوزمه ، مفسحا المجال للأحقاد السياسية القديمة.

« معذرة يا دكتور ، أنا لا أدافع عن أحد ، أنا فقط أستشهد

بحالات. ما أريد قوله هو أن رجال الدين لا يزال لهم دور كبير في البرازيل ». \*

« ما تريده أن أغلبك « مَرْسُ » ؛ هات الطاولة. بالنسبة للولد ، إذا كان لابد له من أن يصبح قسيسا ، فمن الأفضل له طبعا أن يبدأ تلاوة القداس وراء الأبواب. لكن انظرى يا أختى ، هل من الضرورى حقا جعله قسيسا؟ »

« إنه نَذْر ؛ يجب الوفاء به »

« أنا أعرف أنك نذرت نَذْرا ... لكن نَذْرا كهذا ... لا أدرى ... أعتقد أنه ، عندما يفكّر المرء فيه ... ما رأيك ، يا ابنة العم چوستينا ؟ » « أنا ؟ »

« الحقيقة أن كل شخص يعرف أفضل فيما يخصه » ، واصل الخال كوزمه. « الرب وحده هو الذي يعرف ما هو الأفضل للجميع. مع ذلك ، هناك نَذْر قديم ، ثُذر منذ سنين طويلة مضت ... لكن ما هذا ، يا أختى جلوريا ؟ أنت تبكين ! أوه ، والآن ، هل هذا شيء نبكي من أجله ؟ »

تمخطت أمى دون أن تُجيب. وأعتقد أن ابنة العم چوستينا نهضت وذهبت إليها، أعقب ذلك صمت عميق كنتُ أتحرق خلاله شوقا إلى دخول الحجرة ؛ لكن قوة كبرى أخرى ، عاطفة أخرى ... لم أستطع أن أسمع ما كان يقوله الخال كوزمه. كانت ابنة العم چوستينا تقف أمام أمى : « ابنة العم جلوريا ! ابنة العم جلوريا ! » كان چوزيه دياس يأسف ويعتذر : « لو كنتُ أعرف ، ما كنتُ تكلّمت ، لكننى تكلّمت بسبب احترامى ، وتقديرى ، بسبب عاطفتى ، أنْ أقوم بواجب بغيض ، أبغض واجب .. ».

٤- أبغيض وأجب

كان چوزیه دیاس یحب صیغ التفضیل العلیا، وكان ذلك وسیلة لإضفاء سمة الأهمیة علی أفكاره ؛ وعندما لم تكن عنده أفكار ، كان ذلك یساعده علی إطالة عباراته. ذهب لإحضار الطاولة ، التی كانت فی جانب أخر من البیت. التصقت بالحائط ، وراقبته وهو یسیر متجاوزا مكانی ببنطلونه الأبیض المنشی الذی كان مشدودا تحت الحذاء ، وچاكیته القطن ، والكاراڤاتة المصقولة. كان واحدا من آخر من یلبسون مثل هذه البنطلونات فی ریو دی چانیرو ، وربما فی العالم. كان یلبس بنطلونه قصیرا إلی حد أنه كان مشدودا جدا. كانت الكاراڤاتة الساتان الأسود ، بالزنبرك المصنوع من الصلب داخلها ، تشل حركة عنقه ؛ هكذا كانت الموضة. أما الچاكیت البسیط المصنوع من القطن المطبوع فكان یبدو علیه أشبه بسترة كاملة. كان نحیلا ، ممطوطا ، وكانت له صلعة صغیرة . كان یمشی بخطوته البطیئة المعتادة – لیس البطء المتاکیء الشخص كان یمشی بخطوته البطیئة المعتادة – لیس البطء المتاکیء الشخص كسلان ، بل كان بطئا محسوبا ، مدروسا : قیاس منطقی تام ، المقدمة الكبری قبل الصغری ، المقدمة الصغری قبل نتیجة القیاس، أبغض واجب!

### ٥- التابيع

لم يكن يمشى دائما بتك الخطوة البطيئة ، الثابتة، كان فى بعض الأحيان يفسح المجال لحركات مثيرة ، وكان فى كثير من الأحيان رشيقا ومرحا فى تحركاته ، طبيعيًا فى هذا الأسلوب تماما كما فى الأخر. وكان يضحك بصوت مرتفع ، عند الحاجة ، ضحكة ضخصة جوفاء ، لكنْ

مُعْدِية : إلى حدّ يبدو معه أن الخدّين ، والأسنان ، والعينين ، والوجه بكامله ، والشخص بكامله ، والعالم بأكمله ، تضحك جميعا فيه، في المواقف الخطيرة ، الأكثر خطورة – الأخطى

كان تابعا لنا سنين عديدة. كان أبى لا يزال في المزرعة القديمة في إتاجواي ، وكنتُ مولودا منذ فترة قصيرة جدا، وذات يوم ظهر هو ، وقدّم نفسه بوصفه طبيب « هوميو باثيا »\* ؛ وكان يحمل مرجعا موجزا وحقيبة أدوية، تصادف انتشار وباء من الحميّات في ذلك الحين ؛ عالج چوزيه دياس ملاحظ المزرعة وجاريه ، لكنه لم يكن ليقبل مكافأة، اقترح أبى أن يبقى الرجل معنا ، في المزرعة ، بأجر صغير، رفض چوزيه دياس. قال أن واجبه أن يُعيد الصحة إلى أكواخ القش التي يعيش فيها الفقراء.

« مَنْ يمنعك من الذهاب إلى أيّ مكان ؟ اذهبْ إلى حيث تشاء ، لكنْ عشْ معنا "».

« سأعود في غضون ثلاثة أشهر ».

عاد في غضون أسبوعين، قبل بالمأكل والمسكن بدون أجور أخرى ، باستثناء ما كانوا يعطون له كهدايا، عندما انتُخب أبى نائبا وجاء إلى ريو دى چانيرو ومعه أسرته ، جاء هو أيضا ، واتّخذ حجرته في الجزء الخلفي من العزبة، وذات مرة عندما أخذت الحمّي تتفشّي من جديد في إتاجوائ طلب منه أبى أن يذهب لرعاية عبيدنا، صمت چوزيه دياس ، وتنهّد ، وأخيرا اعترف بأنه ليس طبيبا، كان اتّخذ لقب دكتور ليساعد على انتشار نظريات المدرسة الجديدة ، وهو لم يفعل ذلك دون قدر كبير من الدراسة ؛ لكن ضميره لم يسمح له بعد ذلك بقبول مَرْضَي،

<sup>\*</sup> هوميوباثيا: علاج المرض بجرعات صغيرة من عقار تُحدث الجرعات الكبيرة منه أعراض نفس المرض لدى السليم – المترجم

« لكنك شفيت الآخرين ».

« ربما كان ذلك ؛ لكنه سيكون أكثر إنصافا أن نُرجع الفضل إلى الأدوية الموصوفة في الكتب. هي التي قامت بالعلاج ؛ نعم ، هي - بعون الرب، كنتُ مشعوذا ... لا تنكر ذلك، ربما كانت دوافعي أسمى ما تكون ؛ المهوميوباثيا هي الحقيقة ؛ ولأخدم الحقيقة كذبتُ ؛ لكنْ أن الأوان لوضع الأمور في نصابها ».

لم يُطْرُد ، كما طلب: لم يعد أبى قادرا على أن يمضى فى الحياة بدونه. كانت لديه موهبة أن يجعل نفسه موضع الترحيب ولاغنى عنه ؛ كنّا نشعر بغيابه كما نشعر بغياب فرد من أفراد الأسرة، عندما مات أبى ، كان حزنه هائلا ، هذا ما قيل لى ، فأنا لا أتذكّر. كانت أمى ممتنة للغاية ، ولم تكن تود أن تسمع عن مغادرته لحجرته التى فى العزبة. فى اليوم السابع ، بعد القدّاس ، ذهب ليستأذنها فى الرحيل.

« ابْق ، يا چوزيه دياس ».

« إذا كانت هذه رغبتك ، يا سنيورة ».

تلقّى ميراثا صغيرا فى الوصية ، ورقة مالية من الدرجة الأولى وأربع كلمات إطراء. نسخ كلمات الإطراء ، وعمل لها بروازا ، وعلقها فى حجرته ، فوق سريره. « هذه أفضل سندات مالية ممتازة » ، هكذا اعتاد أن يقول. مع الوقت ، اكتسب سلطة ما فى الأسرة ، كان يُصنغنى إليه على الأقلّ. لم يكن يستغلّ ذلك ؛ كان يعرف كيف يُبدى رأيه ثمّ ينزل عند رغبة الغير. باختصار ، كان صديقا ، لن أقول الصديق الأفضل ، لكن ليس كل شيء هو الأفضل فى هذا العالم. ولا تتخيّل أنه كان له روح شخص متملّق : كان انحناؤه وتذلّله محسوبين أكثر منهما طبيعيّين. وكانت ملابسه تبقى إلى الأبد. بخلاف أولئك الذين يمزقون بدلة جديدة من أول مرة يلبسونها فيها ، كان يلبس البدلة القديمة منظفة بالفرشاة ، خالية من

الكرمشة ، ملساء الترقيع ، مزردة ، بأناقة بائسة ومتواضعة. كان يقرأ ، بلا اهتمام ، لكن بما يكفى ليكون مسليا فى سهرة أو أثناء تناول أطباق الحلو ، أو ليفسر إحدى الظواهر ، أو ليتكلّم عن تأثيرات الحرّ والبرد ، أو عن القطبين الشمالي والجنوبي أو عن روبسيير، وكثيرا ما حكى عن رحلة كان قام بها إلى أوروبا ، واعترف بأنه لولانا نحن لكان عاد إلى هناك منذ وقت طويل ؛ كان له أصدقاء في لشبونة ، لكن أسرتنا ، كما قال ، هي تحت الرب مباشرة ، كلّ شيء.

« تحت أم فوق ؟ » سأل الخال كورْمه ذات يوم.

« تحت » ، کرد چوزیه دیاس بخشوع.

سعدت أمى ، وكانت متدينة ، بأن ترى أنه وضع الرب فى المكان الصحيح. ابتسمت مستحسنة. شكرها چوزيه دياس بانحناءة من الرأس. اعتادت أمى أن تعطيه مبالغ صغيرة من النقود من وقت لوقت، وعهد إليه المال كوزمه ، وكان محاميا ، بنستُخ الأوراق القانونية.

# ٦- الخال كوزمه

أقام الخال كوزمه مع أمى منذ اللحظة التى صارت فيها أرملة. كان أصبح أرمل فى تلك الفترة ، شأنه فى ذلك شأن ابنة العم چوستينا : كان البيت بيت المترملين الثلاثة.

فى كثير من الأحيان ، تُغيّر المصادفة نوايا الطبيعة. والخال كوزمه ، الذى نشأ على الوظائف الهادئة للرأسمالية ، لم يصبح غنيا فى دُور المحاكم : كون فقط مصدرا للرزق، كان لديه مكتب فى شارع ڤيولاس القديم ، بجوار دار المحكمة ، التى كانت فى سبجن الچوبى المهجور. كان متخصصا فى القانون الجنائى. وچوزيه دياس لم تفته أبدا مرافعات

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخال كوزمه أمام المحلّفين. كان هو الذى يساعده فى ارتداء وخلع روب المحاماة ، ويغرقه بكثير من كلمات الإطراء وهما يغادران قاعة المحكمة، فى البيت كان يصف المناقشات، لم يتمالك الخال كوزمه نفسه ، رغم كل محاولاته لأن يبدو متواضعا ، عن الابتسام قليلا.

كان رجلا سمينا ، ثقيلا ، ضيق النّفس ، ناعس العينين. واحدة من أقدم ذكرياته كانت مراقبته وهو يمتطى ، كل صباح ، الفرس التى أعطتها له أمى والتى كانت تحمله إلى مكتبه. العبد الذى أحضرالدابة من الإسطبل كان يمسك اللجام بينما رفع هو قدمه ووضعها فى الرّكاب ؛ أعقب ذلك دقيقة من الراحة أو التفكير. ثم قفز قفزة ، الأولى ؛ هدّد جسمه بالصعود ، لكنه لم يفعل ؛ ثم قفزة ثانية ، بنتيجة مماثلة، وأخيرا بعد لحظات عديدة طويلة ، استجمع الخال كوزمه كلّ قواه ، البدنية والمعنوية ، وقفز قفزة أخيرة من الأرض وفى هذه المرّة هبط على السرج، وكان من النادر أن تمتنع الرّكوبة عن أن تُبيّن بحركة من حركاتها أنها تلقّت الجرّم الهائل فى التو واللحظة. عدّل الخال كوزمه وضع جسده ، وانطلقت الدابة تعدو.

لم أنس أيضا ما فعله بى ذات يوم فى الأصيل، مع أننى مواود فى الريف (تركتُه عندما كنت فى الثانية) ورغم عادات ذلك الزمن ، لم أكن أعرف كيف أركب ، وكنتُ خانفا من حصان. أمسك بى الخال كوزمه ذات يوم وقذف بى منفرج الساقين على دابته، عندما رأيت نفسى عاليا فوق (كنتُ فى التاسعة) ، وحيدا ومهجورا ، بدأتُ أصرخ فى يأس : « ماما ! ماما! » جاحت لنجدتى ، شاحبةً ومرتجفةً ، معتقدةً أنهم يقتلوننى، أزلتنى ، ولاطفتنى ، بينما سأل أخوها :

« أختى جلوريا ، ولد بهذا الحجم خائف من دابة لطيفة ؟ »

<sup>«</sup> هوغير متعود عليها ».

« من الأفضل أن يتعوّد عليها. حتّى إذا كان قسيسا ، إذا كان قسيسا ، إذا كان قسيسا ريفيا سيكون عليه أن يركب ظهر الحصان ؛ وهنا فى المدينة ، مع أنه ليس قسيسا بعد ، إذا أراد أن يظهر بمظهر مشرّف مثل بقية أمثاله من الشبان ولم يعرف كيف يركب ، سيلومك على ذلك ، يا أختى جلوريا »،

- « إذن سيكون عليه أن يلومني؛ أنا خائفة ».
  - « خائفة ! يا سلام ، خائفة ! »

الحقيقة أننى لم أتعلم إلا بعد ذلك بكثير ، ليس حُبًا فى ذلك بل كنت خجلان من التسليم بأننى لا أعرف كيف أركب. « الآن سيهتم حقا بالبنات » ، قالوا ذلك عندما بدأت الدروس. لم يكن من المكن قول نفس الشيئ عن الخال كوزمه. فى حالته ، كان ذلك عادة وضرورة. فهو لم يعد يميل إلى العلاقات الغرامية. يقولون أنه ، عندما كان شاباً ، كان شيطانا مع النساء ، إلى جانب كونه حزبيًا مندفعا ، لكن السنين أخذت منه الجانب الأكبر من حماسه ، السياسى والجنسى على حدّ سواء ، ووضعت سمنته البقية أفكاره ، العامة والخاصة. وكان فى ذلك الوقت يؤدّى واجبات عمله ليس غير ، وبدون حبّ وفى ساعات فراغه كان يتفرّج على عا حوله ، أو يلعب الطاولة، ومن حين لآخر كان يُبدى ملاحظة ظريفة.

# ٧-دونا جلوريا

كانت أمى إنسانة طيبة، عندما مات زوجها - پدرو ده ألبوكيركه سنتياجو - كانت فى الحادية والثلاثين من عمرها وكان بإمكانها أن تعود إلى إتاجواى، آثرت أن تبقى إلى جوار الكنيسة التى دُفن فيها أبى، باعت المزرعة والعبيد ، اشترت آخرين كانت تؤجّرهم للغير أو تبعث بهم

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى الشوارع ليكسبوا لها المال. اشترت دستة أو نحو ذلك من المبانى ، وعددا من السندات الحكومية ، وظلّت تعيش فى بيت ماتاكا قايوس ، حيث عاشت السنتين الأخيرتين من حياتها الزوجية. كانت ابنة صاحبة مزرعة فى ميناس جيرايس ، وكانت بدورها سليلة صاحب مزرعة آخر من سان باولو ، من عائلة فرنانديس،

حسنا إذن ، في تلك السنة الميلادية ، ١٨٥٧ ، كانت دوبا ماريا دا جلوريا فرنانديس سانتياجو في الثانية والأربعين من عمرها. كانت لا تزال حلوة وفي رقة عذراء ، لكنها حجبت بعناد بقايا شبابها مهما حاولت الطبيعة أن تحفظها من فعل الزمن. كانت تعيش مكسوة بثوب قاتم أبدي ، بدون زينة ، وكان شال مطوى على شكل مثلث مثبتا على الصدر بصد فة ذات نقش بارز. كان شعرها مردودا إلى الوراء مباشرة على كلا الجانبين ومعقودا عند القفا بمشط قديم من صدف السلحفاة ؛ وكانت تبس أحيانا كاباً أبيض مزخرفا، وبهذه الهيئة كانت تذهب وتجيء متثاقلة في صمت بحذائها البسيط الكردفان القديم ، تراقب وتشرف على عمل ألبيت كله من الصباح إلى الليل.

لدى صورتها الزيتية هناك على الحائط ، إلى جانب صورة زوجها ، تماما كما كانتا في البيت الآخر. الألوان أضحت قاتمة ، لكنها لاتزال تعطى فكرة عنهما كليهما، وأنا لاأتذكر أيّ شيء عنه ، إلاّ أننى أتذكّر على نحو مبهم أنه كان طويلا وكان يحتفظ بشعره طويلا ؛ وتُظهر الصورة الزيتية عينين مستديرتين تتبعانني في كل مكان – وقع اللوحة الذي أفزعني عندما كنت صغيرا، وتبرز رقبته من كاراڤاتة سوداء كثيرة الطيّات والثنيات ، والوجه حليق فيما عدا رقعة صغيرة عند الأنئين، وتُظهر الصورة الزيتية لأمي أنها كانت جميلة، كانت في العشرين في ذلك الوقت وكانت تمسك بزهرة بين أصابعها، ويبدو في الصورة أنها تقدّم

الزهرة لزوجها، وما تقرأه فى وجه كل منهما هو أنه إذا كان من المكن مقارنة السعادة الزوجية بالجائزة الكبرى فى يانصيب ، فقد كسباها بالورقة التى اشترباها معاً.

وأنا أستنتج أن مسابقات اليانصيب لا ينبغي إلغاؤها، لا أحد يحمل ورقة رابحة اتَّهم هذه المسابقات إلى يومنا هذا بأنها لا أخلاقية ، تماما كما أنه لا أحد وجد ما يعييه على علية ياندورا \* لأن الأمل بقى في قعرها ؛ ولابدً له من أن يبقى في مكان ما. ها هما أمامي ، الاثنان ، يُزُفِّان بسعادة في الماضي البعيد ، العاشقان ، المحظوظان ، اللذان ذهبا من هذا العالم إلى العالم الآخر ليستمرا في حلم ، على الأرجح. عندما تعبتُ من اليانصيب ومن ياندورا ، رفعت عينيَّ إليهما ، ونسيتُ المحاولات التي لم أوفِّق فيها ، والعلبة اللعينة، إنهما صورتان يمكن اعتبارهما أصليتين، تلك الخاصة بأمي ، المسكة بزهرة في اتجاه زوجها ، تبدي وكأنها تقول :« كُلِّي لك ، يا فارسى المغوار! » أما تلك الخاصة بأبي ، الذي يطلُّ ناظرا إلينا ، فتُدلى بهذا التعليق : « انظروا كم تحبني هذه الفتاة .. ». إذا كانا عانيا من أشياء مزعجة ، فأنا لا أعرف عنها شيئا ، تماما كما لا أعرف شيئا عن أحزانهما، كنتُ طفلا كما بدأتُ بعدم كوني مولودا. بعد موته ، أذكر أنها بكت بكاءً مرًّا. لكنُّ هأ هما الصورتان الزيتيتان للاثنين ، ويد الزّمن الغادرة لم تطمس بعد التعبير الأول. إنهما أشبه بلقطتين من السعادة.

<sup>\*</sup> علبة پاندورا : پاندورا، في الميثولوچيا الإغريقية، المرأة الأولى التي خلقها هيفايستوس. أهداها زيوس علبة أو جرة بها كافة الفضائل والشرور وأرسلها إلى الرجل الأول، إپيميثيه، الذي تزوجها. عندما فتحت پاندورا العلبة انطلقت منها كل الفضائل والشرور ولم يبق في قعرها سوى الأمل. – المترجم.

# ٨- أن الا وان

لكن أن الأوان للعودة إلى ذلك الأصيل في نوڤمبر ، كان أصيلا ساطعا رطبا ، هادئا هدوء بيتنا وامتداد الطريق الذي كنا نعيش عليه. كان في واقع الأمر بداية حياتي ؛ كل ما مضى قبل ذلك كان أشبه بوضع المكياج وارتداء الأزياء لأولئك الذين يوشكون على الظهور على خشبة المسرح ، أشبه بإضاءة الأنوار وضبط أوتار آلات الكمان ، أشبه بالافتتاحية... والآن كان على أن أبدأ أوبرا حياتي. « الحياة أوبرا » ، هذا ما أعتاد أن يقوله لى مغنى تينور إيطالي عجوز عاش ومات هنا ... وذات يوم شرح تعريفه بطريقة جعلتني أؤمن به، وربما كان ذلك يستحق مشقة أن أحكيه : إنه لا يزيد عن فصل واحد.

### ٩- الاوبرا

كان لم يعد لديه صوت ، لكنه كان يصر على أن لديه. وكان يضيف: «مشكلتى عدم الممارسة ». كلّ مرة تصل فيها فرقة من أوروبا كان يذهب إلى مديرها ويعدد كلّ مظالم السماء والأرض: كان من المعتاد أن يرتكب مدير الفرقة مظلمة جديدة ، وكان مغنّى التينور العجوز يبتعد متعجبا من عدم إنصافه. كان لايزال يحتفظ بشاربيه الكبيرين الخاصين بأدواره، عندما يمشى كان يبدو ، رغم عمره ، وكأنه يتودد إلى أميرة من بابل، أحيانا كان يردد بصوت مرتعش ، دون فتح فمه ، شيئا من بقايا أغنية مفقودة أقدم منه ، أو في عمره ؛ والأصوات المكتومة على ذلك النحو تملك دائما قدرات، جاء إلى هنا ليتغدى معى عدة مرات. ذات ليلة ، بعد شرب مقدار كبير من الكيانتي ، ردد تعريفه المعتاد ، وعندما قلت أن الحياة مقدار كبير من الكيانتي ، ردد تعريفه المعتاد ، وعندما قلت أن الحياة

لم تعد أوبرا بقدر ما هي رحلة في البحر أو معركة ، هزّ رأسه وأجاب :

« الحياة أوبرا بل أوبرا درامية. التينور والباريتون يتقاتلان من أجل السوبرانو في حضور الباسو والأصوات الثانوية ، عندما لا تكون السوبرانو والكونترالتو هما اللتان تتقاتلان من أجل التينور ، في حضور نفس الباسو ونفس الأصوات الثانوية. هناك العديد من الجوقات والكثير من راقصى الباليه ، والتوزيع الأوركسترالي ممتاز .. ».

« لکن ، یاعزیزی مارکولینی .. ».

«لملا؟»

ثم بعد أن شربنا النبيذ طويلا ، وضع الكأس ، وأفضى إلى بقصة خلق العالم ، بالكلمات التالية ، التي سأوجزها قليلا.

«الرب هو الشاعر، الموسيقى وضعها الشيطان: مايستروشاب له مستقبل عظيم، درس في كونسيرڤاتوار السماء. لكونه ندًا لميكائيل، ورافائيل، وجبرائيل، لم يتحمّل الأولوية التي حظى بها رفاق الدراسة أولئك في توزيع الجوائز، ربما كان ذلك يرجع، أيضا، إلى أن موسيقاهم البالغة العذوبة والصوفية كانت مملّة لعبقريته، التي كانت تراچيدية بصفة جوهرية، بدأ ثورة ، اكتشفت في الوقت المناسب، وفصل من الكونسيرڤاتوار، كان من المكن أن تنتهى المسألة برمتها عند ذلك، لولا أن الرب ألف نصًا لفظيًا (ليبرتو) لأوبرا، وطرحه جانبا، لأنه اعتبر أن هذا النمط من التسلية لا يليق بذاته السرمديّة، حمل الشيطان المخطوطة معه إلى الجحيم، بقصد أن يُثبت أنه موسيقي أفضل من الآخرين – وربما ليتوصل إلى تسوية مع السماء – ألف مُدونَة موسيقية.

« يارب ً » ، قال له ، « لم أنس ما تعلّمتُه في السماء هنا. خُذْ هذه المدننة الموسيقية ، ها هي ، مُرْ بأدائها ، فإنْ رأيتها تليق بذُراك

السماوية ، إسمح لى ولها بأن نجثو عند قدميك ».

« لا » ، ردّ عليه الربّ بحدّة ، « لن أسمع شيئا ».

« لكن ، يارب ، . . »

« لاشيء! لاشيء! »

« مضى الشيطان يتضرع إلى الرب دون حظ أفضل ، إلى أن قبل الرب ، ضبى الشيطان يتضرع إلى الرب دون حظ أفضل ، إلى أن قبل الرب ، ضبحرا ومفعما بالشفقة ، أنْ تُؤدَّى الأوبرا ، لكنْ خارج حرم السماء. صمم مسرحا خاصاً ، هذا الكوكب؛ وخلق فرقة كاملة بكل الأدوار ، الرئيسية والثانوية ، والجوقات ، وراقصى الباليه.

« ها هي بعض البروقات! »

« لا ، ليس هناك ما أفعله بالبروقات، يكفى أننى ألّفتُ النصّ اللفظى للأربرا ؛ أنا مستعدّ تماما لأن أتقاسم معك حقوق التأليف مناصفةً ».

« ربما كان ذلك الرفض غلطة : نتجت عنه نشازات كان يمكن لاستماع أن يستبينها ولتعاون وُدِّى أن يمنعها، والواقع أنه في بعض المواضع تذهب الكلمات إلى اليمين والموسيقي إلى اليسار، وهناك من يقولون أن هذا هو سر جمال هذا العمل الأوبرالي وهو الذي يمنعه من أن يكون رتيبا ، وبهذه الطريقة يفسرون الثلاثية الموسيقية لجنة عدن ، ولحن أيل ، وكورس المقصلة وكورس العبودية، وليس من النادر الإفراط في استخدام نفس موقف الحبكة دون مبرر كاف، بعض الموتيفات تغدو مملة من فرط التكرار، وهناك مقاطع مبهمة ؛ ويبالغ المايسترو في استغلال الترانيم الكورالية ، التي تطفي في كثير من الأحيان على الكلمات بإيقاعها المشوش، مع ذلك ، تُؤدًى الأدوار الأوركسترالية بمهارة فائقة. هذا على الأقل رأى غير المتحيز.

« أصدقاء المايسترو لابد انهم يعتقدون أن من الصعب العثور على

مدونة موسيقية أفضل، في بعض الأحيان سيقر أحدهم بأن هناك مواضع مرتجلة ، بعض الفجوات هنا وهناك ، لكن مع العرض المستمر للأوبرا لا شك في أنها ستملأ وتصقل ، ما دام المايسترو لا يرفض أن يصحّع عمله حيثما وجده مغايرا للفكرة السامية للشاعر. أما أصدقاء هذا الأخير فلهم رأى مختلف. فهم يزعمون أن النص اللفظي للأوبرا ضحًى به ، وأن المدونة الموسيقية تُفسد معنى الكلمات ، وأنه رغم أنها كانت رائعة في بعض المقاطع وتحتال بالمهارة في أخرى ، فلا صلة لها بروح الدراما ، بل هي مناقضة له. فما هو سخيف ، على سبيل المثال ، غير موجود في نص الشاعر: إنه يشكل إضافة تُشوّهه تقليداً له « زوجات وندسور المرحات ». هذه النقطة يجادل فيها الشيطانيون بشيء من الدرامية ؛ لا هذه المهزلة ولا شكسبير كان مولودين، وهم يذهبون إلى حد تأكيد أن الشاعر الإنجليزي لم يفعل أكثر من أنه نسخ الكتاب بمهارة ولالقة بيدو معهما أنه هو ذاته مؤقف العمل ؛ لكنه ، فيما يبدو ، منتحل،

« هذه القطعة » ، هكذا أنهى المغنى التينور العجوز حديثه ، « ستبقى ما بقى المسرح – ولا نعرف متى سيتم تدميره كعمل من أعمال المتطلّبات الفلكية. ونجاح الإخراج متزايد، والشاعر والمؤلف الموسيقى يتلقيان حقوقهما المالية بانتظام دقيق ، لكن ليس بنفس العملة. وقانون التقسيم هو ذلك الوارد في الكتاب المقدّس: « الكثرة مدعوون ، القلّة مختارون » ، الربّ يُدفّع له ذهباً ، والشيطان ورقاً » ،

« ظریف جدا .. ».

« ظريف ؟ » صاح التينور، ثم أخذ يُهدِّى، نفسه: « عزيزى سنتياجو ، أنا لست ظريفا ؛ عندى رُعب من الظرف. ما أقول هو الحقيقة ، خالصة ونهائيةً. وذات يوم ، بعد أن تكون كافة الكتب قد أُحرقت باعتبارها عديمة الفائدة ، سيكون هناك شخص ما ، ربما تينور ، إيطالى

erted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الأرجح ، يعلم هذه الحقيقة للناس. كل شيء موسيقى ، يا صديقى. في البدء كان دو ، ودو صار رى ، إلخ. كأس النبيذ هذه (كان يملؤها مرة أخرى) ، كأس النبيذ هذه لازمة قصيرة. ألا تسمعها ؟ ولا أنت تسمع الخشب أو الحجر ، لكنها كلها جزء من نفس الأوبرا ... »

# ١٠ - أنا أقبل النظرية

التى هى ميتافيزيقا أكثر من كافية نوعا ما لتينور منفرد. لكن فقدانه لصوته يفسر كل شىء ؛ هناك فلاسفة ليسوا ، فى نهاية المطاف ، سوى تينورات يعانون من البطالة.

وأنا ، صديقى القارىء ، أقبل نظرية عزيزى ماركولينى ، ليس فقط بسبب احتمال صحتها — وهذا عادة كل ما تبلغه حقيقة — بل أيضا لأن حياتى تتلاءم مع هذا التعريف، غنيتُ برقة: دويتُو ، ثم تريو ، ثم كواتور ... لكنْ لا ينبغى أن نسبق تسلسل القصة ؛ ولنَعُدُ إلى ذلك الأصيل الأول الذي اكتشفتُ فيه أننى بدأت أغنى بالفعل ، ذلك أنه عندما وشى بى چوزيه دياس ، أيها القارىء العزيز ، كانت الوشاية مقدّمة إلى أنا فى المقام الأول.

### 

بمجرّد أن رأيت تابعنا يختفى فى الصالة ، تركت مكان اختبائى وجريت إلى القرائدة فى المؤخرة، لم أزعج نفسى بالدموع ولا بالسبب الذى جعل أمى تذرفها. ربما كان السبب وراءها مشاريعها الكنسية وسبب هذه الأخيرة هو ما أوشك على روايته ، فالقصة كانت حتى فى ذلك

الوقت قصة قديمة ، وكانت تعود إلى ست عشرة سنة قبل ذلك.

تشكلت هذه المشاريع في الفترة التي كانت فيها أمى حاملا بي. لأن طفلها الأول وكد ميتا ، عقدت أمى اتفاقا مع الربّ بأن يعيش الثاني: نذرت أمى بأنه إذا كان المولود ذكرا ، سيدخل الكنيسة. ربّما كانت تتمنّى بنتا . لم تقل شيئا لأبي قبل أو بعد أن تأتى بي إلى العالم: عملت حسابها على أن تفعل ذلك عندما أدخل المدرسة ، لكنها صارت أرملة قبل ذلك عندما صارت أرملة ، كانت تحس بالرهبة من يوم فراقها لي ؛ لكنها كانت عندما صارت أرملة ، كانت تحس بالرهبة من يوم فراقها لي ؛ لكنها كانت بالبوح بنذرها لأقاربها وأفراد أسرتها . فقط ، حتى يكون فراقنا متأخرا قدر الإمكان ، جعلتني أتعلم في البيت ، دروسي الأولى ، ثم اللاتينية والدين ، على يد الأب كابرال ، الذي كان صديقا قديما للخال كوزمه ، والذي اعتاد أن يأتي إلى بيتنا مساءً ليلعب الطاولة .

الاتفاقات الطويلة الأجل يمكن التوقيع عليها بسهولة: الخيال يجعلها لا نهائية. كانت أمى تنتظر كرّ السنين، في الوقت ذاته أخذت أنا أعتاد على فكرة الكنيسة: لُعب الأطفال ، كُتُب العبادة ، صنور القديسين ، الأحاديث في البيت ، كل الأشياء تلاقت على المذبح. عندما كنّا نذهب إلى القدّاس ، كان تقول لي دائما أننا نذهب لأتعلّم أن أكون قسيّسا ، وأننى لابد أن ألاحظ الأب بدقّة ، وأننى لا ينبغي أن أرفع عينيّ عن الأب، في البيت ، كنت ألعب القدّاس – خلسة إلى حدّ ما ، لأن أمى قالت أن القدّاس ليس موضوعا للعب. كنا نقوم باعداد مذبح ، كابيتو وأنا . كانت تقوم بدور ليس موضوعا للعب. كنا نقوم باعداد مذبح ، كابيتو وأنا . كانت تقوم بدور قيم الكنيسة وكنّا نغير الطقوس بمعنى أننا كنّا نقسم القربان فيما بيننا ، وكان القربان دائما نوعا من أنواع الحلوي . خلال الفترة التي اعتدنا فيها أن نلعب هذه اللعبة ، كان من المألوف جدا أن أسمع جارتي الصغيرة تسأل: « القدّاس اليوم ؟ » كنت أدرك ما يعنيه ذلك ، وأجيب بالإيجاب ،

وأذهب لطلب القربان تحت اسم آخر. كنت أعود به ، ونعد المذبح ، ونغمغم باللاتينية ، ونسارع إلى تلاوة الشعائر. -Domine, non sum dig\*
ما من المفترض أن أقول ذلك ثلاث مرات لكنني أعتقد أنني كنت لا أقوله في الواقع سوى مرة واحدة ، إلى هذا الحد كانت شراهة الأب وقيم كنيسته. لم نكن نشرب لا النبيذ ولا الماء: لم نكن نملك الأول وكان من شأن الثاني أن يُزيل مذاق القربان.

بعد فترة لم يعودوا يتكلمون عن المعهد الدينى ، إلى درجة افترضتُ معها أن الموضوع نُسى، إذا لم يحسّ صبى بالنداء ، فى المخامسة عشرة من عمره ، فهو يطلب بالأحرى معهد الدنيا أكثر من معهد القديس چوزيف، أحيانا كانت أمى تحملق في مثل روح ضائعة أو تمسك بيدى دون مبرّر على الإطلاق وتعتصرها بقوّة،

## ١٢ - على الفراندة

توقفت على القرائدة. كنت دائخا ، مذهولا ، وكانت ركبتاى ترتجفان، بدا وكأن قلبى يحاول أن يقفز عبر فمى، لم استطع أن أهبط إلى الفناء وأعبره إلى الفناء المجاور، بدأت أجىء وأروح ، متوقفا فجأة من حين لآخر لأهدىء نفسى ، ثم أمشى مرة أخرى ، ومرة أخرى أقف من جديد. أصوات متداخلة ردّت كلمات جوزيه دياس:

- «دائما معاً ...»
- « يتهامسان سرًا ... »
- « إذا انطلقا في ممارسة الحب .. ».

يا قوالب القرميد التي مشيتُ عليها ثم مشيتُ عليها من جديد في ذلك الأصيل ، أيتها الأعمدة المصفرة التي مرّت بي إلى اليمين وإلى

<sup>\*</sup>يا إلاهي أنا غير خليقاً بك (باللاتينية في الأصل) - المترجم

اليسار ، حسب ما إذا كنت أجىء أم أروح – أنت التى شاركتنى أزمتى ، الإحساس ببهجة جديدة طوتنى داخل نفسى ، ثم جعلتنى انتشر ، وبعثرتنى إلى ألف قطعة ، وجعلتنى أرتجف ، وسكبت فى كيانى بلسما داخليا غريبا. من حين لآخر ، وجدت نفسى أبتسم ،ابتسامة ما عريضة راضية ، تناقضت مع شناعة خطيئتى، ومن جديد سمعت الأصوات ، مختلطة:

« يتهامسان سرًّا … »

« دائما معاً ... »

« إذا انطلقا في ممارسة الحبِّ ... »

شجرة جوز هند ، كانت رأتنى ساعتها قلقا وخمنن السبب ، غمغمت من قمة تاجها بأنه ليس من غير اللائق لصبية فى الخامسة عشرة من أعمارهم أن يختبئوا فى الأركان مع بنات فى الرابعة عشرة ؛ على العكس ، المراهقون فى ذلك العمر ليس لهم شاغل آخر ، لا ولا الأركان لها فائدة أخرى. كانت شجرة جوز هند عجوزا ، ومن ناحيتى فأنا مؤمن بأشجار جوز الهند العجوزة ، حتى أكثر من الكتب القديمة ، الطيور ، الفراشات ، وجُنْدب كان يعزف موسيقاه الصيفية ، كل كائنات الهواء الحية كانت من نفس الرأى .

إذن أنا واقع في حب كاپيتو ، وكاپيتو في حبى ؟ صحيح أننى كنت ملتصقا بها بشدّة ، لكن لم يكن بإمكانى أن أفكر في أن بيننا أي شيء سرّي حقا قبل أن تذهب إلى المدرسة كان كل ما هناك معابثات وشقاوة صبيانية بعد أن تركت المدرسة ، لم نستعد الألفة القديمة في الحال ، ربما ، لكنها عادت شيئا فشيئا ، وفي السنة الأخيرة ، كاملة الكن موضوع أحاديثنا ظلّ كما كان دائما ، أحيانا كانت كاپيتو تصفني بأنني وسيم ، ولدها الطويل الضخم الجميل ، وبأنني حبيب ؛ في أحيان أخرى

كانت تمسك بيدى وتعد أصابعى، بدأت أتذكر كل هذه البوادر ، وبوادر أخرى ، وأشياء قالتها ، واللذة التى أحسست بها عندما مرّت بيدها على شعرى وقالت أنها تعتقد أنه جميل. رغم أننى لم أفعل نفس الشيء بشعرها ، قلت لها أنه أجمل بكثير من شعرى، عندئذ كانت كاپيتو تهز رأسها بنظرة مليئة بالإفاقة من الوهم وبالانقباض ، والمدهش حقاً فى ذلك أنه كان لها شعر يثير الإعجاب حقا ؛ لكننى رددت بحدة فوصفتها بأنها مجنونة. عندما سألتنى ما إذا كنت حلمت بها فى الليلة السابقة ، وقلت لها « لا » ، أخبرتنى كيف أنها حلمت بى ، مغامرات رائعة ، كيف صعدنا إلى عن أسمائنا ليسموا بها ملائكة آخرين ولدوا منذ قليل. فى كل هذه الأحلام مضينا يداً فى يد. أحلامى التى حلمتها بها لم تكن أبدا كهذا الحلم: كانت مجرد نُسنخ طبق الأصل من حياتنا المألونة معاً ، وفى مرات عديدة لم تتجاوز مجرد تكرار لليوم السابق ، لعبارة ما ، لبادرة ما ، رويتها لها على أيّ حال. علّقت كاپيتو ، ذات يوم ، على الاختلاف: قالت أن أحلامها أجمل. بعد شيء من التردد ، قلت لها أنها مثل الإنسانة التى أحلامها أجمل. بعد شيء من التردد ، قلت لها أنها مثل الإنسانة التى أحلامها أجمل. بعد شيء من التردد ، قلت لها أنها مثل الإنسانة التى أحلامها أجمل. بعد شيء من التردد ، قلت لها أنها مثل الإنسانة التى أحلامها أجمل. بعد شيء من التردد ، قلت لها أنها مثل الإنسانة التى أحلامها أجمل. بعد شيء من التردد ، قلت لها أنها مثل الإنسانة التى

الآن فقط فهمتُ العاطفة التي أثارتها في نفسى هذه وغيرها من الأسرار المتبادلة، كانت العاطفة حلوة وجديدة ، لكن السبب فاتنى ولم أبحث عنه ، أو حتى لم أتوقع وجوده، ولم يكن صمت الأيام القليلة الأخيرة يعنى شيئا بالنسبة لى. الآن أحسست أنه يعنى شيئا ، وينطبق الشيء ذاته على أنصاف الكلمات ، الأسئلة المدقّقة ، الإجابات الغامضة ، القلق ، الابتهاج بتذكّر واستعادة طفولتنا . كنت أدرك أيضا أنها كانت ظاهرة

حلمَتْ بها ... استحال لونها إلى لون البيتانْجا\*،

<sup>\*</sup> البيتانجا : شجرة برازيلية (وثمرتها) تشبه الكرز، اونها أحمر أرجواني - المترجم.

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديدة جدا أن استيقظ مع أفكارى عن كاپيتو ، وأن أسمع صوبتها من الذاكرة ، وأرتجف عند سماع خطوها. وإذا تكلموا عنها في بيتنا بدأت أهتم أكثر من ذى قبل ، وحسبما يكون مدحاً أو نقداً كنت أحس بسرور أو استياء أشد من ذى قبل ، عندما كنا مجرد رفيقين في شقاوة الصغار، بل بدأت أفكر فيها أثناء القداس في ذلك الشهر ، بصورة متقطعة في الحقيقة ، ومع ذلك باستبعاد أشياء أخرى أيضا،

كلّ هذا أهدى إلى الآن بواسطة فم چوزيه دياس ، الذى وَشَى بى إلى عفرتُ له كل شَىء - الشرّ الذى قاله ، والشرّ الذى فعله ، وكل ما قد يتربّ على هذا أو ذاك. في تلك اللحظة الواحدة ، لم تكن الحقيقة الأزلية أعلى شأنا منه ، لا ولا الكائن الأزلى ، ولا كلّ بقية القوى الأزلية، أحببت كابيتو ! أحبتنى كابيتو ! وأخذت رجلاى تجيئان وتروحان ، وقفتا ، ترتجفان ، متلهّفتين على أن تنفرجا لتمتطيا العالم، هذا الاختلاج الأول للسائل ، هذا الاكتشاف من جانب الوعى لنفسه - لم أنس ذلك أبدا، لم أعرف أبدا أي إحساس مشابه لأقارنه به. ربما لأنه كان يخصننى ؛ لأنه كان الأول.

١٣ - كابيتو

فجأة سمعت صوبا يصهرخ من داخل البيت المجاور:

« كاييتو! »

وفى الحديقة:

«! اماما

ومرة أخرى من البيت:

« تعالى ! »

لم أستطع أن أمسك نفسى. حملتنى رجُلاى ثلاث سلمات إلى أسفل أدَّتُ بي إلى الفناء ، وجعلتني أمام فناء البيت المجاور مباشرة. كانت هذه عادتهما في الأصيل ، وفي الصباح أيضا. ذلك أن الأرجل أشخاص أيضًا ، لا تكاد تقل عن الأذرع ، وهي تراقب نفسها عندما لا يرشدها الرأس بأفكاره. وصلت رجلاي إلى أسفل الجدار. هناك بوَّابة موصلة في فتحة كانت أمي جعلتهم يفتحونها عندما كنًا كاييتو وأنا صغيرين، لم يكن للبوابة مفتاح ولا كالون: كانت تُفتح بالدفع من ناحية وبالجذب من الأخرى ، وكانت تُقفل بثقل حُجر معلّق على حيل. كانت تخصننا بصورة كاملة تقريبا. وعندما كنًا طفلين كنًا نقوم بزيارات رسمية بالطُّرْق على جانب وبأن يتم استقبالنا على الآخر بانحناءات كثيرة. عندما كانت دمُى كاييتو تسقط مريضة ، كنتُ أنا طبيبها. كنت أدخل فناها بعصا تحت ذراعي لمحاكاة العصا التي كان يحملها الدكتور جوان داكوستا . كنت أقيس نبض المريضة وأطلب منها أن تخرج لسانها . « إنها صمًاء ، الطفلة المسكينة ! » ، كانت كاييتو تقول، عندئذ كنت أهرش ذقني ، مثل الدكتور ، وأنتهى يوصف بود العلِّق أو دواء مقيِّء: كان هذان هما العلاج المألوف لدى الدكتور.

« كاييتو! »

« الما ا »

« توقّفي عن حَفْر الحُفَر في الحائط! تعالى ».

كان صوت أمها الآن قريبا ، وكأنه يأتى من الباب الخلفى. أردتُ أن أدخل الفناء ، لكن رجلي ، اللتين كانتا نشيطتين جدا منذ قليل ، تسمرتا في الأرض، بذلت جهدا ، دفعت البوابة ودخلت كابيتو قُرْب الحائط على الجانب الآخر ، مستديرة إليه ، تنقش فيه بمسمار. ضوضاء البوابة جعلتُها تنظر حولها، عندما رأتني ، أسندت ظهرها إلى الحائط ،

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كأنما لتُخفى شيئا ما. مشيت نحوها. ريما بدا على وجهى تعبير جديد، لانها جات إلى وسالتنى بقلق:

- « ماذا جرى لك؟ »
  - « لى ؟ لاشىء »،
- « لا ، لا ، هذاك شيء ».

أردت أن ألح على أنه لا شيء هناك ، لكننى لم أستطع أن أحرك لسانى. كنت كلّى آذانا وقلبا ، قلبا كان هذه المرة بالتأكيد سيقفز عبر فمى. لم أستطع أن أرفع عيني عن تلك المخلوقة – في الرابعة عشرة ، طويلة ، ناضرة ، يحتويها فستان بفتة كان نصف باهت. استرسل شعرها الثقيل وراء ظهرها في ضفيرتين ربط طرفاهما معا ، حسب موضة تلك الفترة. كانت سمراء ، ذات عينين صافيتين واسعتين ، وأنف طويل مستقيم ، وفم دقيق ، وذقن مستدير. كانت يداها ، رغم الأعمال غير اللائقة ، مُعتنى بهما جيدا: لم تكونا تفوحان برائحة أنواع الصابون واللوسيونات الفاخرة ، لكنهما – مغسولتين بماء الآبار والصابون العادى – كانتا خاليتين من كل عيب. كانت تلبس حذاء من القماش ، رخيصا وقديما ، وكانت خاطئه بنفسها بغرز قليلة.

- « ماذا جرى لك؟ » ، كرَّرَتْ.
- « لا شيء » ، قلتُ أخيرا متلعثما .
  - وأضفتُ: « إنه خبر ».
    - « خبر عن ماذا ؟ »

فكرتُ فى أن أقول لها أننى سادخل المعهد الدينى وألاحظ الانطباع الذى يتركه هذا عليها، إذا أطرقت أسفا ، سيكون هذا لأنها أحبتنى حقا ؛ وإلا فسيعنى هذا أنها لم تحبّنى، لكن كل هذا الحساب كان غامضا وسريعا، أحسست أننى لا أستطيع

الكلام بوضوح ؛ عيناى إلى حدٌّ ما ...

« حسنا ؟ »

« أنت تعرفين .. ».

عندئذ نظرت إلى الحائط ، إلى المكان الذى كانت تنقشه بالمسمار ، تكتب أو تحفر حُفْراً فيه ، كما وصفت أمها. رأيت بعض الخطوط العريضة ، وتذكّرت الحركة التي أتت بها لتُغطّيها. قرّرت أن أنظر عن قرب أكثر ، خطوت خطوة أمسكت بى كابيتو ، لكنها ، إما لأنها خشيت أن أنصرف ، أو لتمنعنى بطريقة أخرى ، جرت إلى الأمام وبدأت تمحو الكتابة ، كان ذلك أشبه بصب ريت على نار رغبتى في قراءة ماكان مكتوبا هناك .

### ١٤ - النقش

كلُّ ما رويتُه في نهاية الفصل السابق كان من فعْل لحظة واحدة. ما تلا ذلك كان أسرع مع ذلك. قفزتُ إلى الأمام ، وقبَل أن تتمكّن من كشط الحائط ، قرأتُ اسميننا ، محفوريْن بمسمار ومُرتّبَييْن هكذا:

بئتق

كاييتولينا

استدرت إليها ، خفضت كاپيتو عينيها إلى الأرض. رفعتهما ، ببطء ، ووقفنا يحملق كلّ منا فى الآخر ... ، اعتراف الأطفال ، أنت تستحق دون شك صفحتين أو ثلاث صفحات ، لكننى ينبغى أن أندفع مسرعا ، الحقيقة أننا لم نقل شيئا: الحائط تكلّم نيابة عنا . لم نتحرّك ، أيدينا هى التى أخذت تمتد ، قليلا قليلا ، الأيدى الأربع كلها ، أمسكت ببعضها ، أحكمت قبضتها ، ذابت كلّ واحدة فى الأخرى. لم أسجل

الساعة الدقيقة لتلك البادرة، كان ينبغى أن أفعل. أشعر بالحاجة إلى مذكرة مكتربة في نفس تلك الليلة ، وربما كنت أوردتُها هنا بأخطائها الإملائية، لكن لم يكن لمثل هذه المذكرة أن تُكتب، كان ذلك هو الفارق بين الباحث والمراهق. كنتُ أعرف قواعد الكتابة ، دون أن أرتاب في قواعد الحبّ ؛ كانت لدى طقوس العربدة الأمريكية اللاتينية ، وكنتُ بريئا فيما بتعلق بالنساء.

لم نسحب أيدينا ، لا ولا هي سقطت ، متعبة وناسية، التقت عيوننا ، ثم نظرت بعيدا ، وبعد أن جالت حولنا عادت لتغرق كل عين في أعماق الأخرى، هكذا وقفت أمامها ، أنا قسيس المستقبل ، وكأني أقف أمام مذبح ، وكان جانب من وجهها الرسالة والآخر البشارة، فمها كأس القربان المقدّس وشفتاها طبق القربان المقدّس، لم يكن باقيا سوى أن نتلو القدّاس الجديد ، بلغة لاتينية لا يتعلّمها أحد ، إنها اللغة الكونية للبشر، لا تعتبرني مدنسا للمقدّسات ، قارئي الورع ؛ سوف تمحو طهارة النية كلّ ما قد يكون غير قابل إلى حدّ ما للعلاج في أسلوبي، وقفنا هناك بداخلنا منتهي السعادة، أيدينا وحدّت أعصابنا ، وخلقت من المخلوقين بداخلنا منتهي السعادة، أيدينا وحدّت أعصابنا ، وخلقت من المخلوقين بالا أنّ الكلمات في فمينا لم تحاول أن تتجاوز شفاهنا ؛ عادت إلى القلب ، صامتة كما جاءت ... .

# ١٥ - صوت آخر مفاجيء

صورت آخر مفاجىء ، لكنه هذه المرة صورت رجل:

« هل تلعبان < الحكمة > ؟ »

كان والد كابيتو: كان عند الباب الخلفي ، إلى جانب زوجته. أنزلنا

أيدينا بسرعة ووقفنا مذهواين. ذهبت كاپيتو إلى الحائط وبمسمار ، وبمظهر لا مبال، أزالت اسمينا.

- « كاييتى! »
  - « البال »
- « كُفِّي عن تدمير الجبس الذي على حائطي ».
- كشطت كاپيتو فوق الكشط لتمحو الكتابة تماما، أتى پادوا إلى الفناء ليرى ما كان يجرى ، لكن بنته كانت بدأت في تلك اللحظة شيئا آخر ، بدأت في رسم بروفيل قالت أنه صورة له ؛ وكان من الممكن أن يكون بنفس السهولة له أو لأمها. جعله يضحك ؛ كان ذلك كل ما هو مطلوب، بالإضافة إلى ذلك ، أتى إلينا بلا غضب ، كله رقة ، رغم الوضع الملتبس ، أو الأقل من الملتبس ، الذي فاجأنا فيه. كان رجلا مكتنزا ، قصيرا ، قصير الرجلين والذراعين ، محدودب الكتفين ؛ ومن هنا اللقب ظهر السلحفاة الذي كان چوزيه دياس منحه إياه ، لا أحد غيره في بيتنا كان يصفه بذلك ، فقط تابعنا.
  - « هل كنتُما تلعيان < الحكمة > ؟ » ، سأل،
- نظرتُ إلى برعم شجرة بَيْلسان إلى جانبى، أجابت كاپيتو بالنيابة عنًا كلننا.
- « نعم ، يا سنيور ؛ لكن بنتينيو يضحك على القور ، لا يمكنه « الامتناع عن الضحك ».
  - « لم يكن يضحك عندما رأيتُه »،
- « ضحك في المرّات الأخرى ؛ لا يمكنه الامتناع، هل تودّ أن ترى ، يا بابا ؟ »
- ثم بمظهر جادً ، أدارت تحديقها إلى ودَعَتْنى إلى اللعبة، والخوف جادً بطبيعة الحال ؛ كنتُ لا أزال تحت التأثير الذى أحدثه وصول پادوا،

لم أستطع أن أضحك ، ولايهم كم كان على أن أفعل ، لأجعل إجابة كاپيتو صحيحة. تعبت كاپيتو من الانتظار ، أدارت وجهها بعيدا ، وقالت أننى لم أضحك هذه المرة لأن أباها كان موجودا. حتى حينئذ لم أضحك. هناك أشياء يتعلّمها المرء متأخرا. كان ينبغى أن يُولد المرء بها ليفعلها مبكّرا، والمبكر أفضل دون شك من المتأخّر بصورة مفتعلة، بعد أن دارت دورتين ، ذهبت كاپيتو لتتحدّث إلى أمها ، التي كانت لا تزال عند الباب ، وتركتنا ، أباها وأنا ، مسحورين بها. قال أبوها ، ناظرا وراحها ثم عائدا ينظر ناحيتي ، بصوت ملىء بالرقة:

« من يظن أن هذه البنت الصغيرة في الرابعة عشرة من عمرها ؟ تبدو في السابعة عشرة. أمك بخير ؟ » استمر ، معطيا إياى كلّ انتباهه،

«تعم»،

« لم أرها منذ عدّة أيام، كنت أود أن أغلب الدكتور « مَرْسْ » ، لكننى لم أتمكّن – بكل العمل الذي آتى به إلى البيت معى من المكتب، كنت أظل أكتب كل ليلة. إنه كاف لدفع شخص إلى اليأس – موضوع يستحق تقريرا، هل رأيت طائرى ألجاتورامو ؟ إنه هناك بالداخل، كنت في طريقي لآتى بالقفص، تعال لترى »،

ربما كان من السهل تصديق أن رغبتى كانت صفرا ، بون أن أكون مُطالبا بأن أحلف بالسماء والأرض. كانت رغبتى هى أن أذهب وداء كاپيتو وأخبرها الآن بالمشكلة التى تتربص بنا ؛ لكن أباها كان أباها ، ومازاد الطين بلة أنه كان يحبّ الطيور بوجه خاصّ. كان يقتنيها من مختلف الأنواع ، والألوان ، والأحجام، كان الفناء الذى فى وسط البيت مُحاطا بأقفاص عصافير الكنارى التى كانت تحدث ضجّة صاخبة بغنائها. كان يُقايض الطيور مع هواة آخرين ، ويشتريها ، ويصطاد

بعضها في فناء بيته هو بنصب الفخاخ. وعندما تُصاب بمرض كان يعتني بها وكأنها بشر.

#### ١٦ - المدير المؤقت

كان پادوا موظفا فى إحدى مصالح وزارة الحربية، لم يكن يكسب الكثير لكن زوجته كانت تنفق القليل، وكانت المعيشة رخيصة، إلى جانب ذلك، كان البيت الذى يعيش فيه، وكان من دورين مثل بيتنا (وإنْ كان أصغر)، ملكا له، اشتراه بالجائزة الكبرى التى كسبها بنصف ورقة فى يانصيب، عشرة كونتُوات \* كاملة. كانت فكرة پادوا الأولى، عندما كسب الجائزة، أن يشترى جوادا أصيلا، وعقداً من الماس لزوجته، وقطعة من الأرض لمدفن أبدى للأسرة، وأن يطلب بعض الطيور من أوروبا، الخ، لكن زوجته، دونا فورتوناتا تلك التى كانت هناك عند الباب الخلقى تتحادث مع ابنتها – طويلة وناضرة مثل الابنة، نفس الرأس، نفس العينين الصافيتين – كانت زوجته هى التى قالت له أن أفضل شيء هو أن يشتروا البيت وأن يدخروا ما يتبقى ليوم أسود. تردد پادوا وقتا طويلا؛ في النهاية كان عليه أن يستسلم لإلحاح أمى، التى كانت دونا فورتوناتا لجأت إليها طالبة العون، لم تكن تلك المرة الأولى التى نفعتها فيها أمى وقت الحاجة: ذات مرة أنقذت أمّى حياة پادوا، استمع، فالقصة قصيرة،

كان على مدير المصلحة التى عمل فيها پادوا أن يسافر شمالا فى مهمّة. أصبح پادوا ، إما بحق قانونى على الخلافة أو بتعيين خاص ، قائما بأعمال المدير ، بالمكافآت الشرفيّة الخاصيّة بذلك، هذا التبدّل فى

<sup>\*</sup> كونتو = ١٠٠٠, ١٠٠٠ ريس: فالمجموع ١٠٠،٠٠٠ ميلريس (ميلريس = ١٠،٠٠٠ ريس المترجم ) - تعليق الطبعة الإنجليزية

الحظ أصابه بدوار. كان ذلك قبل زمن العشرة كونتُوات. لم يكتف بإصلاح حال ملبسه ومأكله. اندفع في نفقات غير ضرورية: قدّم مجوهرات إلى زوجته ، ذبح خنزيرا رضيعا في العطلات ، شوهد في المسرح ، بل ذهب إلى حدّ الأحذية الجلدية المصقولة. عاش بهذه الطريقة اثنين وعشرين شهرا ، مفترضا أن يكون قيامه المؤقت بأعمال المدير أبديا. ذات يوم في

الأصيل أتى إلى بيتنا ، مكتئبا ومذهولا، كان على وشك أن يفقد مركزه: كان المدير الدائم عاد في ذلك الصباح، طلب پادوا من أمى أن ترعى التعيستين اللتين كان يتركهما ؛ لم يكن بوسعه أن يتحمل هذه الكارثة ، كان عقد العزم على أن يقتل نفسه، كلمته أمى بلطف ، لكنه لم يُصغ إلى

سى، « لا ، يا سنيورة ، لن استسلم لمثل هذا الإذلال. أهبط بأسرتى ، أتقهقر ... حسمت أمرى: سأقتل نفسى! كيف أخبر زوجتى وطفلتى بهذا البؤس؟ والأخرون؟ ماذا سيقول الجيران؟ وأصدقائى؟ والجمهور؟ »

« أَىَ جَمهور ، يا سنيور پادُوا ؟ أُوقَفْ كُلُ هَذَا. كُنْ رَجِلا، تَذَكَّرْ أَنْ رَجِلا ، . . كُنْ رَجِلا ، رَجِلا ، . . كُنْ رَجِلا ، تَعَال ! » تَعَال ! »

مسح پادوا عينيه وذهب إلى بيته ، حيث عاش متمدّدا عدّة أيام دون أن يقول كلمة ، أو محبوسا في حجرته ، أو فيما عدا ذلك في الحديقة ، قرب البركة التي كوّنتها البئر ، وكأن فكرة الموت ظلّت تلحّ في داخله. ويّخته دونا فورتوناتا:

« چوانزينيو ، هل أنت طفل رضيع ؟ »

لكنه تحدّث كثيرا عن الموت فكانت خائفة وذات يوم أسرعت لتتوسل إلى أمى لترى ما إذا كان يمكنها أن تنقذ زوجها من الانتحار، وجدته أمى بجوار البئر وقالت له أنه ينبغى أن يعيش. « أية حماقة هذه

ليفكر فى أنه سيلحق به الدمار بسبب منحة أقلً وفقدان مركز مؤقّت ؟ لا ، يا سنيور ، لابد أن يكون رجلا ، أبا لأسرة ، أن يكون مثل زوجته وابنته ...» أطاع يادوا ؛ قال أنه سيحاول أن يجد القوة لستجب لرغبة

« رغبتي ، لا! إنه واجبك »،

أمي.

« حسنا إذن ، الواجب ؛ لست غافلا عن كونه كذلك ».

فى الأيام التى تلت ذلك ، استمر فى الالتصاق بالحائط وهو يدخل البيت أو يغادره ، كما ظلّ ينظر إلى الأرض. لم يكن الرجل الذى أبلى قبّعته يخلعها تحية للجيران ، مرحا ، مرفوع الرأس. لم يكن حتى نفس الرجل الذى كانه قبل الإدارة المؤقتة، مرّت الأسابيع: كان الجرح يندمل، بدأ يادوا فى الاهتمام بأشياء حول البيت ، وفى العناية بطيوره الصغيرة ؛ كان ينام بهدوء ليلا ، وفى الأصيل كان يتحادث ويرقب ما يجرى فى الشارع، عاد صفاؤه ؛ ومعه أتى المرح فى يوم أحد ، فى صورة صديقين أنيا ليلعبا الهويست\* بثلاثة لاعبين على مبالغ رهان صغيرة، سرعان ما كان يضحك ، ويمزح ، واستعاد مظهره المألوف: كان الجرح اندمل.

بمضى الوقت نشأت ظاهرة شيقة. بدأ پادوا يتكلم عن إدارته المؤقتة ، ليس فقط بلا أسف على مكافاتها والإذلال عند فقدها ، بل حتى بزهو وكبرياء، انتهت إدارته إلى تغدو هجرة يؤرّخ بها إلى الأمام وإلى الوراء.

« خلال الفترة التي كنت فيها مديرا » أن:

« آه ، نعسم ، أتذكر ، كان ذلك قبل إدارتى ، قبلها بشهر أو

<sup>\*</sup> الهويست : لعبة ورق – المترجم

شهرين ... والآن انتظر ؛ بدأت إدارتي ... هذا صحيح ، قبل ذلك بشهر ونصف لا أكثر ». أو من جديد:

« هكذا تماما ، كنتُ مديرا لمدة سنة أشهر .. ».

كان ذلك هو المذاق المتخلّف عن الأمجاد المؤقتة. وزعم چوذيه دياس أنه غروره الأزلى ؛ لكن الأب كابرال ، الذى كان يُرجع كل شيء إلى الكتباب المقدس ، قبال أن الجار پائوا قدّم مثلا على درس إليفاز لأيوب: « لا ترفض تأديب القدير. هو يجرح وهو يشفى ».

#### ١٧ - الحود

« هو يجرح وهو يشفى! » فيما بعد ، عندما اتّفق أن عرفتُ أن رُمح أخيل أيضا كان يداوى الجرح الذى يحدثه ، تولّدت لدى رغبة عابرة في كتابة رسالة حول هذه المشكلة. ذهبتُ إلى حدّ التقاط كُتُب مدفونة ، وأن أفتحها ، وأقارنها ، لكى أقتفى أشر النص والمعنى ، وأكتشف الأصل المشترك للوحى الوثنى والفكر الإسرائيلى، بل اقتفيتُ حتى أثر الدود في هذه الكُتُب عَلَّهُ يخبرنى بما في النصوص التى كان يقضمها.

« سيدى العزيز » ، أجابت دودة طويلة سمينة ، « نحن لا نعرف شيئا على الإطلاق عن النصوص التي نقضمها ، كما أننا لا نختار النصوص التي نقضمها ، كما أننا لا نحب أو نكره ما نقضم : نحن نقضم ».

لم أخرج منها بأكثر من ذلك، كلّ باقى الدود ، وكأنه تبادل الكلمة فيما بينه ، ردّد نفس اللازمة، ربما كان هذا الصمت الحذر بخصوص النصوص التى كان يقضمها طريقة أخرى إضافية لقضم الشيء المقضوم.

لا الأب ولا الأم جاء يُزعجنا عندما تحادثنا ، كاپيتو وأنا ، وحيدين في حجرة الجلوس ، عن المعهد الديني، وهي تثبّت عينيها على ، أرادت كاپيتو أن تعرف ماذا كان الخبر الذي أزعجني إلى ذلك الحد، عندما أخبرتُها صار وجهها أبيض كالشمع.

« لكننى لن أفعل » ، طمأنتها بسرعة ، « لن أدخل أيّ معاهد دينية ، لن أذهب ، لن يجديهم الإلحاح ؛ لن أذهب ».

فى البداية لم تقل كاپيتو شيئا، سحبت عينيها ، وأدارتهما إلى دخيلة نفسها ، وأبقتها بالإنسانين مبهمين ولا يريان. كان فمها مفتوحا قليلا. كانت أشبه بشخص فارقته الحياة، عندئذ – لأعطى قوة لتأكيداتى – بدأت أحلف أننى لن أغدو قسيسا. فى تلك الأيام حلفت يمينا مُغلَظة ، أودعتها الحياة والموت. حلفت بساعة موتى – ألا تُدركنى رحمة الرب فى ساعة موتى إنْ ذهبت إلى المعهد الدينى، لم يبد على كاپيتو لا التصديق ولا عدم التصديق: لم يبد أنها سمعت، كانت مثل تمثال من خشب، أردت أن أناديها باسمها ، أن أهزها ، لكن الشجاعة خانتنى. هذه المخلوقة التى لعبت معى ، لهت ، رقصت ، وأعتقد حتى أنها نامت معى ، تركتنى الأن مكتوف الذراعين وجبانا، وأخيرا عادت إلى نفسها ، لكن وجهها كان شاحبا ، وانفجرت منها هذه الكلمات العنيفة الغاضبة:

« إنها مدفأة لمقاعد الكنيسة ! بابا مقدّس ! قملة كنيسة ! »

أصابنى ذهول. كانت كاپيتو مُغرمة بأمّى ، وأمّى بها ، إلى حدّ أننى عجزت عن فهم مثل هذا الانفجار، صحيح أنها أحبّتنى أيضا ،

و بالطبع أكثر ، أو أفضل ، أو بطريقة أخرى – وهذا سبب كاف لتفسير الاستياء الذى سببه لها تهديد بالفراق ؛ لكن تلك النعوت البذيئة ، أن تسب أمى سباً شنيعا ، وبوجه خاص أن تسب التقاليد الدينية التى هى تقاليدها أيضا . هى أيضا كانت تذهب إلى القداس ، وثلاث أو أربع مرات أخذتها أمى في عربتنا القديمة ، و أهدتها مسبحة ، و صليبا ذهبيا ، وكتاب الصلوات ... أردت الدفاع عنها ، لكن كاپيتو لم تعطنى أي فرصة ، و ظلّت تدعوها مدفأة مقاعد الكنيسة وقملة كنيسة بصوت مرتفع جدا خشيت أن يسمعه أبوها وأمها . لم أكن رأيتها قبل ذلك أبدا غاضبة إلى ذلك الحد ؛ بدا وكأنها عقدت عزمها على أن تقول كل شيء لكل شخص ، كزّت على أسنانها ، هزّت رأسها ... و في رعبي وقلقي أخذت أكر حلف أيماني ، وعدت بان أذهب في تلك الليلة ذاتها لأعلن أنه أكر حلف أيماني ، وعدت بان أذهب في تلك الليلة ذاتها لأعلن أنه

- « أنتُ ؟ أنتُ ستدخل »،
  - « لا ، ان أدخل ».
- « سترى ما إذا كنت ستفعل أم لا. »

سكتتْ، وعندما بدأتْ تتكلّم من جديد كانت تغيرتْ ؛ لم تكن بعد كاپيتو المالوفة ، بل تقريبا، كانت جادة ، وغير مضطربة ، وتكلّمت بهدوء، أرادت أن تعرف الحديث الذي كان جرى في بيتنا، أخبرتُها بالأمر كلّه ، فيما عدا الجزء الذي يتّصل بها.

« وما هى مصلحة چوزيه دياس فى طرح هذا الموضوع » ، سالتُ أخيرا ،

« لا أعرف شيئا عن ذلك ؛ لم يكن ذلك إلاّ لخلق متاعب. إنه شخص سافل ؛ لكن انتظرى فقط ، سيدفع ثمن هذا. عندما أصبح سيد البيت ، سيطرد إلى الشارع. سترين ، لن أدعه يبقى دقيقة واحدة. ماما طيبة معه

أكثر مما ينبغى ؛ وهى تعطيه أهمية أكبر كثيرا مما يستحقّ ، بل بكت فيما يبدو ».

- « چوزیه دیاس ؟ »
  - « لا ، ماما ».
  - « بكت ، لماذا ؟ »

« لا أعرف ؛ فقط سمعتُهم يقولون لها ألا تبكى ، وأنه ليس هناك ما يدعو للبكاء ... أخيرا قال أنه أسف ، وأتى قادما من الحجرة ؛ عندئذ تركت ركنى كيلا يضبطونى ، وجريت خارجا إلى القرائدة. لكن انتظرى فقط ، سأجعله يدفع الثمن ! »

هزرت تبضتى ، ونطقت بتهديدات أخرى، عندما أتذكّر الآن هذه التهديدات ، لا أجد أننى كنت سخيفا: المراهقة والطفولة ليستا ، من هذه الناحية ، سخيفتين ؛ وهذه إحدى مزاياهما . ذلك المرض ، أو الخطر ، يبدأ في بداية الرجولة ، ويتزايد مع النضج ، ويصل إلى أقصى مداه في الشيخوخة . أما في الخامسة عشرة فهناك حتى نوع من الكياسة في إطلاق تهديدات كثيرة وعدم تنفيذ أي منها .

كانت كاپيتو تتامل. لم يكن التامل شيئا نادرا بالنسبة لها ؛ كان بإمكان المرء أن يتعرف عليه بتضييق عينيها، سائت عن بعض الملابسات الإضافية ، الكلمات المحدّدة لهذا الشخص أو ذاك ، واللهجة التي قيلت بها. لأننى لم أكن راغبا في أن أخبرها بنقطة بداية الحديث ، التي كانت كاپيتو نفسها ، عجزت عن أن أنقل إليها المغزى الكامل للحديث. كان اهتمام كاپيتو موجها الآن إلى دموع أمى ؛ لم يكن بإمكانها أن تفهمها. في نفس الوقت أقرّت أنه لا شك في أنه لم يكن من الخطأ أن ترغب أمى في أن تجعلني قسيسا ؛ كان نذرا منذورا منذ عهد بعيد و كان عليها ، وهي التقية الورعة ، أن تفي به. أراحني أن أرى أنها كفرت بذلك طوعا

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن الإهانات التى انطلقت منها قبل ذلك بقليل ، إلى حد اننى أمسكت بيدها وضغطت عليها بشدة. ضحكت كاپيتو ولم تسحب يدها. عندئذ بدأ الحديث يغفو وينام، كُنّا انتقلنا إلى جوار النافذة، تاجر زنجى متجوّل ، كان ينادى منذ بعض الوقت على حلوى جوز الهند فى الشارع فى الخارج ، توقّف وسئال:

« سينيازينيا تريد كوكادا (حلوى جوز الهند) اليوم ؟ »

« لا ، » أجابت كاييتو.

« كوكادينيا حلوة جدا ».

« انصرف » قالت بلطف.

« أعطنى منها! » قلتُ أنا ، ومددتُ يدى إلى أسفل. اشتريتُ قطعتيْن ، لكن كان على أنا أن أكلهما كليهما ؛ رفضتُ كاپيتو. أدركتُ أننى ، حتّى وأنا غارق فى أزمة ، أحتفظ داخل روحى بركن منعزل للكوكادا؛ قد يكون من السهل أن نعرف ما إذا كان هذا ميزة أو عيبا ، لكنها ليست اللحظة المناسبة لمثل هذه التحديدات. رفضتُ محبوبتى ، رغم أنها بالغة الاتزان وصافية الفكر ، أن تسمع أيّ شيء عن الحلويات ، فدعنا نترك الأمر عند ذلك ، والواقع أنها كانت مغرمة جدا بالحلويات. أمّا أغنية البائع المتجوّل التي كان الرجل يغنيها هناك فى الشارع ، أغنية أصائل الماضى ، المألوفة لجيراننا ولطفولتنا:

« ابکی ، یا بنت یا صنغیرة ، ابکی لیس معك أيّ نقود ، ابکی ».

فبدا أنها تضايق كاپيت. لم يكن اللحن هو السبب ، لأنها كانت تحفظه عن ظهر قلب واعتادت منذ الأزمنة القديمة أن تردده خلال ألعابنا الطفولية ، تضحك ، وتفقز ، وتتبادل الأدوار معى ، تبيع تارة ، وتشترى تارة أخرى حلوى لم تكن موجودة. أعتقد أن الكلمات ، التي قصد بها وخز

غرور الأطفال ، هي التي ضايقتها حينئذ ، لأنها قالت لي بعد ذلك بقليل: « لو كنتُ غنية ، لفررت ، ولركبت سفينة ورجلت إلى أوروبا ».

بعد أن قالت ذلك ، أخذت تراقب عينى ، لكننى أعتقد أنهما لم تقولا لها شيئا ، أو أنهما شكرتاها فقط على حسن النية. كان الدافع وديا فتفاضيت عن غرابة المغامرة.

كما ترى ، كان لدى كاييتو ، وهي في الرابعة عشرة ، أفكار جريئة -أقلّ جرأة بكثير من تلك التي أتتُّها فيما بعد ؛ لكنها كانت جريئة في مجال التصور فحسب، أمّا في الممارسة فكانت أفكارا هادفة ، ملتوية ، فضواية ، وكانت تحقّق الهدف المنشود ، ليس في قفزة واحدة بل من خلال سلسلة من القفزات الصغيرة، لا أدرى ما إذا كنت قادرا على التعبير عن نفسى بوضوح. تخيّلْ خطة كبرى يتمّ تنفيذها بوسائل بالغة الضبالة. لهذا ، يون أن تتخلِّي عن رغبتها المبهمة والافتراضية في إرسالي إلى أوروبا - لوكانت كاييتو قادرة على تحقيقها ، ما كانت لتجعلني أركب متن سفينة بخارية وأفرّ: كانت ستُطلقني على صفٌّ من القوارب يمتدُّ من هنا إلى هناك ، وفيما يبدو أننى ذاهب إلى فورت لاجه \* فوق جسر عائم ، كنتُ سئدهب فوقه في الواقع إلى بوردو ، وكانت ستترك أمى تنتظر على الرمال، كانت تلك مي الطبيعة الغريبة لشخصية صديقتي الصغيرة، فليس من المدهش أن تعارض كاييتو مشاريعي للمقاومة الصريحة ، وأن تلجأ بدلا منها إلى أساليب أرق - المفعول البطيء الوساطة ، التعهّدات -الإقناع اليومي الرقيق - وأن تفحص سلفا الأشخاص الذين قد نعتمد عليهم. رفضت الخال كوزمه. كان شخصا عديم الأهمية ؛ فحتى إذا كان لم يوافق على رسمى قسيسا فإنه لم يكن قادرا على اتّخاذ خطوة لمنعه.

<sup>\*</sup> في ميناء ريو دي چانيرو - تعليق الطبعة الإنجليزية

ابنة العم چوستينا كانت أحسن منه ، وأحسن حتى مما كان يمكن للأب كابرال أن يكون ، بسبب سلطته ، لكن لم يكن من المنتظر من الأب أن يعمل ضد الكنيسة ، ما لم أعترف أنا بأننى لا أحس بالنداء ...

« ساعترف ،، »،

« نعم ، لكن لابد أن يخرج ذلك إلى العلن ، والطريق الآخر أفضل. چوزيه دياس .. ».

« ما شأن چوزيه دياس ؟ »

« قد يكون عونا لنا ».

« لكنه هو الشخص الذي ذكَّر ...»

« لا يهم ، » واصلت كاپيتو ، « سيقول الآن شيئا آخر. إنه يحبك للغاية. لا تكن وديعا معه، كل ما في الأمر بالنسبة لك ألا تجبُن ، وضبّح له أنك ستكون السيد ذات يوم ، وضبّح له أنك عقدت العزم، اجعله يفهم أن هذا ليس معروفا منه. امتدحه أيضا ؛ إنه يحبّ أن يُمتدَح، دونا جلوريا تهتمّ بما يقول ؛ لكن ليس هذا هو الشيء الرئيسي، الشيء الرئيسي هو أنه ، لأنه سيكون تابعا لك ، سيتكلّم بدفء أكثر من أيّ شخص آخر ».

« لا ، لا أظنّ ذلك ، يا كاييتو ».

« إذن اذهب إلى المعهد الديني »،

« لا ، أن أفعل أبدا ».

« ماذا ستخسر إنْ حاولت ؟ فلنحاولْ ؛ افعلْ ما أقول. دونا جلوريا يمكن أن تتخلّى عن خطتها ؛ وإنْ لم تفعل ، سنفعل شيئا آخر – لايزال هناك الأب كابرال. هل تذكّر كيف حدث أنْ ذهبتَ إلى المسرح للمرة الأولى ، منذ شهرين ؟ كانت دونا جلوريا ضدّ ذلك ، وكان ذلك كافيا لچوزيه دياس ؛ لكنه هو كان يريد الذهاب ، فألقى خطبة – هل تذكّر ؟ » « أذكّر: قال أن المسرح مدرسة لآداب السلوك ».

« نعم ، وتحدّث طويلا إلى أن أذعنت أمك أخيرا ودفعت لكما أنتما الاثنين ... واصل ، اطلب ، أعط الأوامر. انظر ، قل له أنك تريد الذهاب إلى سان باول لدراسة القانون ».

ارتجفت فرَحا، كانت سان باولو ستارا رقيقا من المكن إزاحته جانبا ذات يوم ، بدلا من الجدار السميك لما هو روحى وأبدى، وعدت بأن أتكلم مع چوزيه دياس بالعبارات المقترحة، كررتها كاپيتو ، وأكدت بعضها على أنها ذات أهمية من الدرجة الأولى ؛ ثم امتحنتنى فيها لتطمئن إلى أننى فهمت ولن أخلط بينها . ثم ألحّت على أننى ينبغى أن أطلب بأدب لكن بصورة عارضة كما يطلب المرء كوبا من الماء من شخص ملزم بإحضاره . وأنا أروى هذه التفاصيل لأشرح كيف كان صباح صديقتى الصغيرة ؛ وسرعان ما سيأتى الأصيل ، ومن الصباح ومن الأصيل سيصنع اليوم والأول ، كما في سفر التكوين ، حيث صنعت سبعة أيام متتابعة.

#### ١٩ - مهما كانت الظروف

عندما وصلت إلى البيت كان الوقت ليلا، كنت أمشى بسرعة ؛ لكن ليس بالسرعة التى لا أجد معها وقتا للتفكير مليًا فى العبارات التى سأتكلّم بها مع التابع، قمت بصياغة الطلب فى رأسى ، واخترت الكلمات التى سأستخدمها واللهجة التى سأقولها بها – شىء ما بين ما هو جاف وما هو ودى فى الحديقة قبل دخول البيت ، كرّرتُها لنفسى ، ثم بصوت مرتفع ، لأرى ما إذا كانت وافية بالغرض وما إذا كانت تتماشى مع توجيهات كابيتو: « لابد أن أتكلّم معك غدا ، مهما كانت الظروف، اختر المكان ، وأخبرنى فى وقت لاحق ». نطقت بها ببطء ، وحتى ببطء أكثر كلمات مهما كانت الظروف ، كرّرتُها مرة

أخرى ووجدتها جافة أكثر مما ينبغى ، وفظة تقريبا ، بل وقحة حقا من صبى لرجل أكبر منه. فكرت في اختيار غيرها ، ثم ترددت.

أخيرا قلت لنفسى أن الكلمات ستكون ملائمة ؛ الشيء الهام هو قولها بلهجة لا تثير الضيق. والدليل أننى عندما كررتُها مرة أخرى ، خرجتْ بلهجة التوسلُ تقريبا، كان من الضرورى فقط ألا أترفع أكثر مما ينبغى وكذلك ألا أكون رقيقا أكثر مما ينبغى ، بل بين بين. « الواقع أن كاپيتو على حقّ ، » هكذا فكرتُ. « البيت بيتى ، وهو ليس سوى تابع … لكنه ماهر ، ويمكنه أن يعمل جيدا جدا من أجلى ، وأن يقلب خطط أمى رأسا على عقب ».

## ۲۰ - الف صلاة ربانية والف صلاة للعذراء

رفعتُ عيني إلى السماء ، التي أخذتُ تُعتم ، لكن ليس لأرى ما إذا كانت غائمة أم صافية. وإنما إلى السماء الأخرى رفعتُ روحى ؛ إلى ملاذى ، إلى صديقتى:

« نَذَرْتُ أَن أصلًى ألف صلاة ربانية وألف صلاة للعذراء إذا رتب للي چوزيه دياس ألا أذهب إلى المعهد الديني ».

كان المقدار هائلا، السبب هو أننى كنتُ مثقلا بالفعل بنُذُور لم أف بها، كان النذر الأخير بمائتى صلاة ربانية ومائتى صلاة للعذراء إن لم تُمطر السماء في أصيل بعينه في يوم خروج إلى سانتا تريزا، لم تُمطر السماء لكننى لم أتلُ الصلوات، ومنذ الزمن الذي كنتُ فيه صبيا صغيرا ، كنتُ اعتدتُ أن أسال السماء أفضالها مقابل الصلوات التي سأتلوها ، إذا مُنحتُ ما طلبتُ. كنتُ أتلو الصلوات الأولى وأؤجّل الأخرى ، وبالتناسب

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع ازديادها كانت تُنسَى. وصلت إلى الأعداد: عشرين ، ثلاثين ، خمسين. ودخلت على المئات ثم فى الآلاف. كانت طريقة لرشوة الإرادة الإلهية بمقدار الصلوات ؛ وإلى جانب ذلك ، كأن كل نذر جديد يُنذر ويُحلف عليه مع إضمار فكرة الشطب على الدين القديم. لكنْ كيف نقضى على الكسل الذي يجلبه المرء معه من المهد ولا يشعر بأنه يتناقص مع الحياة ! السماء ستُسدى إلى المعروف ؛ وسوف أؤجل السداد. أخيرا غرقت فى حساباتى.

« ألف ، ألف ، » كرّرت لنفسى،

عندئذ ، كان حجم الفائدة ضخما ، ليس أقل من خلاص أو هلاك وجودى بأسره، ألف ، ألف ! كنتُ بحاجة إلى مقدار يكفى اسداد كافة المتأخّرات. ربما تضايق الرب الغاية لإهمالى ورفض أن يُصغى إلى بدون نذر بمبلغ كبير من المال ... أيها الشخص الجاد ، ربما أضجرتك هموم طفل ، إن لم تجدها سخيفة . فهى لم تكن هموما رفيعة . كنتُ فكّرتُ تفكيرا عميقا في طريقة لمحو ديني الروحي . لم أجد أي عملة أخرى يمكن بها ، مع الاحترام الواجب لرغبتى ، سداد الدين بكامله وإقفال دفاتر حسابات ضميرى دون عجز ، أن أتلو مائة قُدّاس ، أو أصعد إلى مُرْتَقَى نوساً سنيورا دا جلوريا على ركبتي لأسمع قدّاسا ، أو أذهب إلى الأراضى المقدّسة — كل ما كانت الإماء المسنّات قان لى عن النّذور الشهيرة خطر على البال دون أن يُثير إعجابي . كان من الصعب أن تتسلّق الشهيرة خطر على البال دون أن يُثير إعجابي . كان من الصعب أن تتسلّق تلا على ركبتيك: ستصيبهما بالكدمات ، بالضرورة . والأراضي المقدّسة بعيدة . وقد تتعدّد القداديس ؛ وربما أمكنني مرة أخرى أن أرهن روحي ...

## ٢١ - ابنة العم چوستينا

فى القراندة وجدت ابنة العم چوستينا تذهب وتجىء، جاءت إلى السلّم وسالتنى أين كنت .

« كنتُ هناك ، أتحادث مع دونا فورتوناتا ، ولم أنتبه إلى الوقت. الوقت متأخّر ، أليس كذلك ؟ هل سألتْ ماما عنّى ؟ »

« سألت ، لكنني قلت لها أنك عُدُّت بالفعل. »

أذهلتنى المكذبة ، ليس أقلّ من الاعتراف الصريح بها، ليس لأن ابنة العم چوستينا كانت تتكلّم بالألغاز: كانت تقول بصراحة لبطرس الشرّ الذى تعتقده فى بولس ، ولبولس ما تعتقده فى بطرس ؛ لكن اعترافها بأنها كذبت بدا لى شيئا جديدا طريفا، كانت امرأة فى الأربعين ، نحيلة ، شاحبة ، ذات فم متعجرف وعينين فضوليّتين. جعلتها أمى تعيش معنا من باب العطف وكذلك لدوافع أنائية ، ذلك أنها رغبت فى أن تكون لها رفيقة من النساء ، وفضلّت قريبةً على غريبة.

تمشيّنا عدة دقائق في القرائدة ، في ضبوء الفانوس الضخم. أرادت أن تعرف ما إذا كنتُ نسيتُ مشاريع أمى الكنسية ، وعندما قلتُ « لا » سألتنى عن حقيقة مَيْلي إلى حياة قسيّس، أجبتُ مراوغا:

« حياة القسيّس رائعة جدا ».

« نعم ، هي رائعة ؛ لكن ما سالتُ عنه هو ما إذا كنتَ تحبّ أن تكون قسيسا ، » هكذا أوضحتْ ضاحكة.

« أحبّ أىّ شىء تريده ماما ».

« أبنة العم جلوريا متلهّفة للغاية على رُسْمك قسيسا ، لكنْ حتى لو لم تكن كذلك ، هناك شخص بالداخل سيضع الفكرة في رأسها ».

« مَنْ ؟ »

« مَنْ ! مَنْ يمكنه أن يكون ؟ ليس الخال كوزمه: إنه لا يبالى بالأمر ؛ ولست أنا أيضا ».

« چوزیه دیاس ؟ » استنتجتُ.

« بالطبع ».

قطّبت جبينى مستفهما ، وكأننى لم أعرف شيئا، أكملت أبنة العم چوستينا نبأها الهام بالقول أنه فى نفس ذلك الأصيل ذكّر چوزيه دياس أمى بنذرها القديم،

« ابنة العم جلوريا يمكنها ، بمضى الأيام ، أن تنسى نذرها ؛ لكن كيف يمكنها ذلك في وجود شخص إلى جانبها دائما يثرثر حول المعهد الديني، والخُطَب التي يلقيها ، ومدائحه الكنيسية ، وحياة القسيس كذا وكيت ، كل شيء وكأنه وحده الذي يمكنه أن يقول ذلك ، وأثر هذا في الجو ... انظر ، هو لا يفعل ذلك إلاّ لخلق المتاعب ، ذلك أنه لا يزيد تديننا عن ذلك الفانوس. نعم ، هذا صحيح ، اليوم أيضا. لا تبع بأيّ سرّ تعرفه... اليوم في الأصيل تكلم بطريقة لا يمكنك أبدا أن تتصورها ...»

« لكن هل طرح ذلك على نحو مفاجىء تماما ؟ » سألتُ هذا السؤال لأرى ما إذا كانت ستقول شيئا عن وشايته حول ممارستى للحبّ مع البنت جارتنا.

لم تقل شيئا عن ذلك ، فقط أتت بحركة مبهمة وكأنها تلمّح إلى أن هناك شيئا آخر لا يمكنها أن تقوله، مرة أخرى نصحتنى بألا أبوح بما أعرف ، ولخصت رأيها السيء في چوزيه دياس ، وكان سيئا اللغاية اسخص مثير المتاعب ، وأناني ، ومتملّق متطفّل ، وهو ، رغم المظهر الخادع لتهذيبه ، جلف سوقيّ. قلتُ بعد ثوانٍ قليلة:

« ابنة العم چوستينا ، هل أنت مستعدّة لأن تفعلى شيئا ؟ »

«مانصو؟»

« هل يمكنك ... افترضى أننى لا أريد أن أكون قسيسا ... هل يمكنك أن تسالى ماما ... ».

« ليس ذلك ، » قاطعتنى بسرعة. « هذا الأمر أصبح مترستً ابقوة في رأس ابنة العم جلوريا ، لا شيء في العالم سيجعلها تغيّر قرارها الزمن وحده. كنت لا تزال صبيًا صغيرا ، وكانت أخبرت به فعلا كلّ دائرة أصدقائنا ، وحتى معارفنا. أنْ أذكّرها ، أبدا ، ذلك أنني لا أعمل على شقاء الآخرين ؛ لكن أنْ أطلب منها أن تفعل شيئا آخر ، لن أفعل هذا أيضا. أمّا إذا سألتني ، حسنا ! إذا قالت لى: < ابنة العم چوستينا ، ما رأيك أنت ؟> ، سيكون ردّى: < ابنة العم جلوريا ، أعتقد أنه إذا أراد ما رأيك أنت ؟> ، سيكون ردّى: < ابنة العم جلوريا ، أعتقد أنه إذا أراد أن يكون قسيسا ، دعيه يذهب إلى المعهد الديني ؛ لكنْ إذا لم يُردُ ، دعيه يبتعد. > هذا ما ينبغي أن أقول ، وما سأقول ، إذا طلبتُ نصيحتي في يبتعد. > هذا ما ينبغي أن أذهب وأتكلم معها دون أن تسألني – هذا ما لن أفعل ».

#### ۲۲ - أحاسيس شخص آخر

لم أخرج منها بأكثر من ذلك ، وفي النهاية ندمت على أننى تكلّمت. كان ينبغى أن أتبع نصيحة كاپيتو، بعد ذلك ، وأنا أوشك على المضي إلى داخل البيت ، استبقتني ابنة العم چوستينا دقائق أخرى قليلة ، فتحدّث عن الحرارة وعيد الحبّل\* القادم ، وعن خُطبي القديمة ، وأخيرا عن كاپيتو، لم تقل أي شيء سيء عنها ؛ بالعكس ، لمحت إلى أنها قد تغدو فتاة مليحة. أنا ، الذي كنت أعتبرتها جميلة فعلا ، كنت سأصرخ بأنها

<sup>\*</sup> عيد الحبك بلا دنس: عيد كاثوليكي (٨ديسمبر) - المترجم.

أجمل مخلوقة على الأرض ، إن لم يجعلني الخوف كتوما. مع ذلك ، عندما بدأت ابنة العم چوستينا تمتدح حسن سلوكها ، ورزانتها ، وطباعها ، وتفانيها في حبِّ والديُّها ، والحبِّ الذي كانت تكنَّه لأمي - كلَّ ذلك ألهبني إلى حدّ أننى امتدحتُها بدورى. عندما كان ذلك بدون كلمات ، كان يتم بإيماءة موافقة على كل تأكيد من تأكيدات حوستينا ، وبلا شك بالابتهاج الذي لابد أنه أضاء وجهى، ولم أنتبه إلى أننى أكدت بذلك الوشاية التي سمعتها من چوزیه دیاس في ذلك الأصبيل في حجرة الجلوس - إنْ لم تكن ارتابت فعلا في شيء قبل ذلك. لم أفكّر في هذا إلا وأنا في الفراش، عندئذ فقط أدركتُ أن عيني ابنة العم جوستينا بدا أنهما تحسبًان بي وأنا أتكلُّم ، أنهما تُصغيان إلى ، وتشمَّان رائحتي ، وتذوقان طعمي - أنهما تقومان بوظائف كلّ الحواسّ. لم يكن من المكن أن تكون هناك غيرة: بين صبيّ في مثل عمرى وأرملة في الأربعين لم يكن هناك مكان للغيرة. على أيّ حال ، خفَّفتُ بعد قليل امتداحها لكاييتو ، بل حتى أبدت قليلا من الملاحظات التي تنتقص من قدرها. قالت أنها خبيثة بعض الشيء وأن لها طريقة في النظر إليك من تحت جفنيها، مع ذلك ، لا أعتقد أنها كانت الغيرة. إننى أعتقد في الواقع ... نعم ... نعم ، أعتقد أن الأمر كان هكذا، أعتقد أن ابنة العم جوستينا وجدت في مشهد أحاسيس شخص أخر إحياء مبهما الأحاسيسها هي، والمتعة يمكن ارتشافها أيضا من شفتيْن تحكيان،

# ٢٣ - توجيسه الإنسذار

« ينبغى أن أتكلم معك غدا ، مهما كانت الظروف، اختر المكان ، وأخبرنى في وقت لاحق ».

أنا واثق أن چوزیه دیاس وجد طریقتی فی الکلام غیر مالوفة. لم تكن اللهجة آمرة جدا كما خشیت ، لكن الكلمات كانت كذلك. كما أن عدم توجیهی أسئلة ، وبلا رجاء مهذب ، وبلا تردد ، كما كان یلیق بصبی ، وكما كان مالوفا منی – كل ذلك أعطاه دون شك فكرة عن شخص متغیر وعن موقف متغیر ، كان ذلك فی الصالة ، ونحن ندخل لتناول الشای فی تلك اللیلة – جاء چوزیه دیاس وهو یسیر منطلقا ممتلیء النفس بوالتر سكوت الذی كان یقرأه آنذاك علی أمی وابنة العم چوستینا. كان یقرأ بالوزن والإیقاع ، كانت القلاع والمنتزهات تخرج من فمه أضخم وأوسع ، وكانت البحیرات أغزر ماء ، وكانت « قبة السماء الزرقاء » تضم عدة آلاف أكثر من النجوم المتألقة ، وعندما یقرأ الحوار كان یغیر الأصوات ، بحیث كانت تغدو خشنة أو رفیعة قلیلا حسب جنس المتكلم، وكان یحاكی ، بتغییر اللهجة ، رقتها وغضبها .

بعد أن قال لى تصبح على خير ، فى القرائدة ، غمغم: « غداً فى الشارع، على أن أقوم ببعض المشتريات ، يمكنك أن تذهب معى ، ساستأذن ماما، هل لديك درس غدا ؟ »

- « أخذتُ درسى اليوم ».
- « حسنا، لن أسائك ما الأمر ؛ أنا واثق أنه أمر هام وخصوصي ».
  - « نعم ، یا سنیور ».
    - « إلى الغد »،
- تمّ كلّ شيء على ما يرام، لم يحدث سوى تغيير واحد بسيط: كانت

أمى تعتقد أن الطقس أدفأ مما ينبغى فلم توافق على ذهابى سيرا على الأقدام ؛ وأخذنا الأتوبيس من أمام الباب.

« لا فرق ، » قال لى چوزيه دياس ، « يمكننا أن ننزل عند بوابة المنتزه العام ».

### ٢٤ - أمّ وخيادم

كان چوزيه دياس يعاملنى بالعناية الرقيقة لأم وبمجاملات خادم، كان أوّل ما فعل عندما كبرتُ بما يكفى للخروج بمفردى هو التخلُّص من خادمى: أصبح هو خادمى وأخذ يرافقنى فى الشارع، كان يعتنى بأشيائى فى البيت ، بكتبى ، وأحذيتى ، وصحتى ، ونُطقى، فى الثامنة من عمرى ، كانت جُمُوعى تفتقر أحيانا إلى النهايات الدقيقة: كان يصححها ، بنصف جديّة ، لإعطاء قوة الإقناع الدرس وبنصف ضحك اعتذارا عن التصحيح. بهذه الطريقة قدّم العون لعمل مُدرسي الابتدائي، فيما بعد ، عندما كان الأب كابرال يعلمنى اللاتينية ، والدين ، والتاريخ فيما بعد ، عندما كان الأب كابرال يعلمنى اللاتينية ، والدين ، والتاريخ المقدّس ، حضر الدروس ، وأبدى أفكارا كنسية ، وأخيرا سال الأب: ه أليس صحيحا أن صديقنا الصغير يتقدّم تقدّما رائعا ؟ » دعائى « طفلا عبقريا » ؛ وقال لأمى أنه عرف من قبل أطفالا كانوا بالغى الذكاء لكننى تفوقت عليهم جميعا ، فضلا عن أننى ، بالقياس إلى عمرى ، امتاكت بالفعل صفات خلّقية متينة. ورغم أننى لم أدرك تماما المعنى الكامل لهذا القسط الأخير من المدح ، استمتعت بهذا القسط من المدح .

#### ٢٥ - في المنتزه العام

دخلنا المنتزه العام. وجوه مُسنة ، ووجوه أخرى شاحبة ، أو بلا هدف فحسب ، هنا وهناك على طول المر الذي يؤدّى من البوابة إلى الحديقة. مضينا نحو الحديقة. بينما كنّا نسير ، ولكى أشجّع نفسى ، تحدّث عن الحديقة:

« مضى زمن طويل منذ كنتُ هنا ، ربَّما سنة ».

« معذرة ، » قاطعنى ، « لم يمض أكثر من ثلاثة أشهر منذ كنت هنا مع جارنا پائوا ، ألا تتذكّر ؟ »

« هذا صحيح ، لكننا نتجوّل فقط ...»

« طلب من أمك أن تسمح له بأن يأخذك معه ، ووافقت هي ، لأنها طيبة ، مثل أمّ الربّ لكن أصبغ إلى ، مادمنا نتحدث الآن في هذا الموضوع ، لا يليق بك أن تتمشّى في الشارع مع پادوا »،

« لکننی ذهبت معه مرّات ومرّات ...»

« عندما كنت أصغر. كنت طفلا ، كان لا بأس بذلك ، كان يمكن اعتباره خادما . لكنك تكبر لتصبح شابًا ، وهو يغدو أكثر ألفة طول الوقت . في النهاية ، لن تميل دونا جلوريا إلى ذلك . آل پادوا ليسوا سيئين تماما . كاپيتو ، رغم تلكما العينين اللتين أعطاهما الشيطان إياها ... هل لاحظت قط عينيها تلكما ؟ عينا غجرية – منحرفتان وخبيثتان . حسنا ، رغم عينيها كان من المكن أن تكون مقبولة ، لولا غرورها وحديثها الناعم . عينيها كان من المكن أن تكون مقبولة ، لولا غرورها وحديثها الناعم . ياه ، ما أنعم لسانها ! دونا فورتوناتا تستحق الاحترام ، وأنا لا أنكر أنه هو قد يكون أمينا ، وله وظيفة جيدة ، ويملك البيت الذي يقيم فيه ، لكن الأمانة والاحترام ليسا كافين ، فالمزايا الأخرى تفقد قيمتها ، إذا أخذنا في الاعتبار رفاق السوء الذين يعاشرهم . پادوا يميل إلى

الأشخاص الأجلاف. وإذا تعارف مع شخص جلف سىء الخلق فإنهما يصبحان صديقين حميمين، أنا لا أقول هذا لأننى أكرهه ، ولا لأنه يتحدث عنى ويسخر منى ، كما سخر في ذلك اليوم من كَعَبِّيُّ الرثّين ...»

« معذرة ، » قاطعتُ. تمهلتُ في مشيتي ، « لم أسمع منه أبدا أيّ شيء ينتقص من شأنك ، يا سنيور. بالعكس ، ذات يوم منذ وقت غير بعيد ، قال لشخص في حضوري ، أنك < رجل موهوب ويمكنك أن تتكلّم مثل عضو في مجلس النواب > ».

ابتسم چوزیه دیاس بابتهاج ، لکنه بذل جهدا هائلا ، وأوقف الابتسام ، ثم مضى يقول:

« أنا لا أدين له بشكر على ذلك، هناك آخرون ، أنبل أصلا ، شرفونى برأيهم السامى. ولا شيء من هذا ينأى به عن أن يكون كما قلت عنه ».

كُنّا بدأنا نمشى من جديد ، ومضينا إلى الحديقة وأخذنا نتطلّع المحر..

« أُدرك أنك لا تبغى سوى سعادتى ، » قلت بعد دقائق قليلة.

« ماذا أيضا ، يا بنتينيو ؟ »

« في تلك الحالة ، سأطلب منك معروفا ».

« معروفًا ؟ أُوَّمِر ، أمرك ، ماهو ؟ »

« ماما ... »

لفترة من الوقت لم يكن بإمكانى أن أنطلق بالباقى ، رغم أنه لم يكن كثيرا ، ورغم أننى كنت حفظته عن ظهر قلب، مرة أخرى سأل چوزيه دياس ما هو ، وهزّنى برقة ، ورفع ذقنى وثبّت عينيه على ، قلقا ، تماما كما فعلت ابنة العم چوستينا فى المساء السابق.

« ما أاما ؟ ماذا عن ماما ؟ »

« ماما ترغب في أن أكون قسيسا ، لكننى لا يمكن أن أكون

تصلّب چوزیه دیاس ، مصعوقا.

قستيسا » ، قلتُ أخيرا .

« لا يمكننى ، » واصلت كلامى ، مصعوقا ليس أقل منه ، « لا أملك أي موهبة لذلك ، ليس لدى أي ميل إلى حياة قسيس. أنا مستعد لعمل أي شيء تريده هي ؛ ماما تعرف أننى سافعل أي شيء قالته لى. أنا مستعد لأن أكون أي شيء تريده ، حتى سائق أتوبيس. قسيسا ، لا ، لا يمكننى أن أكون قسيسا ، للهنة رائعة ، لكن ليس لى ».

كلّ هذه الخطبة لم تتدفق منى هكذا ، دفعة واحدة ، فى دفقة طبيعية ، ومكتملة ، كما قد تبدو على الصفحة المطبوعة ، بل مُمزَّقة ، مُغمغَمة ، بصوت كان ضعيفا وخائرا، مع ذلك ، أصغى إليها چوزيه دياس مذعورا، ولا شك فى أنه لم يكن حسب حسابا لمقاومتى ، مهما تكن ضعيفة ؛ لكن ما أفزعه أكثر أيضا كان هذا الختام:

« إننى أعتمد عليك ، يا سنيور ، أنقذْني ».

انفتحت عينا تابعنا فجأة ، وتقوّس حاجباه ، أما الابتهاج الذى توقعتُه وأنا أختاره حاميا فلم يتجلّ فى اختلاجة واحدة، كان وجهه بأسره غير متلائم مع ذهوله، لا شك فى أن موضوع حديثى كشف له عن شخص جديد ؛ وأنا لم أتعرّف على نفسى، لكن الكلمات الأخيرة هى التى حملت قوّة فريدة. كان چوزيه دياس مذهولا، وعندما عادت عيناه إلى أبعادهما المعتادة:

« لكن ماذا يمكنني أن أفعل ؟ » سأل،

« الكثير، أنت تعرف أن كل شخص فى بيتنا يُقدَّر رأيك، ماما تطلب نصيحتك كثيرا ، أليس كذلك ؟ الخال كوزمه يقول أنك شخص موهوب ... »

« مكارم أخلاق ، » ردّ بالمثل ، وتملّق ، « أفضال من أشخاص أفاضل يستحقّون كلّ ما ... ألم أقل لك ! لا أحد سيسمعنى أقول في يوم من الأيام أقلّ شيء ضدّ أشخاص كهؤلاء. لماذا ؟ لأنهم نبلاء وأفاضل. أمك قديسة ، خالك أنبل نبيل. عرفت عائلات ممتازة: لا يمكن لعائلة منها أن تُضارع عائلتكم في نبل المشاعر، الموهبة التي يجدها خالك في - أعترف بأننى أملكها ، لكنها واحدة فحسب - إنها موهبة تمييز ما هو جيّد وجدير بالإعجاب والتقدير ».

« لا شك في أن لديك أيضا موهبة حماية أصدقائك -- مثلى أنا ».

« كيف يمكننى أن أساعد ، يا ملاك السماء ؟ لا يمكننى أن أقنع أمل بالعدول عن مشروع كان ، بالإضافة إلى النُذْر ، طموحها وحلمها على مدى سنوات عديدة. حتى إنْ كان ذلك بإمكانى ذات يوم ، فقد فات الأوان، أمس فقط شرفتنى بأنْ قالت لى: < چوزيه دياس ، يجب أن أدخل بنتينيو المعهد الدينى > ».

ليس الجُبْن بالعملة الحقيرة كما يصورونه، لولم أكن خائفا ، لكان من المحتمل ، بالسخط الذي أحسست به ، أن أنفجر وأصفه بأنه كاذب ؛ لكن كان سيصبح من الضروري في هذه الحالة أن أعترف بأنني كنت أسترق السمع ، وكان أحد التصرفين سيتعادل مع الآخر، أكتفيت بالإجابة بأن الأوان لم يفت .

« لم يفَّت الأوان ؛ لا يزال هناك وقت إذا أردت ».

« إذا أردتُ ! ماذا أريد غير ذلك ، غير أن أخدمك ؟ فيم يمكننى أن أرغب سوى أن تكون سعيدا ، كما تستحقّ ؟ »

« حسنا إذن ، لا يزال هناك وقت. انظر ، ليس ذلك كسلا. أنا مستعد لأن أفعل أي شيء. إذا رغبت أمى في أن أدرس القانون ، ساذهب إلى سان باولو .. ».

#### ٢٦ - القانون جميــل

فوق وجه چوزیه دیاس مر شیء أشبه بالتأمل فی فکرة - فکرة أبهجتُه فوق العادة. ظلّ صامتا لحظات قلیلة، کنتُ أثبّتُ عینیً علیه ؛ وأدار هو عینیه نحو المیناء، وعندما أصررتُ قال:

« فات الأوان ، لكن لأثبت أنه ليس هناك نقص في الاستعداد من ناحيتى ، سأكلّم أمك. لا أعد بالنجاح في استمالتها ، لكنني سأبذل قصارى جهدى ؛ سأقذف بكل نفسى في هذا الموضوع. حقّا وصدقا ، ألا تريد أن تكون قسيسا ، القانون جميل ، يا ولدى العزيز ... يمكنك الذهاب إلى سان باولو ، أو إلى بيرنامبوكو ، أو حتى إلى أماكن أبعد. هناك جامعات جيدة في بلدان أخرى، اذهب إلى القانون ، إذا كانت هذه رسالتك، سأكلّم دونا جلوريا ، لكن لا تعتمد على وحدى ؛ تكلّم مع خالك ».

« أعتقد أننى ينبغى أن أفعل ».

« اطلبُ العون من الرب أيضا – من الرب ومن العدراء المقدّسة ، » قال مشيرا إلى السماء،

كانت السماء مغطّاة بسحب خفيفة، في الجقّ ، قرب الساحل ، طارت طيور كبيرة سوداء في دوائر ، كانت تحوّم ، أو تنقض ، وهي ترفرف بأجنحتها ، فتغمس أرجلها في الماء ، وترتفع من جديد لتهبط مرة أخرى. لكن لا الظلال السوداء للسماء ولا الرقصات الرائعة للطيور جذبت أفكارى بعيدا عن مُحامىً. بعد أن أجبت بأننى سأفعل ، أضفتُ:

« الرب سيفعل ما تشاء أنتُ ، يا سنيور ».

« لا تجدّفْ، الرب سيد كل الأشياء، إنه ، بنفسه وفي نفسه ، الأرض والسماء ، الماضى ، والحاضر ، والمستقبل. صلّ ليمنحك السعادة ، كما أفعل أنا ... ما دُمْتَ تحسّ بأنه لا يمكنك أن تكون قسيسا

وتفضل القانون... القانون جميل ، دون أيّ إساءة إلى اللاهوت ، الذي هو أفضل من كل شيء آخر ، كما أن الحياة الكنسية هي أقدس حياة. لماذا لا تسافر إلى الخارج لتدرس القانون ؟ أفضل شيء هو أن تذهب في الحال إلى جامعة ما ، وفي نفس الوقت الذي تدرس ، سافر وارتحل يمكن أن نذهب معا ؛ نرى بلدانا أجنبية ، نسمع اللغة الإنجليزية ، والفرنسية ، والإيطالية ، والأسبانية ، والروسية ، وحتى السويدية. من المحتمل ألا يكون بإمكان دونا جلوريا أن تذهب معك ؛ حتى إن كان بإمكانها ، فهي لن ترغب في أن ترعى شئون العمل ، والأوراق ، وتفاصيل بإمكانه في الإقامة ، ولا السفر معك من مكان إلى آخر ... ياه !

« وافقت ، إذن ستطلب من ماما ألا تدخلني المعهد الديني ؟ »

« سأطلب ، لكن الطلب لا يعنى الحصول على موافقتها. يا ملاك قلبى ، لو كانت الرغبة فى الخدمة تساوى القدرة على الأمر ، لكُنّا هناك ، لكُنّا على ظهر السفينة، أه ، لا يمكنك أن تتخيّل ما هى أوروبا ! ياه ! أوروبا ... »

رفع قدمه ، ودار دورة راقصة على قدمه الأخرى. كان أحد طموحاته أن يعود إلى أوروبا . تحدّث عنها مرارا لكنه لم ينجح أبدا فى إغراء أمى ، أو خالى ، مهما كان ما امتدح كثيرا مناخها ومفاتنها ... ولم يكن حسب حساب هذه الإمكانية للذهاب معى والبقاء هناك خلال دراستى الطوبلة المديدة.

« نحن على ظهر السفينة بالفعل ، يا بنتينيو ، نحن على ظهر السفينة ! »

#### ۲۷-في المدخل

فى مدخل المنتزه ، مد شحاذ يده إلينا، واصل چوزيه دياس سيره ، لكننى فكّرت فى كاپيتو وفى المعهد الدينى، أخرجت من جيبى قطعتين نقديّتين وأعطيتهما للشحاذ، قبّل الشحاذ القطعتين النقديّتين. طلبت منه أن يصلّى من أجلى ، من أجل أن أحقّق كلّ أمنياتى،

« نعم ، أيّها التقىّ الورع ».

« اسمى بنتو ، » أضعفت ذلك لأنوره.

#### ۲۸ – في الشارع

كان چوزيه دياس راضيا إلى حدّ أنه تغيّر من رجل اللحظات الخطيرة ، مثلما كان بين الناس ، إلى رجل متوبّب خفيف الحركة، لوّح بيديه ورجليه ، تكلّم عن كل شيء ، أوقفنى أمام كل واجهة دكان أو إعلان مسرح، روى لى حبكة مسرحيات عديدة ، ألقى على مونولوجات شعرا ، قام بكل مهامه وأغراضه ، دفع حسابات ، جمع إيجارات ؛ ولنفسه اشترى ورقة يانصيب فئة واحد على عشرين، وأخيرا أزاح الرجل المتوبّرالرجل الرقيق ، ورجع إلى حديثه البطىء المتأنّى ، مع استخدام صيغ التفضيل العليا. لم أفهم أن التغيّر كان طبيعيًا ؛ وخشيتُ أن يكون غيّر رأيه ، وحاولتُ أن أتودّد بالكلمات والحركات الرقيقة ، إلى أن ركبنا الأتوبيس.

فى الطريق ، قابلنا الامبراطور ، الذى كان قادما من مدرسة الطبّ. توقف الأتوبيس الذى كنا نركبه ، مثل كل المركبات الأخرى، نزل الركاب ووقفوا برؤوس عارية فى الشارع إلى أن مرّت المركبة الامبراطورية. عندما عُدْتُ إلى مقعدى ، عُدْتُ معى بفكرة رائعة ، فكرة أن أذهب لأرى الامبراطور ، وأن أخبره بكل شيء وأن أطلب منه أن يتدخّل، لن أبوح لكابيتو بهذه الفكرة. قلتُ لنفسى: « إذا طلب جلالته ، ستُذعن ماما ».

فى تلك اللحظة رأيت الامبراطور يُصغى إلى ، مفكّرا ، وأخيرا قال « نعم » ، أنه سيذهب ليكلّم أمى ؛ قبلت يده باكيا ، وحالما أصل إلى البيت ، سأترقب إلى أن أسمع وقع حوافر الجياد – الحرس الامبراطورى. إنه الامبراطور ! إنه الامبراطور ! سيجرى كل شخص إلى النافذة ليراه يمر ، لكنه لن يمر ، ستقف المركبة عند بابنا ، الامبراطور يترجّل ويدخل هياج عظيم فى الحيّ: « الامبراطور دخل بيت دونا جلوريا ! ما الأمر ؟ ماذا عسى أن يكون ؟ » تخرج أسرتنا لاستقباله ؛ ستكون أمّى هى الأولى وتقبل يده عندئذ يطلب الامبراطور من أمى ، بابتسامات عريضة ، داخلا حيالة الاستقبال ، أو غير داخل – لا أتذكّر بماما ، فالأحلام مشوّشة غالبا – ألا تجعلنى قسيسا ، وهى تعد ، مادحة وطائعة ، بألا تفعل.

- « الطبّ لماذا لا تجعلينه يدرس الطبّ ؟ »
  - « مادامت هذه مشيئة جلالتك ... »
- « اجعليه يدرس الطبّ، إنها مهنة ممتازة ، ولدينا أساتذة ممتازون هنا في المدينة، ألم تذهبي أبدا إلى مدرستنا ؟ إنها مدرسة جميلة. لدينا

بالفعل دكاترة من الدرجة الأولى ، جديرون بأن يقفوا كتفا إلى كتف مع أعظم الأطباء فى العالم. الطبّ علم عظيم ؛ إنه لشىء عظيم أن يكون المرء قادرا على منح الصحة للآخرين ، على تمييز الأمراض ، ومقاومتها ، والقضاء عليها. لابد أنك أنت نفسك رأيت معجزات ، يا سنيورة. مات زوجك ، لكن مرضه كان قاتلا ، كما أنه لم يكن يعتنى بصحته ... إنها مهنة ممتازة ؛ أرسليه إلى مدرستنا. افعلى هذا من أجلى ، هه ؟ هل أنت مستعد ، يا بنتينيو ؟ »

« إذا كانت ماما مستعدّة ... »

« أنا مستعدّة ، يا بنيّ. جلالته يأمر »،

ثم يمد الامبراطور يده مرة أخرى النُقبلها ، ويخرج برفقتنا جميعا ، والشارع يمتلىء بالناس ، والوجوه تتزاحم على النوافذ ، ويسود صمت رهيب، يدخل الامبراطور المركبة ، وينحنى ، ويأتى بإشارة وداع ، وهو لايزال يقول: « الطبّ ، مدرستنا ! » وتنطلق المركبة وسط حسد الجيران والشكر الجزيل من أسرتنا .

كلّ هذا رأيته وسمعته. لا ، إن خيال أريوست ليس أكثر خصوبة من خيال الأطفال والعشّاق ، لا ولاتحتاج هذه الرؤية للمستحيل إلى أكثر من ركن في أتوبيس. ابتهجت للحظات ، ولنقل لدقائق ، إلى أن تلاشت الحدود الفاصلة وأعادتني إلى الوجوه غير الحالمة لزملائي الرُّكّاب.

#### ٣٠ - القربان المقدّس

لابد أنك فهمت الآن أن نصيحة الامبراطور الخاصة بالطب لم تكن إلا من وحى القليل من رغبتى فى مغادرة ريو دى چانيرو، فأحلام اليقظة أشبه ما تكون بالأحلام الأخرى ، وهى تنسج نفسها على منوال ميولنا

وذكرياتنا. فلأذهب ، عند الحاجة ، إلى سان باولو ، أمّا أن أذهب إلى أوروبا... إنها بعيدة جدًا ، ببحر عريض وامتداد طويل للزمن، عاش الطبّ! ينبغى أن أفضى بهذه الآمال إلى كابيتو.

« لابد أنهم يُخْرجون القربان المقدس الآن ، » قال شخص من ركاب الأتوبيس ، « إننى أسمع الجرس ؛ نعم ، أعتقد أنه في سانتو أنطونيو دوس يو بريس، قف ، يا كمسارى ! »

جذب الكمساري الحبل الذي كان مُتَّصلا بذراع السائق ، فتوقَّف الأتوبيس ، ونزل الرجل. هزّ جوزيه دياس رأسه هزتين سريعتين ، أمسك بذراعى وأنزلني معه. نحن أيضا سنرافق القربان المقدّس، والواقع أن الجرس كان يدعو المؤمنين إلى ذلك الطقس الملىء بأقصى المتعة. كان هناك بالفعل عدد من الأشخاص في حجرة المقدّسات، كانت تلك هي المرة الأولى التي وجدت نفسى فيها بين تلك الصَّحبة الوقورة، أطعتُ التوجيهات ، في البداية بارتباك ، لكنُّ في الحال بإحساس بالرضا ، ليس حُبًّا في الطقس في المقام الأول ، بل لأنه منحني دور رجل. وعندما بدأ قُيِّم الكنيسة في توزيع الأردية الكهنوتية ، اندفع إلى الداخل شخص ميهور الأنفاس ؛ كان ذلك جاري يادوا، هو أيضا سيرافق القربان المقدّس، لمحنا ، وأتى إلينا ليتكلم معنا، أتى چوزيه دياس بحركة انزعاج ، ولم يكد يردّ على تحيّته ، وظلّ ينظر إلى القسيّس ، الذي كان يفسل يديه. بعد ذلك ، عندما كان يادوا يتحدُّث مع قَيِّم الكنيسة بصوت خفيض ، أسرع إليهما جوزيه دياس ؛ وفعلت أنا نفس الشيء. كان يادوا يتوسلًا إلى قُيِّم الكنيسة ليأذن له بأن يحمل قائما من قوائم المظلَّة. طلب چوزیه دیاس واحدا أیضا،

« هناك واحد فقط لم يُؤخذ بعد ، » قال قَيِّم الكنيسة.

« حسنا ، ذلك الواحد إذن ، » قال چوزيه دياس،

rted by 1111 Combine - (no stamps are applied by registered version)

« لكننى طلبت أوّلاً ، » أصر بادوا،

« أنت طلبت أوَّلاً ، لكنك دخلت أخيرا ، » ردّ چوزيه دياس.

« لكنني كنتُ هنا من قبل. أنت تحمل شمعة ».

استمر پادوا ، رغم فزعه من چوزیه دیاس ، یطلب القائم بصوت خفیض ، مکترم، وجد قیم الکنیسة طریقة لحل المشکلة: تعهد بأن یجعل واحدا من حَملة المظلّة الآخرین یتخلّی عن قائمه لپادوا ، الذی کان معروفا فی الأبرشیة ، شانه فی ذلك شأن چوزیه دیاس. تم ذلك ، لکن چوزیه دیاس أفسد حتی هذه التسویة. لا ، عندما رأی أن هناك قائما آخر متاحا ، طلبه لی ، « الطالب الحدیث فی المعهد الدینی » هو الأجدر بأن یکون هذا التشریف من نصیبه، غدا وجه پادوا شاحبا كالشموع، كان ذلك وضعا لقلب أب فی امتحان عسیر. قیم الكنیسة الذی كان یعرفنی جیدا لائه كان یرانی هناك مع أمی أیام الأحد ، سألنی بفضول ما إذا كنت طالب معهد دینی حقاً.

« ليس بعد ، لكنه سيكون ، » أجاب چوزيه دياس ، وهو يغمز لى بعينه اليسرى. ورغم الغمز ، أغضبنى ذلك،

« حسنا ، سأتنازل عنه لعزيزنا بنتينيو ، » تنهِّد والد كاپيتو.

من ناحيتى ، وددت لو تركتُه يحتفظ به، تذكّرتُ أنه اعتاد أن يرافق القربان المقدس حتى النهاية وأنه كان يحمل شمعة دائما ؛ لكنه نجح آخر مرة فى الحصول على أحد قوائم المظلّة. كان الشرف الخاص الذى يلازم المظلّة يتمثل فى أنها كانت تغطى القسيس ؛ أمّا الشمعة فكان أيّ شخص يصلح لها. إنه هو الذى أخبرنى بكل هذا ، وكان يملؤه زهو ورع ومرح وهو يفعل ذلك. وهذا سر الاهتياج الذى دخل به الكنيسة، كأنت هذه ستكون المرة الثانية التى يحمل فيها المظلّة ، وكان هذا هو السبب فى أنه ذهب مباشرةً ليطلب ذلك. ثم لا شيء ! كان عليه أن يعود إلى الشمعة ذهب مباشرةً ليطلب ذلك. ثم لا شيء ! كان عليه أن يعود إلى الشمعة

المعتادة. حالة أخرى لانهيار القيام المؤقت بعمل: كان على المدير أن يعود إلى وظيفته القديمة ... أردت أن أعطيه قائمي لكن تابعنا منعنى من هذا التصرف الشهم فطلب من قيم الكنيسة أن يضعنا ، هو وأنا ، عند القائمين الأماميين حتى نفتح الطريق للمظلة.

بالأردية الكهنوتية ، بالشموع موزّعة ومضاءة ، بالقسيس ووعاء الخبز المقدّس مستعدين ، بقيم الكنيسة بنبات الزّف والجرس في يديه ، انطلق الموكب الديني إلى الشارع، عندما وجدت نفسى أمسك بأحد القوائم وأمر بين صفين من المؤمنين ، الراكعين ، استثيرت مشاعرى، كان پادْوا يقضم شمعته بمرارة، هذا تعبير مجازى ؛ لكنني لا أستطيع التفكير في طريقة أكثر حيوية لأصف ألم ومهانة جارى، لكنني لم أستطع أن أنظر إليه طويلا جدا ، ولا إلى التابع الذي سار بمحاذاتي رافعا رأسه عاليا وكأنه هو ذاته رب الجنود، وماهي إلا برهة قصيرة حتى أحسست بالتعب ، وتدلّى ذراعاى ؛ ولحسن الحظ كان البيت قريبا ، في شارع سينادو،

كانت المرأة المريضة مسلولة ، كانت سيّدة مترملة، وكانت لها ابنة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة تبكى عند باب حجرتها، لم تكن الفتاة جميلة ، وربما لم يكن فيها أيّ شيء يجذب على الإطلاق: تدلّى شعرها دون تمشيط ، وجعّدت الدموع عينيها ، مع ذلك ، كان المشهد ناطقا وأسر قلبي، تلقّى القسيس اعتراف المرأة المريضة ، وناولها القربان المقدّس والزيت المقدّس، ازداد نحيب الفتاة وأحسست أن عيني تدمعان ، فابتعدت أن هيني تدمعان ، فابتعدت أن ألى نافذة ، يا للمسكينة ! الحزن في حدّ ذاته يُعدي ؛ وامتزج بأفكار أمي فأثر في أكثر ، وعندما انتهيت إلى التفكير في كاييتو أحسست برغبة شديدة في البكاء . خرجت إلى الصالة وسمعت شخصا يقول لي:

« لا تَبْك هكذا! »

ذهبت معى صورة كاپيتو، وخيالى ، الذى كان منحها الدموع قبل ذلك بدقيقة ، ملأ الآن فمها بالضحك ؛ رأيتُها تكتب على الحائط ، تتكلّم معى ، تدور بذراعيها فى الهواء ؛ وسمعت اسمى بوضوح بنغمة حلوة أسكرتني. الشموع المضاءة ، الحزينة للغاية فى ظلّ تلك الظروف ، ارتدت مظهر تألّق زفاف. ما هو تألّق زفاف ؟ لا أدرى ؛ كان شيئا هو النقيض للموت ، وبقدر ما يمكننى أن أفهم ، نقيض الموت هو الزفاف، اجتاحنى هذا الإحساس الجديد إلى أن أتى إلى چوزيه دياس وهمس فى أذنى :

« لا تكشَّنُّ هكذا!»

استعدت وقارى بسرعة. حان وقت الانصراف، التقطت قائمى، ولما كنت أعرف المسافة بالفعل – وكنا عائدين الآن إلى الكنيسة ، الأمر الذي جعلها تبدو أقل – تناقص وزن القائم إلى حد كبير، إلى جانب ذلك ، فالشمس هناك في الخارج ، والحيوية في الشارع ، والأولاد الذين في عمرى والذين كانوا يراقبون بحسد ، والأتقياء الذين أتوا إلى النوافذ أو ركعوا في المداخل ، كلّ ذلك ملا روحي ببهجة غريبة.

على العكس من ذلك ، بدا پائوا مُهانا أكثر فأكثر، رغم أننى كنتُ أحتل مكانه ، لم يستطع أن يعزّى نفسه بالشمعة ، الشمعة البائسة، على أنه كان هناك أيضا آخرون يحملون شموعا ، وكانوا يحتفظون بصعوبة بالرزانة الواجبة : لم يكونوا يختالون في مشيهم ، لكنهم في الوقت ذاته لم يكونوا حزينين، وكان بمقدور المرء أن يلاحظ أنهم يسيرون بزهو واعتزاز،

#### ٣١ - فضول كابيتو

كانت كاپيتو تُفضل أى شىء على المعهد الدينى، بدلا من أن تكتئب تحت تهديد فراق طويل ، أعلنت أنها ستكون راضية إذا نجحت فكرة أورويا، وعندما قصصت عليها حلمى الامبراطورى:

« لا ، يا بنتينيو ، فلندع الامبراطور في سلام » ، قالت ، « فلنعلّق أملنا في الوقت الحالى على وعد چوزيه دياس، متى سيتكلّم مع أمك ؟ » « لم يحدّد اليوم ؛ وعد بأنه سيرى ، وبأنه سيتكلّم في أسرع وقت ممكن ، وبأنني ينبغي أن أسال الرب العون ».

طلبت منّى كاپيتو أن أعيد على مسامعها كل إجابات التابع ، وتغيّرات إيماءاته ، وحتى دورته الراقصة على قدم واحدة ، هذه الدورة التى لم أكد أذكرها سالّت عن اللهجة التى تكلّم بها . كانت مدقّقة ويقظة وبدا أنها تفكر في الأمر كله مليّا مع نفسها . أو ربما أمكن القول أنها كانت تفحص ، وتصنّف ، وتضع في ملفات داخل ذاكرتها كل شيء قلّتُه لها . ربما كانت هذه الصورة أفضل من الأخرى ، لكن لاشيء يظلّ أفضل كاپيتو هي كاپيتو ، أيْ مخلوقة خاصة جدا ، كانت امرأة أكثر مما كنت أنا رجلا . إنْ كنتُ لم أقل هذا من قبل ، فها أنا أقوله الآن . إنْ كنتُ قلتُه ، فها أنا أكرره على أيّ حال . هناك مفاهيم ينبغي طبعها طبعاً في روح القارىء بقوة التكرار .

كانت أيضا الأكثر فضولا، وفضول كاپيتو يملأ صفحة كاملة، كان فضولها متباين الأنواع ، القابلة للتفسير وغير القابلة ، المفيدة وكذلك غير المفيدة ، حول موضوعات خطيرة وأخرى تافهة ؛ كانت تُحب معرفة كل شيء. في المدرسة حيث تعلّمت من سن السابعة القراءة ، والكتابة ، والحساب ، واللغة الفرنسية ، والدين ، وأشغال الإبرة ، لم تتعلّم ، على

سبيل المثال ، شُغُل الدنتيلاً ؛ لهذا السبب ذاته طلبت من ابنة العم 
چوستينا أن تعلّمها ذلك. وإذا كانت لم تتعلّم اللاتينية مع الأب كابرال ، 
فذلك لأن الأب ، بعد أن اقترح عليها ذلك على سبيل المزاح ، انتهى إلى 
القول أن اللاتينية لم تكن لغة للبنات الصغيرات. اعترفت لى كابيتو ذات 
يوم بأن هذا السبب ألهب رغبتها في أن تتعلّمها، وعلى سبيل التعويض ، 
قررت أن تدرس الإنجليزية مع أستاذ عجوز كان صديقا ورفيقا في لعبة 
الهويست لأبيها ؛ لكنها فشلت. وعلّمها الخال كوزمه الطاولة.

« دعيني أغلبك « مَرْساً » صغيرا ، يا كابيتو ، » كان يقول لها ،

كانت كاييتو تُطيع ، وكانت تلعب بسهولة ، وانتباه ، وكذلك - ولا أدرى ما إذا كان يمكنني أن أقول - بحبّ، ذات يوم وجدتُها ترسم اسكتشا بقلم رمياص ؛ كانت تخطُّ الخطوط الأخيرة ، وطلبت منى أن أنتظر لأرى ما إذا كان يشبهه، كان عبارة عن بورتريه لأبي ، منسوحًا من اللوحة الزيتية المرسومة على القماش والتي احتفظت بها أمي في حجرة الجلوس ، وهم البورتريه الذي عندي الآن. لم يكن نموذجا الكمال: بالعكس ، كانت العينان جاحظتين ، وكان الشعر يتألُّف من دوائر صعفيرة الواحدة فوق الأخرى. لكنني ، آخذا في الاعتبار أنها لم تكن تعرف مبدأ واحدا من مبادىء ذلك الفن وأنها رسمتُه من الذاكرة في غضون ثوان قليلة ، وجدتُه عملا كبير القيمة - ولعلك تأخذ في اعتبارك شبابي ومشاعرى المتعاطفة. مع ذلك ، من رأيي أنه كان يمكنها أن تتعلّم الرسيم بسهولة ، كما تعلَّمتُ الموسيقي بعد ذلك بكثير. كان سبق لها أن وقعت في حبُّ البيانو الذي في بيتنا ، وكان قطعة خردة لا قيمة لها ، ولم يكن أكثر من مجرّد شيء للذكري. اعتادت أن تقرأ رواياتنا ، وأن تتصفّح كُتُبنا عن أعمال الحَفْر: أرادت أن تعرف أشياء عن الأطلال ، الناس ، الحملات العسكرية ، الاسم ، القصة ، المكان. أعطاها جوزيه دياس هذه النُّتُف من المعلومات بمظهر اعتداد بالمعرفة الواسعة. لم تكن معرفته الواسعة أكثر مهابة بكثير من طب الهوميوباثيا الذي أتى به معه من المناطق النائية.

ذات يوم أرادت كاپيتو أن تعرف شخصيات الصنور التي في حجرة الجلوس، أخبرها التابع ، بإيجاز ، وإنْ تأنّى قليلا عند يوليوس قيصر ، بهتافات التعجّب واللاتينية:

« قيصر ! بوليوس قيصر ! رجل عظيم ! و

« \*Tu qouque Brute? »

لم تجد كاپيتو بروفيل قيصر وسيما ، لكن أعماله ، التي سردها چوزيه دياس ، فازت منها بإيماءات الإعجاب. بقيت فترة طويلة وهي تُدير وجهها نحوه. رجل استطاع أن يفعل كلّ شيء ! رجل كان بوسعه أن يعطى امرأة لؤلؤة قيمتها ستة ملايين من السسّتيرسات!

« وكم يساوى السستثيرس ؟ »

چوزیه دیاس ، الذی لم تکن قیمة السّستیرس حاضرة فی ذهنه ، أجاب بحماس :

« إنه أعظم رجل في التاريخ! »

أضاحت لؤلؤة قيصر عينى كاپيتو، كانت هذه المناسبة هى التى سألت كاپيتو فيها أمى لماذا لم تعد تلبس مجوهرات البورتريه : كانت تشير إلى ذلك الذى فى حجرة الجلوس ، بجوار ذلك الخاص بأمى ؛ بدا فيه عقد ضخم ، وإكليل للرأس مرصع بالجواهر ، وقرطان.

« إنها مجوهرات مترملة ، مثلى أنا ، يا كاپيتو ».

« متى لبستها أجر مرة ؟ »

« كان ذلك في احتفالات التتوبيج ».

<sup>\*</sup> حتى أنتَ، يا بروتس ؟ (باللاتينية في الأصل) - المترجم.

« أوه ، أخبروني ما هو التتويج! »

كانت تعرف من قبل ما قاله لها والداها ، لكنها ربّما ارتابت فى أنهما كانا يعرفان أكثر مما حدث فى الشارع. كانت تريد أن تعرف ماذا جرى فى الكنيسة الامبراطورية وفى قاعات الرقص. كانت كاپيتو ولدت بعد هذه الاحتفالات الشهيرة بوقت طويل. ولما كانت سمعت عبارة سن الرشد تُذكر مرارا ، أصرت ذات يوم على أن تعرف ماذا كان ذلك الحدث. أخبروها ، وكان من رأيها أن الامبرطور كان على حق فى رغبته فى اعتلاء العرش فى سن الخامسة عشرة. كل شىء كان موضوعا لفضول كاپيتو: الأثاث العتيق الطراز ، الأشياء القديمة حول البيت ، العادات ، قصص إتاجوائ ، طفولة وشباب أمى ، قول مأثور من هنا ، ذكرى من هناك ، مثل قديم من هناك ...

### ٣٢ - عينان مثل مدّ البحر

كلّ شيء كان موضوعا لفضول كاپيتر، مع ذلك ، كانت هناك حالة الستُ واثقا فيما يتعلّق بها ما إذا كانت تعلّمتْ أو علّمتْ ، أو فعلتْ الأمريْن معا - كما فعلتُ أنا. سأحكى عنها في الفصل التالي، أما في هذا الفصل فلن أقول إلاّ أنني بعد الاتفاق مع التابع بأيام قليلة ، ذهبتُ لأرى صديقتي الصغيرة. كان ذلك في العاشرة صباحا، لم تنتظر دونا فورتوناتا ، التي كانت في الحديقة ، حتى لأسأل عن ابنتها.

« إنها فى حجرة الجلوس تمشط شعرها ، » قالت لى. « اذهب بهدوء وخوِّفها ».

ذهبتُ بهدوء ، لكن قدمى أو المرآة أفشت سرّى. ربّما لم تكن المرآة ، ذلك أنها كانت مرآة ضئيلة الحجم تمّ شسراؤها مقابل پاتاكا

واحد (معذرة على رخص ثمنها) من بائع إيطالى متجوّل ؛ كان لها إطار غليظ وكانت معلّقة بسلسلة رفيعة على الحائط بين النافدتين. إذا لم تكن هي ، فلا بد أنها كانت قدمى. إحداهما أو الأخرى ، ذلك أننى لم أكد أدخل الغرفة حتى طار المشط ، الشعر ، وهي كلّها ، في الهواء ، وكان كلّ ما سمعتُ هذا السؤال:

« هل حدث شيء ؟ »

« لا ، » أجبت ، « فقط جئت لأراك قبل أن يأتى الأب كابرال ليعطيني الدرس. كيف كان نومك ؟ »

« رائع، ألم يتكلم چوزيه دياس بعد ؟ »

« لا ، فيما يبدو »

« لكن متى سيتكلّم ؟ »

« قال أنه يعتزم اليوم أو غدا أن يفتح الموضوع - لكن تدريجيا - سيتحدث كثيرا جدا ليتحسس الموضوع، فيما بعد سيدخل في صميم الموضوع، يريد أن يرى أوّلاً ما إذا كانت ماما مصممة على عزمها ... »

« لكنها مصمّمة ، إنها مصمّمة » ، قاطعت كاپيتو, « ولو لم يكن من الضرورى أن يتحدّث معها أحد فى الموضوع الآن وإلى الأبد ، لما تكلّمنا معه. لا أعرف ما إذا كان لچوزيه دياس نفوذ كبير إلى هذا الحدّ. أعتقد أنه سيبذل كل ما فى وسعه ، إذا كان يشعر أنك لا تريد حقا أن تصبح قسيّسا ، لكن هل سيكون قادرا على النجاح ؟ ... إنها تُصغى إليه ؛ أيضا ، إذا ... أوه ، يا للجحيم ! كُنْ حازما معه ، يا بنتينيو ».

« سنأكون، بدأ في الكلام اليوم ».

« تحلف على ذلك ؟ »

« أحلف على ذلك! دعيني أرى عينيك ، يا كاييتو ».

كنتُ تذكّرتُ التعريف الذي أعطاه لهما جوزيه دياس ، « عينا

erted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غجرية ، منحرفتان وخبيئتان ». لم أكن أعرف ماذا تعنى « منحرفتان » ، لكننى كنت أعرف ماذا تعنى « خبيئتان » ، وأردت أن أرى ما إذا كان من المكن وصفهما بذلك. سمحت لى كاپيتو بأن أنظر إليها ، وأن أفحصهما ، سالت فقط ما الأمر ، وما إذا كنت لم أرهما أبدا من قبل. لم أجد فيهما شيئا غير مألوف ؛ كان لونهما ورقتهما صديقين قديمين لى ، أعتقد أن طول تأملى أعطى كاپيتو فكرة أخرى عن قصدى : تصورت أن ذلك ذريعة كي أنظر عن قرب ، بعيني المستطيلتين ، غير المضطربتين ، واقعتين في شرك عينيها والحقيقة أننى أرجعت إلى هذا واقع أن عينيها أخذتا تزدادان اتساعا ، اتساعا وإبهاما ، وبتعبير ...

ياعشاق النحو والصرف ، أعطوني مقارنة دقيقة وشاعرية لأصف تلكما العينين ، عيني كاپيتو. لا أجد صورة أنقل بها — دون أن أحطم سمو أسلوبي — ماذا كانتا وماذا فعلتا بي. عينان مثل مد البحر. هذا ما كانتاه. كان فيهما سائل ما خفي ويشع قوة جاذبا كل شيء إلى داخلهما ، كموجة تنحسر عن الشاطيء عندما يكون التيار ثقيلا تحت سطح الماء. لكي لا يجرفني المد تعلقت عيناي بأجزاء أخرى ، مجاورة ، بأذنيها ، بذراعيها ، بشعرها الذي انسدل على كتفيها ؛ لكن حالما بحثت عن إنساني عينيها مرة أخرى ، أخذت الموجة الآتية منهما تتسع ، فاغرة فاها ، مظلمة ، مهددة بأن تبتلعني ، بأن تسحبني ، بأن تجرني إلى داخلها . كم دقيقة قضينا في تلك اللعبة ؟ وحدها ساعات تجرني إلى داخلها . كم دقيقة قضينا في تلك اللعبة ؟ وحدها ساعات لكن قصيرة الأمد . والأبدية لها ساعاتها: رغم أنها بلا نهاية ، فهي تريد الن تعرف كم تدوم الأفراح والآلام . لابد أنها تضاعف متعة السعداء في الفردوس بأن يعرفوا مدى العذاب الذي يعانيه أعداؤهم في الجحيم . ومقدار المتعة التي ينعم بها خصومهم في الفردوس يضاعف عذاب أولئك

verted by TIII Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذين حلّت عليهم اللعنة في الجحيم. هذا عذاب فات على دانتي الإلهي ؛ لكننى لست مهتمًا بأن أعدّل على الشعراء في هذه اللحظة. وإنما كنت وصلت إلى نقطة أن أروى كيف أنه ، في نهاية وقت غير محدّد ، أمسكت بشعر كاپيتو ، لكن هذه المرة بيدي ، وقلت لها - لأقول شيئا - أننى سأمشطه لها إن شاحت .

- « أنتُ ؟ »
  - « أنا ».
- « ستعقده تماما ».
- « إذا عقّدتُه ، يمكنك أن تحلّيه فيما بعد ».
  - « لنّر إذن ما يمكنك أن تفعل ».

## ٣٣ - تضفير الضفيرتين

أدارت كابيت ظهرها لى وواجهت المرآة، أخذت شعرها ، وجمعته ، كلّه معا ، وبدأت أسرّحه بالمشط ، من جبينها إل نهاية أطرافه ، والتى وصلت إلى خصرها ، كان ذلك غير ملائم وكابيت واقفة ، لا تَنْسَ أنها كانت أطول منى بدرجة لا تُذكر ، لكنها مع ذلك كانت بنفس الطول ... طلبت منها أن تجلس .

« اجلسى هنا ، سيكون ذلك أفضل ».

« لذَرَ الحلاَق العظيم ، » قالت بضحكة، واصلتُ تمليس شعرها بعناية فائقة ، وفرقته إلى قسميْن متساوييْن ، لأصنع الضفيرتيْن، لم أصنعهما في الحال ، ولا بسرعة بالغة ، كما قد يظنّ الحلاقون المحترفون ، بل ببطء ، ببطء شديد ، وأنا أستمتع بملامسة تلك الخيوط الثقيلة التي كانت جزءاً منها. كان العمل يتعثّر ، أحيانا لعدم الإتقان ،

وأحدانا عمدا ، لكي أحُلُّ ما كان تمّ عقده لأعقده من جديد. كانت أصابعي تمرّ برفق على عنقها أو على كتفيّها المغطّاتين بقماش قطني ، وكان الإحسياس حُلول، لكنني وصيلت أخيرا إلى نهاية شعرها ، رغم ما تمنَّيْتُ من أن يكون بلا نهاية، لم أتضرَّع إلى السماء أن يكون في طول شعر أورورا ، لأننى لم أكن عرفت بعد هذه الآلهة التي قدّمها إلى الله الشعراء القدماء في وقت لاحق ؛ لكنني كنت أتوق إلى أن أمشَّطه طوال الدهور والدهور ، لأنسبج ضعفيرتين تلقان اللانهاية بطولهما عددا لا يحصى من المرات، وإذا كان هذا يبدو مغالاة في التوكيد ، أيها القارىء التعيس ، فذلك لأنك لم تمشعًط أبدا شعر فتاة ، ولا وضعت أبدا يديُّك المراهقتين على الرأس الغضّ لحورية ... حورية ! أنا كلّى أساطير، حتّى من قبل ، عندما كنت أتكلُّم عن عينيها اللتين مثل مدّ البحر ، كتبتُ اسم ثيتيس\* - ثم شطبتُه. لنشطب الحورية أيضا، ولنقل فقط ، المخلوقة المحبوبة ، وهي كلمة تشمل كافة الاحتمالات ، المسيحية والوثنية. أخيرا أنجزتُ الضفيرتين. أين كان الشريط لأربط الطرفين معا؟ فوق المنضدة ، كان قطعة بائسة من خرقة مجعّدة. ضممتُ طرفي الضفيرتين ، ربطتُهما بعقدة ، وضعتُ اللمسات الأخيرة على العمل - أرخى هنا ، أملِّس هناك ، إلى أن هتفتُ:

- « ها هو! »
- « كيف حاله ؟ »
- « انظري في المرآة »

بدلا من الذهاب إلى المرآة ، ماذا تظنّ أن كاپيتو فعلت ؟ لا تنس أنها كانت جالسة وظهرها إلى أمالت كاپيتو رأسها إلى الوراء إلى

<sup>\*</sup> ثيتيس: في الأساطير الإغريقية ' آلهة بحرية، ابنة نيريه وأم أخيل - المترجم

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقصى حد فكان على أن أسنده بيدى ؛ كان ظهر الكرسى واطئا، ثم الحنيت عليها ، وجها لوجه ، لكن بالمقلوب ، وعينا الواحد منا فى محاذاة فم الآخر. توسلت إليها أن ترفع رأسها ، خشية أن تصيبها دوخة ، أو تؤذى رقبتها، بل حتى قلت لها أنها تبدو قبيحة ؛ لكن ذلك السبب لم يحركها.

#### « اعتدلی فی جلستك ، یا كاییتو! »

لم تفعل. لم ترفع رأسها ، ويقينا على ذلك النحو ، ينظر كلّ منا إلى الآخر ، إلى أن أتت بحركة بشفتيها ، أدنيت شفتي ، و ...

كان الإحساس بالقبلة هائلا ومفاجئا: نهضت كاپيتو بسرعة من فوق كرسيها ؛ تراجعت مبتعدا إلى الحائط ، بنوع من الدوار ، صامتا ، وعيناى مظلمتان. عندما صفّت رؤيتى وجدت كاپيتو تُثبّت عينيها على الأرض، لم أجازف بالكلام. لو فعلت ، لما عرفت ماذا أقول. كنت مأخوذا ، مذهولا ، لم أجد أى حركة ، أو أى دفعة ، تخلعنى من الحائط فتحررنى وتُرسلنى إليها بألف كلمة دافئة مُلاطفة ... لا تسخر من أعوامى الخمسة عشر ، أيها القارىء الناضج قبل الأوان. ففي السابعة عشرة ، كان ديه جرييه (وناهيك بديه جرييه) لم يبدأ بعد في التفكير في الاختلاف بين الجنسين.

### ٣٤- رَجُـــل!

سمعنا خُطَى فى الصالة : كانت بونا فورتوناتا، هدّات كاپيتو نفسيها بكلّ سرعة ، بكلّ سرعة إلى حدّ أنها ، عندما ظهرت أمها فى المدخل ، كانت تهزّ رأسها وتضحك - لا أثر لشحوب ، لا ارتعاشة ارتباك - ضحكة صافية ، طبيعيّة ، فسرتها بهذه الكلمات المرحة:

« ماما ، انظرى ماذا فعل هذا السيد الحلاق بشعرى ؛ طلب أن يكمل تمشيطه ، وهذه هي النتيجة، انظرى إلى الضفيرتين ! »

« ما لهما ؟ » أجابت أمها بلطف. « شعرك يبدو على ما يرام ، لا أحد سيخمّن أنه من صنع شخص لم يمشط شعرا من قبل أبدا ».

« ماذا ، ماما ؟ هذا ؟ » احتجّت كابيتوهي تحلّ الضفيرتين. « أوه ، ماما ! »

ثم بتعبير نزق جذاب كانت تبدو به أحيانا ، أخذت المشط ومشطت شعرها وبدأت تضفره من جديد، وصفتها دونا فورتوناتا بأنها حمقاء وطلبت منى ألا أهتم بذلك ، وقالت أن ذلك ليس سوى حماقة ابنتها، نظرت إلينا بحنان ، إلى ثم إليها، ثم خطر على بالها شك أو شكان ، فيما أعتقد. وعندما رأتنى صامتا ، دائخا ، ألتصق منكمشا بالحائط ، ارتابت في أنه ربما كان بيننا شيء ما أكثر من تمشيط الشعر ، وابتسمت وتظاهرت بأنها لم تلاحظ....

أنا أيضا أردت أن أتكلّم ، لأخفى حالة مشاعرى ، واستدعيت بعض الكلمات من الداخل هناك ، فجاعت فى الحال ، لكنْ متزاحمة ، وملأت فمى بحيث لم يعد بإمكان كلمة واحدة منها أن تخرج، قبلة كاپيتر أقفلت فمى، لم ينجح هتاف تعجبُ واحد ، ولا مجرّد أداة تعريف أو تنكير ، رغم الشجاعة التى هاجمت بها الكلمات ، فى اختراق أسنانى، ثم غمغمت كلّ الكلمات ، وهى تنسحب إلى قلبى: « هنا شخص لن يترك أيّ أثر كبير فى العالم ، إذا سيطرت عليه أدق انفعالاته ».

وهكذا ، عندما فُوجئنا بأمها ، كنّا اثنيْن ومختلفيْن: كانت تُخفى بكلماتها ما أعلنه بصمتى، أخرجتنى دونا فورتوناتا من حيرتى بقولها أن أمى أرسلت تطلبنى لدرس اللاتينية ؛ كان الأب كابرال ينتظرنى، كانت فرصمة للإفلات. قلت وداعا ومضيت إلى الصالة. وأنا في طريق

الانصراف ، سمعت الأم توبّخ الابنة ، ولم تقل الابنة شيئا.

جريت إلى حجرتى والتقطت كُتبى ، لكننى لم أذهب إلى حجرة الدرس ؛ جلست على الفراش واسترجعت تمشيط شعر كاپيتو والباقى. أخذت أرتجف ، مرّت بى لحظات فقدت فيها الوعى بنفسى وبالأشياء من حولى – بدا وكأننى أوجد بعيدا فى مكان ما ، بطريقة ما عُدت إلى نفسى من جديد ، رأيت الفراش ، الجدران ، الكتب ، الأرضية ، سمعت صوتا ما فى الخارج ، مبهما ، قريبا ، بعيدا جدا ، وعندئذ تلاشى كل شىء ، وأحسست فقط بشفتى كاپيتو ... بشفتى كاپيتو تمتدان إلى شفتيها ، وأحسست بالشفاه تتحد ، وفجأة ، وين تفكير ، نطقت بهاتين الكلمتين:

« أنا رجل! »

تصورت أنهم سمعونى لأنهما انطلقتا بصوت مرتفع، جريت إلى باب حجرتى، لم يكن هناك أحد بالخارج، عُدْتُ ، ويصوت خفيض كرّرت أننى رجل، حتى فى هذه اللحظة لا يزال صداه فى أذنى، كان الرضا الذى أحسست به هائلا، لم يشعر كولومبوس برضا أكبر عندما اكتشف أمريكا ، ومعذرة للابتذال فى تقدير مدى الصلة: كلّ مراهق يحمل فى داخله عالمًا غير مكتشف ، أمير بحر وفجراً فى أكتوبر\*. قمت باكتشافات أخرى فيما بعد ؛ لم يبهرنى أى منها بنفس القدر، وشاية جوزيه دياس كانت أثارتنى ، وكذلك درس شجرة جوز الهند العجوز ؛ ومشهد اسمينا محفورين فى الحديقة جعلنى أرتجف ، وكما رأيت: أى من وهشهد الشمياء لم يُضارع الإحساس بالقبلة، وربما كانت تلك الأشياء الأخرى أكاذيب أو وهماً، رغم أنها حقيقية ، لم تكن سوى عظام الحقيقة ،

<sup>\*</sup> إشارة إلى فجر ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ عندما لمح كريستوف كولومبوس

ولم تكن لحمها ولا دمها، حتى أيدينا ، وهي تتلامس ، وهي تتشابك ، وهي تنوب الواحدة في الأخرى ، لم يكن بوسعها أن تقول كلّ شيء.

«أنا رجل!»

عندما كرّرتُ هذا للمرة الثالثة ، فكّرتُ في المعهد الديني ، لكنْ كما يفكر المرء في خطر مرّ ، في شرّ تمّ تفاديه ، في كابوس زال. كلّ أعصابي أخبرتني أن الرجال ليسوا قساوسة، كان دمي من نفس الرأي، مرة أخرى أحسستُ بشفتي كاپيتو، ربما أكون أسهبت أكثر مما ينبغي في الحديث عن ذكريات التقبيل ؛ لكن الاشتياق هو نفس ذلك الشيء: إنه استعادة ذهاب وإياب الذكريات القديمة، وبين كلّ ذكرياتي من تلك الفترة ، أعتقد أن هذه الذكري هي الأحلّي ، الأعذب ، الأكمل – الذكرى التي كشفتني لنفسي تماماً. لديّ ذكريات أخرى ، رحبة وعديدة ، حلوة أيضا ، من أنواع شتى ، بعضها ذكريات عقلية ، قوية على نحو مماثل ، عندما صرتُ رجلا ناضجاً أيضا ، لكن الأثر الذي تركتُه في نفسي كان أقلً.

### ٣٥ – أمين السجلات النابوي

أخيرا أخذت كُتبى وجريت إلى درسى. لم أجْر ، على وجه الدقة ؛ وقفت في منتصف الطريق ، أفكّر مليًا في أن الوقت لابد تأخّر جدا وربما قرأوا شيئا في نظراتي، اتجهت نيتي إلى أن أكذب ، أن أدعى أننى أمبت بنوبة دُوار ؛ لكن الفزع الذي كان سيسببه ذلك لأمى جعلني أرفض الفكرة. فكّرت في النذر بدزينات من الصلاة الربانية ؛ لكن كان لدى نَذْر متأخّر ، معروف وشيك ... لا ، فلأنتظر لأرى، واصلت سيرى، سمعت أصواتا مرحة تُثرثر بجلبة. وعندما دخلت حجرة الجلوس ، لم يُؤبّبني

كان الأب كابرال تسلّم رسالة فى المساء السابق من السفير البابوى ؛ ذهب ليراه وعلم منه أنه صدر منذ وقت قصير مرسوم بابوى بتعيينه أمين سجلاّت بابويًا، هذا التشريف من البابا أسعده سعادة بالغة ، كما أسعد كلّ أسرتنا. ظلّ الخال كوزمه وابنة العم چوستينا يردّدان اللقب بإعجاب. كانت المرة الأولى التى يقع فيها على أسماعنا ، التى كانت معتادة على الكهنة ، والمونسينييرات ، والأساقفة ، والقاصدين الرسوليين ، والسفراء البابويّين ؛ لكن ما هو أمين السجلاّت البابوى ؟ أوضح الأب كابرال أنه ، إذا شئنا الدقة ، ليس منصبا فى الإدارة البابوية ، بل لقبه.

رأى الخال كوزمه نفسه نشوان مع رفيقه القديم فى ورق اللعب وظلّ يردد: « أمين بابوي »، استدار إلى ، وقال: « جهّز نفسك ، يا بنتينيو! ربما انتهيت أنت إلى أن تصبح أمينا بابويًا ».

أصغى كابرال برضا إلى تكرار اللقب، وما كان منه إلا أن وقف ، وخطا خطوات قليلة ، وابتسم ، ودق دقة إيقاعية خفيفة على غطاء علبة النشروق. ضاعف حجم اللقب ، إن جاز القول ، عظمته ، لكنه جعله أطول من أن يُوضع قبل اسمه، كان هذا التفكير الأخير تفكير الخال كوزمه، سارع الأب كابرال إلى إضافة أنه ليس من الضرورى استخدام اللقب كله: كان يكفى أن يُدعى الأمين كابرال ، بافتراض أن البابوى أمر بديهى.

« الأمين كابرال ».

« نعم ، هذا هو ، الأمين كابرال ».

« لكنْ ، سيدى الأمين » ، هكذا بدأتْ ابنة العم چوستينا ، لتعتاد استخدام اللقب ، « هل يُلزمك هذا بالسفر إلى روما ؟ »

« لا ، يا دونا چوسىتينا ».

« لا ، إنه مجرَّد اللقب ، » لاحظتُ أمي.

« مع ذلك ، هذا لا يمنع ، » قال كابرال ، الذى واصل تأملاته ، « هذا لا يمنعنى ، فى حالات الإجراءات الأكثر رسمية ، فى البلاغات العامة ، الرسائل الرسمية ، الخ.، ، من استخدام اللقب بكامله: أمين السجلات البابوى. أما فى الاستعمال العادى فالأمين يكفى ».

« طبعا! » وافقوا جميعا،

چوزیه دیاس ، الذی دخل بعدی مباشرة ، أثنی علی ذلك التشریف ، وذكر ، بهذا الصدد ، بالمراسیم السیاسیة الأولی لپیوس التاسع ، الآمال الكبری لإیطالیا ... لم یتابع أحد الموضوع. كان موضوع الساعة هو مدرسی العجوز للغة اللاتینیة ، أدركت ، متخلصا من قلقی ، أننی ینبغی أن أهنته بدوری ، وقد مس إطرائی قلبه لیس أقل من إطراء الآخرین ربت علی خدی بطریقة أبویة ، وانتهی إلی منحی إجازة . كانت سعادة كبری لقاء ساعة واحدة قبلة وإجازة ! وأتصور أن وجهی قال الكثیر ، ذلك أن الخال كوزمه وصفنی ، وبطنه تهتز ، بأننی كلب مرح.

قطع چوزیه دیاس مرحنا: « لا ینبغی أن یمرح المرء بشدّة فی کسل. ستکون اللاتینیّة ضروریة له مع ذلك ، حتی إذا لم یصبح قسیّسا أبدا ».

بهذا عرفت رَجلى. كانت تلك هي الكلمة الأولى ، البذرة التي أُلقيت في الأرض ، هكذا ، بصورة عارضة ، كأنما لتعتاد عليها آذان أسرتنا.

ابتسمت لى أمى ، ابتسامة مفعمة بالحب والحزن ، لكنها أجابت في الحال: « سيكون قسيسا ، قسيسا رائعا وسيما ».

« لا تنسى ، يا أختى جلوريا ، أمينا أيضا. أمينا بابويًا ». « الأمين سنتياجو ، » ردّد كابرال مؤكّدا.

لا أدرى على وجه التحديد ما إذا كانت نية مدرّس اللاتينية هي أن

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعود نفسه على استعمال لقبه مع اسم آخر، ما أعرفه حقا هو أننى عندما سمعت اسمى مرتبطا بذلك اللقب اجتاحتني رغبة عارمة في أن أسبً وألعن. لكن الرغبة في هذه الحالة كانت بالأحرى فكرة ، فكرة بلا السان ظلَّت صامتة خرساء ، تماما مثل أفكار أخرى بعد ذلك بدقائق قليلة ... لكن هذه الأفكار بلزمها فصيل خاص، فلنصل بهذا الفصل إلى نهايته بالقول أن مدرًس اللغة اللاتينية تكلّم لبعض الوقت عن رسمى قسيسا ، وإنْ كان ذلك بلا اهتمام كبير. كان يحاول أن يتحدَّث عن شيء أخر لكى يبدو غافلا عن مجده الخاص ، لكنه هو كان الشيء الذي بهره في تلك المناسبة. كان رجلا عجوزا نحيلا ، يتَّصف بصفات حميدة، كان يتصف أيضا بقليل من العيوب، كان أبرز هذه العيوب ولَع بالطعام الجيّد ، لكن هذا لا يعنى على وجه الدقة أنه كان شرها، كان يأكل قليلا لكنه كان بقدر تقديرا عاليا ما هو ممتاز ونادر ، ولم يكن مطبخنا ، وإن كان بسيطا ، فقيرا كمطيخه تماما، لهذا ، عندما طلبتُ منه أمى يبقى معنا لنتغدّى ونحتفل ، ربّما كانت النظرة التي قُبِل بها ذلك نظرة أمين ، لكنها لم تكن بابويّة. لينال رضا أمي ، ركّن على من جديد ، واصفاً مستقبلي الكنسيّ ، طالباً أن يعرف ما إذا كنتُ سأدخل المعهد الديني حينئذ ، في السنة القادمة ، عارضاً أن يكلُّم « مولانا الأسقف » -وانطلق الجميع يصيحون: « الأمين سانتياجو »،

# ٣٦- فكرة بلا رجلين وفكرة بلا ذراعين

تركتُهم بحجَّة أننى ذاهب لألعب ، وانصرفتُ لأستغرق في التفكير في مغامرة الصباح. كان ذلك أفضل ما يمكنني أن أفعل ، بدون اللاتينية ، وحتى باللاتينية، بعد خمس دقائق قرَّرتُ أن أجرى إلى البيت المجاور ، فأمسك بكاييتو ، وأحلّ ضفيرتيّها ، وأضفرهما من جديد ، وأنهى العمل فيهما بتلك الطريقة المحدّدة ، والفم على الفم. هذا هو ، انطلقُ ، فلنذهبُ ... فكرة ! لا أكثر ! فكرة بلا رجلين ! الرَّجْلان الأخريان لم ترغبا لا في الجرى ولا في المشي، لم تتحرَّكا إلاَّ بعد ذلك بكثير بخُطى متمهّلة فحملتاني إلى بيت كاييتو. عندما وصلتُ ، وجدتُها في حجرة الجلوس ، نفس حجرة الجلوس ، تجلس على أريكة ، في حجَّرها وسادة ، تخيط بهدوء. لم تنظر إليّ في وجهى ، بل بطرف العين ويحوف ، أو إنَّ كنتَ تفضَّل أسلوب التابع ، بانحراف وبخبث، ظلَّت يداها ساكنتين ، بعد أن غرزت الإبرة في الثوب، وقفت عند الجانب الآخر من المنضدة ، ولم أعرف ماذا أفعل. مرة أخرى ، هجرتني الكلمات التي جئتُ بها. بهذه الطريقة أضعنا دقائق طويلة عديدة ، إلى أن تركت خياطتها تماما ، ونهضت ، وانتظرتْني، ذهبتُ إليها ، وسائتُها ما إذا كانت أمها قالت شيئًا. أجابت « لا »، أثارت شفتاها فيّ ، وهي تُجيب ، بادرة اقتراب. على أنة حال ، تراجعتُ كاينتو قليلا إلى الوراء،

عندئذ كان الوقت حان لأمسك بها ، فأجذبها إلى وأقبلها ... فكرة ! فكرة بلا ذراعين ! ذراعاى أنا تدلّيا رخوين وميّتين، لم أكن أعرف شيئا من التوراة، لو عرفت ، لكان من المحتمل أن يدفعنى روح الشيطان إلى أن أمنح اللغة الصوفية لنشيد الأنشاد مغزى مباشرا وطبيعيا . عندئذ كان

لابدً لى أن أطيع النشيد الأول: « ليضع شفتيه على شفتي وليقبلنى بقبلات فمه »، وفيما يتعلق بالذراعين ، اللذين كانا هامدين فى حالتى ، كان يكفى أن أنفذ الآية: ٦ من الأصحاح: ٢ « يساره تحت رأسى ويمينه يعانقنى »، هنا ، يا إخوانى ، ترون التسلسل التاريخي للإيماءات. لم تكن المسألة سوى مسألة وضعها موضع التنفيذ. مع ذلك ، حتى لو كنت عرفت النص ، كان موقف كاپيتو فى تلك اللحظة بالغ الانكماش إلى حد أننى لا أدرى ما إذا كان على أن أظل ساكنا بلا حراك، وفى غضون ذلك ،

## ٣٧ - الروح مليء بالاسرار

« هل كان الأب كابرال ينتظر منذ وقت طويل ؟ »

« لم يكن لدى درس اليوم، حصلت على إجازة ».

شرحتُ لها سبب الإجازة، أخبرتُها أيضا كيف تحدَّث الأب كابرال عن دخولى المعهد الدينى ، وساند قرار أمى ، وقلتُ بعض الأشياء البذيئة عنه. فكّرتُ كاپيتو قليلا ، ثم سالتُ ما إذا كان ينبغى لها أن تذهب وتقدّم تهانيها للأب ، في ذلك الأصيل ، في بيتنا .

« بالتأكيد ، لكن لماذا ؟ »

« أبى أيضا سيرغب فى الذهاب طبعا ، لكن من الأفضل له أن يذهب إلى بيت الأب ، سيكون ذلك أكثر لياقة. لكن ليس لى ، نظرا لأننى سيدة شابة تقريبا » ، وأنهت كلامها بضحكة.

شجّعتنى الضحكة. بدت كلماتها سخرية من نفسها ، حيث أننى ، منذ الصباح ، كنتُ أرى أنها صارت امرأة وأننى صرتُ رجلا. أحسستُ أن نكتتها ساحرة ، ولأكون صادقا عقدتُ العزم على أن أثبت لها أنها

غدت سيدة شابة تامة النضج، أمسكت بيدها اليمنى بخفة ، ثم بيدها اليسرى ، ووقفت هكذا مذهولا ومرتجفا، كانت فكرة بذراعين، رغبت فى أن أجذب يدى كاپيتو لأجبرها على أن تأتى وراءهما ، لكن الفعل لم يكن استجاب بعد لرغبتى. مع ذلك ، أحسست أننى قوى وجسور، لم أكن أقلد أحدا، لم أكن اختلطت كثيرا مع أولاد أكبر منى ربما كانوا سيرشدوننى بحكايات الحب، لم أكن سمعت أبدا عن اغتصاب لوكريشيا، وبقدر ما يتعلق الأمر بالرومان ، لم أكد أعرف أكثر من أنهم كانوا يتكلمون ما يتعلق الأمر بالرومان ، لم أكد أعرف أكثر من أنهم كانوا من مواطنى حسب قواعد الأب بيريرا للنحو والصرف وأنهم كانوا من مواطنى بيلاطس البنطى، لا أنكر أن نهاية تمشيط الشعر ذلك الصباح كانت خطوة كبرى على طريق رحلة عاشق ، لكن البادرة في تلك اللحظة كانت مناقضة تماما لهذه الجديدة. في الصباح أحنت رأسها إلى الوراء ؛ والأن مناقضة تماما لهذه الجديدة. في الصباح أحنت رأسها إلى الوراء ؛ والأن مناك نقطة أخرى ، رغم ما بدا أنه تكرار ، كان هناك اختلاف صارخ.

أعتقد أننى أتيتُ بحركة لأجذبها إلىّ. أن أقسم على هذا. كنت أزداد اهتياجا بمزيد من الابتهاج إلى حدّ أننى لم أكن واعيا تماما بكلّ تصرفاتي. لكننى أستنتج أن هذا كان هو الحال ، لأنها تراجعت إلى الوراء وحاولت أن تنتزع يديها من يديّ. عندئذ ، ربما لأنها لم تستطع أن تتراجع أكثر ، وضعت إحدى قدميها أمامها لترتكز عليها ، وتراجعت إلى الوراء بصدرها. هذه الحركة هي التي أجبرتني على أن أتشبت بيديها بقوة، أخيرا أصاب الإنهاك صدرها فاستسلم لكن رأسها ظلّ رافضا أن يستسلم ، ومرتدا إلى الوراء أبطل كل محاولاتي ، ذلك أننى كنت في هذه اللحظة أقوم بمحاولات ، أيها القارىء العزيز. ولما كنت غير مطلع على درس نشيد الأنشاد ، لم يخطر ببالي أن أمد يدى اليسرى وأضعها تحت درس نشيد الأنشاد ، لم يخطر ببالي أن أمد يدى اليسرى وأضعها تحت

erted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كاپيتو، التى كانت تقاومنى فى تلك اللحظة، كانت ستستغلّ تلك الحركة لتنتزع نفسها من يدى الأخرى وتفلت منى تماما، وقفنا ثابتين فى هذا الصراع، دون صوت، فرغم الهجوم والدفاع لم نتخلّ عن الحذر الضرورى للحيلولة دون أن يسمعنا أحد فى البيت: الروح ملىء بالأسرار، أعرف الآن أننى كنت أجذبها، ظلّ رأسها يتراجع إلى الوراء إلى أن أصابه الإرهاق بدوره ؛ لكنْ عندئذ جاء دور الفم. بدأ فم كاپيتو حركة عكسية لحركتى، ذاهبا إلى ناحية عندما كنت أبحث عنه فى الناحية الأخرى، ظللنا فى هذا التوازُن نترنّح إلى الوراء وإلى الأمام دون أن تغدو جسارتى أكثر قليلا، وكان الأكثر قليلا يكفى ...

عندئذ سمعنا طرقاً وصياحا على الباب الأمامى. كان ذلك والد كاپيتو، كان عاد من المكتب مبكرا قليالا ، كما كان يفعل أحيانا ، « افتحى ، ناناتا ! كاپيتو ، افتحى الباب » في ظاهر الأمر كانت هذه المجازفة أشبه بمجازفة الصباح ، عندما فاجأتنا أمها ، لكن في ظاهر الأمر فقط، كانت في الواقع مختلفة تماما، خُذْ في اعتبارك أنه في الصباح كان كل شيء انتهى وكانت خُطى دونا فورتوناتا إشارة لنا لنهدىء نفسنا، أما في تلك اللحظة فكنًا نتصارع بأيد مشتبكة ، ولا شيء كان بدأ أصلا.

سمعنا الترباس ينفتح: كانت أم كاپيتو تفتح المباب. لأننى أرى أننى أقدّم اعترافا كاملا ، ساقول هنا دون لف أو دوران أننى لم أجد الوقت لأترك يدى حبيبتى. فكّرت فى ذلك. كنت أوشك أن أفعل ذلك ، لكن كاپيتو ، قبل أن يكون بإمكان أبيها أن يدخل الحجرة ، أتت بحركة لم يكن فيها أى أمل ، وضعت فمها على فمى ، ومنحت طوعا ما كانت رفضت أن تمنحه قسرا، إننى أكرّر: الروح ملىء بالأسرار.

### ٣٨ - « ياإلهي ، يالها من مباغتة ! »

بعد قليل أتى پادوا عَبْرَ الصالة إلى حجرة الجلوس ، وكانت كاپيتو تقف وظهرها إلى ، منحنية على ما كانت تخيط ، كأنما لتجمعه ، وكانت تسأل بلهجة طبيعية:

- « لكن ، يا بنتينيو ، ما المقصود بالأمين البابوي ؟ »
  - « حسنا ، بارك الرب فيكما! »
- « يا إلهى ، يا لها من مباغتة تطالع بها شخصا! »

عندئذ تمخّضت المجازفة عن نفس الشيء. وإذا كنت رويت المجازفتين اللتين وقعتا منذ أربعين عاما ، كما حدثتا تماما ، فذلك لأبين أن كاپيتو كانت سيدة نفسها ليس فقط في حضور أمها ؛ فأبوها لم يكن يفزعها حتى أكثر قليلا، وفي غمرة موقف تركني معقود اللسان ، كانت تثرثر بأكبر سذاجة في العالم، ويقيني هو أن قلبها لم يكن يدق لا أسرع ولا أبطأ، زعمت أنها بوغتت ، واصطنعت مظهرا نصف مقدس ؛ لكنني ، أنا الذي كنت أعرف القصة بكاملها ، رأيت أنه مظهر زائف ، وحسدتها، أنا الذي كنت أعرف القصة بكاملها ، رأيت أنه مظهر زائف ، وحسدتها، أنت مباشرة إلى أبيها الذي كان يُصافحني ويسائني عما كانت تعنى ابنته بحديثها عن الأمناء البابويين. كرّرت له كاپيتر ما كانت سمعته مني وقالت أن من رأيها أن يذهب لتهنئة الأب في بيته ، وأنها ستذهب إلى بيتي. ثم خرجت إلى الصالة ، وهي تجمع عدة خياطتها ، ونادت بطريقة صبيانية: خرجت إلى الصالة ، وهي تجمع عدة خياطتها ، ونادت بطريقة صبيانية:

كان الأب كابرال فى تلك الساعة الأولى للمجد التى يكون فيها لأتفه التهانى وقع قصائد الشعر، ويأتى وقت يتلَقّى فيه الرجل اللامع المدح وكأنه ثناء معهود ، بوجه خال من التعبير ، ودون شكر. ونشوة الساعة الأولى أفضل ؛ فتلك الحالة الروحية التى ترى فى ميل نبتة مع الريح ولاء وإجلال فلورا الكونية ، تجلب أحاسيس أكثر حميمية وأكثر رقة من أيّ شيء آخر. وسمع كابرال كلمات كاييتو بسعادة بلا حدود.

« شكرا ، يا كاپيتى ، شكرا جزيلا، أنا سعيد بأنك أيضا مسرورة. بابا بخير ؟ وماما ؟ لا حاجة إلى السؤال عنك ؛ ذلكما الخدّان المتورّدان يتكلّمان بنفسهما، وما أخبار صلواتنا ؟ »

على كلّ الأسئلة ، أجابت كاپيتر إجابات فورية وسليمة، كانت تلبس فستانا صغيرا لطيفا وكانت تلبس أفضل حذاء لديها، لم تدخل بألفتها المعهودة ، بل تأنّت لحظة عند باب الحجرة قبل أن تذهب لتقبّل يد أمى ، ويد الأب. وفيما كانت تمنح الأخير ، مرتين في غضون خمس دقائق ، لقب الأمين ، ألقى چوزيه دياس ، لكى يكون في طليعة المسابقة ، خطبة قصيرة على شرف « القلب الأبوى والنبيل لهيوس التاسع ».

« أنت خطيب عظيم ، » قال الخال كوزمه ، عندما أنهى خطبته.

ابتسم چوزیه دیاس دون أن ینتبه إلى الإهانة، أكد الأب كابرال مدیح التابع ، لكن بدون مبیّغ تفضیله، أضاف چوزیه دیاس إلى ذلك أن الكاردینال ماستای كان بكل وضوح مُعدًا للتاج البابوی المثلّث منذ البدایة، وانتهی ، وهو یغمز لی ، إلى القول:

« النداء هو كلّ شيء، المنزلة الكنسية هي غاية الكمال ، بشرط أن يصل إليها القسيّس مكرّسا لها من مهده، إذا لم يشعر بالنداء ، أعني

نداءً مخلصا وصادقا ، ربما كان من الأفضل لشاب أن يدرس الإنسانيات ، التي هي أيضا مفيدة ومُشرِّفة ».

تحدّاه الأب كابرال بسرعة: « النداء شيء عظيم ، لكن قوة الرب غالبة. قد لا يكون لرجل أيّ ميل إلى الكنيسة ، بل قد يضيق بها ، وذات يوم يكلّمه صوت الرب وينتهى إلى أن يكون رسولا، انظر إلى القديس بولس! »

« لا أنكر ذلك ، لكن ما أقوله شيء مختلف. ما أقوله هو أنه من الممكن تماما للمرء أن يخدم الرب ، وأن يخدمه بكل معنى الكلمة ، دون أن يكون قسيّسا ، هناك في العالم. أهذا ممكن أم غير ممكن ؟ »

« ممكن »،

« حسنا إذن! » صاح چوزيه دياس وهو ينظر حوله بزهو الانتصار. « بدون النداء ، لا يمكنك أن تكون قسيسا جيدا ؛ وفي كلّ مهنة مشرفة يمكن للمرء أن يخدم الرب ، كما ينبغي أن نفعل جميعا »،

« صحيح تماما ، لكن النداء لا يبدأ بالضرورة في المهد ».

« وهو رجل ، هذا أفضل ».

« يمكن لصبى بلا أى ميل إلى الحياة الكنسية أن ينتهى إلى أن يكون قسيسا جيدا للغاية. كل شيء كما يقدّر الرب، لا أريد أن أقدّم نفسى كمثال ، لكن ها أنا ذا ، أنا الذى وُلدتُ بنداء إلى الطب. أبى فى العماد ، والذى كان مساعد أسقف سانتا ريتا ، ظلّ وراء أبى ليدخلنى المعهد الدينى ؛ ونزل أبى عند رأيه. حسنا ، يا سيدى ، اكتسبتُ ذلك الميل نحو دراساتى ونحو رفاقى من القساوسة ، بحيث انتهيتُ إلى رسنمى قسيسا . لكن افترض أن الأمر لم ينته إلى ذلك ، ولم يتغيّر ندائى ، ماذا كان سيحدث ؟ كنتُ سأدرس المواد المقرّرة فى المعهد الدينى والتى من المفيد أن نعرفها والتى يتم تدريسها على نحو أفضل فى تلك المعاهد ».

تدخّلت ابنة العم چوستينا في الحديث: « ماذا ؟ هل من المكن دخول المعهد الديني دون التخرُّج قسيّسا ؟ »

أجاب الأب كابرال ب « نعم » ، بأن المرء يمكنه ذلك. ثم تكلّم ، مستديرا إلى ، عن قدائى ، الذي كان جليًا: كانت لُعبى دائما أشياء كنسية ، وكنت أعشق الصلاة العامة. البراهين لم تبرهن شيئا. كان كل الأطفال في زمنى أتقياء. أضاف كابرال أن قسيس سان چوزيه ، الذي كان أخبره مؤخّرا بنذر أمى ، اعتبر مولدى معجزة ، وكان هو من نفس الرأى. كابيتو ، التي كانت تتعلّق بأذيال أمى ، لم تُعرُ النظرات القلقة التي أرسلتُها إليها أي التفات، لا و لا بدا أنها تُصغى إلى الحديث الذي دار حول المعهد الديني ونتيجته ، ومع ذلك حقظت أغلبه عن ظهر قلب ، كما تأتى لي أن أعرف في وقت لاحق. مرّتين ذهبت إلى النافذة، على أمل أن تأتى هي أيضا ، وأن نبقي هناك، حميمين ومنفردين إلى نهاية العالم ، إن تأتى هي أيضا ، وأن نبقي هناك، حميمين ومنفردين إلى نهاية العالم ، إن كان له أن ينتهي في وقت من الأوقات ، لكن كابيتو لم تأت إلى. كان الوقت يقترب من عتمة المساء , حيّتنا تحية الوداع.

« اذهب معها ، يا بنتينيو ، » قالت أمى.

« لا ، لا حاجة إلى ذلك ، يا دونا جلوريا ، » ضحكت ، « أنا أعرف الطريق، وداعا ، أيها السنيور الأمين... »

« وداعا ، كاييتو »,

خطوت خطوة فى اتجاه عبور الحجرة، من الجلى أن ذلك كان واجبى ، ورغبتى ، وكانت كل بواعث شبابى وبواعث المناسبة تدفع إلى أن أعبر تلك الحجرة ، وأتبع جارتى عبر الصالة ، وأنزل إلى الفناين ، وأدخل الحديقة ، وأعطيها قبلة ثالثة ، وأتمنى لها أن تصبح على خير. لم ألتفت مطلقا إلى رفضها لأننى اعتبرتُه زائفا ، وخرجت إلى الصالة لكن كابيتو ، التى كانت تمشى بسرعة ، وقفت وخرجت إلى الصالة الكن كابيتو ، التى كانت تمشى بسرعة ، وقفت

verted by liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأومسأت إلى أن أعود، لم أطعها، ووصلت إليها.

« لا ، لا تأت! سنتكلم غدا ».

« لكننى أريد أن أخبرك ... »

« اعد »

« اسمعی! »

« لا ، ابْقَ هنا! »

تكلّمت بنعومة. أمسكت بيدى ووضعت إصبع يدها على شفتيها. زنجية ، كانت أتت من الداخل لتُوقد فانوس الصالة الكبير ، رأتنا في ذلك الوضع ، مختفيين تقريبا في الظلال. ضحكت بتعاطف ، وغمغمت ، بصوت مرتفع بما يكفى لنسمع ، بشىء لم أكد أميّزه لكننى لم أعجز مع ذلك عن فهمه. همست لي كاپيتو بأن الجارية ارتابت في شيء ما وربما أخبرت الآخرين، مرة أخرى أجبرتنى على البقاء ، وبدأت تبتعد. ظللت بلا حراك ، ثابتا ، مثبتًا في الأرض.

### ٤٠ - فيسريس

متروكا وحدى ، فكرت بعض الوقت ، واستغرقت فى حلم يقظة. سبق لك أن تعرفت على أحلام يقظتى، أخبرتك بذلك الخاص بالزيارة الامبراطورية، أخبرتك بذلك الخاص بالزيارة نسخة طبق الأصل من بيت ماتاكاڤايوس ... ظلّ الخيال رفيق وجبودى كلّه - نشيطا ، سريعا ، قلقا ، وأحيانا جبانا وفزعا ، وفى أغلب الأحيان مستعدا لأن يلتهم فى طريقه سهلاً فوق سهل. أعتقد أننى قرأت فى كتاب تاكيتوس أن الأفراس الايبيرية كانت تحبل من الريح، إنْ لم يكن هو ، فلابد أنه مؤلف قديم آخر ذلك الذى كان حريصا بما فيه الكفاية على أن

يحافظ على هذا المعتقد السخيف. وبهذا الخصوص كان خيالى فرسا اليبيرية عظيمة: كانت أقل نسمة تمنحه مُهرًا ينمو في الحال ليغدو بوسيفالوس\* لكن دُعْنا نترك هذه التعبيرات المجازية التي هي جريئة ولا تتلاءم مع عمرى الذي كان خمس عشرة سنة. دعنا نقرد الحالة ببساطة. كان حلم يقظتي في تلك الساعة أن أعترف بعلاقتي الغرامية لأمي لكي أجعلها تعرف أنني لم أحس بالنداء الكنسي الحديث الذي دار عن النداء عاد إلى بكامله ، ورغم أنه ملأني رُعبا قدم إلى مخرجا في الوقت ذات. نعم ، هذا هو ، « فكرت » ، « سأقول لماما أنني لا أحس بالنداء . سأعترف لها بممارستنا الحب إذا شكت في ذلك ، سأروى لها ما حدث في ذلك اليوم ، عن تمشيط الشعر ، والباقي ... »

### ١٤ - المقابلة الخاصة

جعلنى « الباقى » أبقى وقتا أطول قليلا فى الصالة ، مفكّرا. رأيتُ الدكتور چوان داكوستا يدخل ، وتمّ ترتيب منضدة لعبة الأومبر\* كالمعتاد. خرجت أمى من حجرة الجلوس ، وعندما لمحتنى سائتنى ما إذا كنتُ وصلّت كاپيتو إلى بيتها.

« لا ، يا سنيورة ، ذهبت وحدها ». ثم فأنا أقذف بنفسى تقريبا بين ذراعيها: « ماما ، أريد أن أقول لك شيئا ».

« ما هو؟ » مذعورة تماما ، أرادت أن تعرف أين كان الألم ، في رأسى ؟ في صدرى ، في معدتى ؟ جستت جبهتى لتعرف ما إذا كانت أصابتنى حُمّى.

<sup>\*</sup> يوسيفالوس: حصان الاسكندر الأكبر - المترجم

<sup>\*</sup> الأومبر . لعبة ورق - المترجم

- « ليس بي أيّ ألم على الإطلاق ، يا سنيورة ».
  - « إذن ما هو؟ »
- « شيء ما ، يا ماما ... لكن ... انظرى ، من الأفضل بعد الشاى ، فيما بعد ... ليس شيئا سيئا، أنت تفزعين من كل شيء ، يا ماما، ليس شيئا يدعو إلى القلق ».
  - « لا تشعر بمرض ؟ »
    - « لا ، يا سنبورة »،
- « لكنك تشعر ، عادت إليك نزلة البرد. أنت تتظاهر حتى لا نُجبرك على أخذ الدواء لكنك مصاب ببرد ؛ أعرف ذلك من صوتك ».
- حاولتُ أن أضحك ، لأثبت لها أنه لم يكن بى أى سوء. لم تكن الضحكة مقنعة. لم تكن لتتركنى أؤجّل سرًى. أمسكت بى ، ساقتنى إلى حجرة نومها ، أضاعت شمعة وأمرتنى بأن أخبرها بكل شيء. سائتُها ، لكي أجد بداية ، متى سأدخل المعهد الديني.
  - « في بداية السنة ، بعد الإجازة ».
    - « سأذهب ... لأبقى ؟ »
      - « لتيقى ؟ »
    - « لن أعود إلى البيت أبدا ؟ »
- « ستعود إلى البيت في نهايات الأسابيع والإجازات، هذا أفضل. بعد رَسْمك قسيسا ، ستأتى لتعيش معى »، مسحت عيني وأنفى، هداتنى بلطف ، ثم قررت أن تؤنّبنى ، لكننى أعتقد أن صوتها ارتجف ، وبدا لى أن عينيها كانتا دامعتين، قلت لها أننى أيضا أحس بفراقنا، قالت أنه ليس فراقا ، بل مجرد قدر من الغياب من أجل دراساتى ؛ الأيام القليلة الأولى فقط، وفي غضون فترة قصيرة أكون اعتدت على زملاء الدراسة و المدرسين ، وأكون انتهيت إلى أن أحب حياتى معهم.

« أنا أحيك أنت فقط ، يا ماما ».

لم يكن هناك أي حساب في هذه الإجابة ، لكنني كنت سعيدا بأنني قلت ذلك ، ليبدو أنها كانت حبى الأوحد ؛ كان من شأن ذلك أن يُحوّل ارتيابها عن كاپيتر. ما أكثر النوايا الشريرة التي تتسلّق على ظهر عبارة نقية وبريئة ، بعد أن تكون أخذت طريقها بالفعل ! ذلك يكفي لأن يجعل المرء يرتاب في أن الكذب هو ، في كثير من الأحيان ، لا إرادي شأنه شأن التنفس. من ناحية أخرى ، أيها القارىء الكريم ، لاحظ أنني رغبت في أن أحوّل الارتياب عن كاپيتو ، رغم أنني كنت أبحث عن أمي للغرض أواضح المتمثل في تأكيد مثل هذا الارتياب ؛ لكن التناقضات أصيلة في هذا العالم. والحقيقة أن أمي كانت نقية نقاء أول فجر ، قبل الخطيئة الأولى، لم يكن بإمكانها حتى بالحدس البسيط أن تستنتج شيئا من أخر: الأولى، لم يكن بإمكانها حتى بالحدس البسيط أن تستنتج شيئا من أخر: الأركان مع كاپيتو ، كما كان قال چوزيه دياس. ظلّت صامتة دقائق الأركان مع كاپيتو ، كما كان قال چوزيه دياس. ظلّت صامتة دقائق على المقاومة ، على أن أكلمها عن النداء الذي كان نُوقش في ذلك على المقاومة ، على أن أعترف بأنني لم أحس به في داخلي.

« لكنك اعتدت أن تريد أن تكون قسيسا ، » قالت. « ألا تتذكّر كيف كنت تتوسل للذهاب لمشاهدة طلاب المعهد الديني وهم يخرجون من سان چوزيه ، بأرديتهم الكهنوتية ؟ وعندما كان چوزيه دياس يناديك ب « قداستكم » كان من عادتك أن تضحك بابتهاج، كيف يمكن أن يكون ذلك الآن، أنت ... ؟ لا، لا أصد ق ذلك ، يا بنتينيو، ثم ... النداء ؟ لكن النداء يأتي مع العادة » ، وواصلت كلامها ، مكرّرة الملاحظات التي كانت سمعتها من شفتي مدرسي للغة اللاتينية.

بينما كنتُ أسعى إلى النقاش معها ، أنّبتنى ، ليس بحدّة لكن

بشىء من الحزم ، ومرةً أخرى أصبحتُ الابن المطيع. ثمَّ تكلَّمتُ بوقار وبإسهاب عن النذر الذي نذرتُه، لم تخبرني بالملابسات ، ولا بالمناسبة ، ولا بالأسباب – هذه الأشياء التي لم أصل إلى معرفتها إلا بعد ذلك بكثير ، أعادت تأكيد الفكرة الرئيسية ، أيْ فكرة أن النذر كان لابد من الوفاء به ، وفاءً للربّ .

« ربّنا استجاب لصلاتى ، وأبقى على حياتك. لا ينبغى أن أكذب عليه أو أخذله ، يا بنتينيو. هناك أشياء لا يمكننا أن نفعلها دون ارتكاب خطيئة ، والرب ، الذى هو عظيم وجبّار ، لن يعفو عنى إن فعلت. لا ، يا بنتينيو ، أعرف أننى سأعاقب ، سأعاقب عقابا أستحقّه، إنه لشىء عظيم ومقدّس أن يصبح المرء قسيسا. أنت تعرف كثيرين ، مثل الأب كابرال ، الذى يعيش بكلّ سعادة مع أخته، لى عمّ كان قسيسا ، يُقال أنه فاته بالكاد أن يكون أسقفًا ... كُفّ عن هذه الحيل الخبيثة ، يا بنتينيو ».

أعتقد أن العينين اللتين أدرتُهما إليها كانتا مليئتين باللوم إلى حد أنها غيرت الكلمة بسرعة. حيلة ، لا ، لم يكن من المكن أن تكون حيلة. كانت تعرف جيدا أننى أحبها حبّا شديدا ولم أكن لأتظاهر بشىء لم أشعر به. النعومة – هى ما كانت تريد أن تقوله ، أننى ينبغى أن أكف عن أن أكون ناعما ، أننى ينبغى أن أكون رجلا فأؤدى واجبى ، إكراما لها ومن أجل روحى . كلّ هذه الأشياء ، وأشياء أخرى ، قيلت بشىء من التعلقم ، ولم يكن صوتها صافيا بل كان أجش ومختنقا . لاحظت أن انفعالها اشتد مرة أخرى لكنها لم تتراجع عن موقفها ، وجازفت بسؤالها:

« لكن أيمكنكِ أن تتضرّعي إلى الرب أن يجعلك في حلٍّ من نَذُرك ، يا ماما ؟ »

« لا ، لن أتضرع إلى الرب من أجل ذلك. هل جُننْتَ ، يا بنتينيو؟ و كيف لى أن أعرف أن الرب جعلنى في حلٌ من النذر؟ »

« ربما في حلم، أنا أحلم أحيانا بالملائكة والقديسين ».

« هذا ما يحدث لى أيضا ، يا بنى ؛ لكن لا جدوى من ذلك ...
تعال ، الوقت تأخر ً لننزل إلى حجرة الجلوس . هل فهمت كل شيء ؟ في
الشهر الأول أو الثاني من السنة القادمة ، ستدخل المعهد الديني .
ما أرجوه منك هو أن تلتفت إلى الكتب التي تدرسها ، بكل اجتهاد . سيبدو
كل شيء على ما يرام ، ليس لك فقط ، بل أيضا للأب كابرال . وفي المعهد
الديني كلهم يتلهّفون على لقائك لأن الأب كابرال يتكلم عنك بحماس ».

سارت نحر الباب، خرجنا كلانا، لكن قبل أن تعبر عتبة الباب استدارت نحوى ، ورأيتُها تقريبا تُلقى بذراعيها حول رقبتى وتقول لى أننى لن أكون مجبرا على أن أكون قسيسا، كانت هذه رغبتها الأكثر عمقا ، عندما أخذ الوقت يقترب، كانت تبحث عن طريقة لسداد الدين الذى كانت استدانته ، كانت تبحث عن عملة أخرى تكون لها نفس القيمة ، أن أكثر ، ولم تجد أي عملة.

### ٤٢ - كاييتو تفكر

فى اليوم التالى ذهبتُ إلى البيت المجاور ، بمجرد أن كان ذلك بإمكانى، كانت كاپيتو تودع صديقتين كانتا جاءتا لزيارتها ، هما پاولا وسانشا ، وهما فتاتان كانت عرفتهما فى المدرسة الداخلية - الأولى فى الخامسة عشرة ، والأخيرة فى السابعة عشرة ، الأولى ابنة طبيب ، والثانية ابنة تاجر فى البضائع الأمريكية. كانت مكتئبة ، وكانت تربط منديلا حول رأسها. قالت لى أمها أن ذلك بسبب قراعها أكثر مما ينبغى فى الليلة السابقة ، قبل وبعد الشاى ، فى حجرة الجلوس وفى الفراش ،

« لى كنتُ أضاتُ شمعة ، كنت ستغضبين ، يا ماما، أنا الآن على ما يرام »،

وبينما كانت تحلّ المنديل ، أشارت أمها بتردُّد إلى أن من الأفضل أن تتركه مربوطا على رأسها ، لكن كاپيتو ردّت بأن ذلك ليس ضروريا ، وأنها تشعر بأنها أفضل.

بقينا وحدنا في حجرة الجلوس، أكدت كاپيتو قصة أمها ، وأضافت أنها قضت ليلة سيئة بسبب ما سمعته في بيتنا، أخبرتُها بما حدث لي ، الحديث مع أمى ، التماساتي ، دموعها ، وأخيرا إجاباتها النهائية الحاسمة: في غضون شهرين أو ثلاثة أشهر سأدخل المعهد الديني. ماذا نفعل إذن؟ أصغت كاپيتو إلى بانتباه شره ، ثم باكتئاب. عندما انتهيت تنفست تنفسا ثقيلا ، وكأنها تُوشك على الانفجار من شدة الغضب ، لكنها تمالكت نفسها.

حدث ذلك منذ وقت طويل إلى حدّ أننى لا يمكننى أن أذكر على وجه التأكيد ما إذا كانت بكت فعلا أم مسحت عينيها فحسب، أظن أنها مسحت عينيها فحسب، عندما رأيت تلك البادرة ، أمسكت بيدها لأشجّعها ، لكننى أنا أيضا كنت بحاجة إلى تشجيع، غصنا فى الأرضية وجلسنا نحملق فى الهواء، لا ، أنا مخطىء ، كانت تحملق فى الأرضية. فعلت نفس الشىء ، بمجرد أن لاحظت ذلك... ، لكننى أعتقد أن كاپيتو كانت تنظر إلى الداخل ، إلى داخل نفسها ، فيما كنت أنظر حقّا وصدقا إلى الأرضية ، الشقوق الرثة ، ذبابتين تمشيان بسرعة ، رجل كرسى محطم، لم تكن أشياء كثيرة ، لكنها صرفت ذهنى عن متاعبى، عندما عدت إلى النظر إلى كاپيتو ، وجدت أنها جلست صارمة وساكنة ، وفزعت إلى النظر إلى كاپيتو ، وجدت أنها جلست صارمة وساكنة ، وفزعت ألى حدّ أننى هززتُها بلطف، عادت كاپيتو إلى العالم ، وطلبت منى أن أقول لها مرة أخرى ما حدث بينى وبين أمي. أطعتُها ، فقط خفّفت أقول لها مرة أخرى ما حدث بينى وبين أمي. أطعتُها ، فقط خفّفت

النصوص هذه المرة لكى لا أثير ضيقها، لا تصفنى بأننى مخادع ، صفنى بأننى مشفق. صحيح أننى كنت أخشى أن أفقد كاپيتو إذا تلاسّت كل آمالها ، لكن آلمنى أن أراها تُعانى، والآن فإن الحقيقة النهائية ، حقيقة الحقائق ، هى أننى ندمت فى تلك اللحظة على أننى تكلّمت مع أمى قبل أن يكون هناك أي عمل فعال من جانب چوزيه دياس. وعندما أنعم التفكير فى ذلك أجد أننى لم أكن وصلت فى الواقع إلى التحرّر من الأوهام لكننى كنت أدركتُ مع ذلك أنه كان أكيدا ، عاجلا أو اجلا. وكانت كاپيتو تفكّر ، تفكّر ، تفكّر ، شكّر ...

## ٤٣ - هل أنت خائف؟

فجأة كفّت كاپيتو عن التفكير ، وثبّتتنى فى مكانى بعينيها اللتين كانتا مثل مدّ البحر ، وسألتنى ما إذا كنت خائفا .

« خائفا ؟ »

« نعم ، أريد أن أعرف ما إذا كنت خائفا ».

« خائفا من ماذا ؟ »

« من أن تُضرب علقة ، من أن يُلقَى بك في السجن ، من الشجار ، من الانطلاق إلى الأمام ، من العمل ... »

لم أفهم. لو أنها قالت ببساطة ، « تعالَ نهرب! » ربما كنت سأطيع وربما كنت لن أطيع. على أىّ حال كنت سأفهم. لكن أن تسأل سؤالا غامضا كذلك السؤال ، دون مقدمات – عجزت عن أن أتخيل ماذا كانت تعنى.

« لكنْ ... لا أفهم، أضررَب عَلْقة ؟ »

« تعم »،

« ممّن ؟ من سيضريني ؟ »

أتت كاپيتو بحركة تدلّ على نفاد الصبر، لم تتحرك عيناها اللتان مثل مدّ البحر وبدا أنهما تكبران، لم أستطع أن أفهم بنفسى ، ولم أشأ أن أسألها مرة أخرى، أجهدت فكرى: كيف سيحدث أن أضررب علقة ؟ ولماذا ؟ ولماذا يُلقّى بى في السجن ؟ من سيلّقى بى فيه ؟ ساعدنى يارب ! بعين عقلى رأيت الهوبي ، حفرة مظلمة كريهة الرائحة، ثم رأيت سفينة السبّجناء ، وتكنات باربونوس ، ودار الإصلاحيّة. كلّ هذه المؤسسات الاجتماعية العادلة لفّتنى في سرّها ، ومع ذلك ظلّتْ عينا كاپيتر الشبيهتان بمدّ البحر تكبران وتكبران إلى أن طردتا هذه الأشياء الأخرى من فكرى بمدّ البحر تكبران فكبيتر أنها لا تتركهما تكبران إلى ما لا نهاية بدلا من تقليصهما إلى أبعادهما الطبيعية ومنتجهما حركتهما المعتادة.

عادت كاپيتو إلى نفسها القديمة ، وقالت لى أنها كانت تمزح فحسب ، فلا ينبغى أن أنزعج ، وبحركة كلها رشاقة ربّتت على خدّى ، وقالت مبتسمة:

« جيان !

« مَنْ ، أَنَا ؟ ... لكن ... »

« لا شيء ، يا بنتينيو. فَمَنْ ذا الذي سيضربك أو يُلقى بك في السجن ؟ سامحنى ، أنا نصف مجنونة اليوم، كنت أقصد بذلك مجرّد مزحة ».

« لا ، يا كاپيتو، لم تكونى تمزحين. فى وقت كهذا لا أحد منا يشعر برغبة فى المزاح »،

« عندك حقّ، جنونى فقط هو السبب، أراك فيما بعد ».

« ماذا تعنين ، < أراك فيما بعد > ؟ »

« الصداع يعاودني، سأضع شريحة من الليمون على صدغي ».

iverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعلت كما قالت ، وربطت المنديل على جبهتها مرة أخرى. ثم خرجت معى إلى الفناء لتودّعنى. لكننا بقينا هناك دقائق أخرى قليلة ، وجلسنا على حافة البئر. هبّت ريح ، وكانت السماء ملبّدة بالغيوم. تكلّمت كاپيتو مرة أخرى عن فراقنا ، وكأنه واقع محتم وأكيد. بدافع خوفى من نفس ذلك الشيء أخذت أبحث عن مبررات الأشجّعها، عندما كانت تكفّ عن الكلام كانت تخطّ على الأرض بعصا خيزران ، أنفوفا وبروفيلات. منذ بدأت ترسم ، كانت تلك إحدى تسلياتها ؛ كان أي شيء يصلُح ورقا وريشة رسم. تذكّرت اسمينا اللذين كانت حفرتهما في الحائط وأردت أن أفعل نفس الشيء على الأرض. طلبت منها الخيزرانة، لم تسمعنى ، أو لم تعرني أدنى اهتمام.

### ٤٤ - الطفيل الأثول

« ناوليني الخيزارنة. دعيني أكتب شيئا ما ».

نظرت كاپيتو إلى ، لكن بطريقة جعلتنى أفكر فى تعريف چوزيه دياس: « منحرفتان وخبيثتان ». رفعت تحديقها دون أن ترفع عينيها، ثم بصوب خفيض ، سالت:

- « أريد أن تقول لى شيئا ، لكنْ قلْ الحقيقة. لا تتراجع، يجب أن تتكلم بصراحة ».
  - « ما هو؟ تكلّمي »،
  - « إذا كان عليك أن تختار بيني وبين أمك ؟ مَنْ تختار ؟ »
    - « أختار ؟ »
    - أومأت برأسها موافقة.
- « سأشنار ... لكن لماذا أختار ؟ ماما لن تطلب

منى أبدا شيئسا كهددا ».

« قد لا تطلب منك ، لكننى أسائك. افترض أنك فى المعهد الدينى وتلقيت خبرا بأننى أموت ... »

« لا تقولي شيئا كهذا! »

« ... أو بأننى سأقتل نفسى من أجل الحبّ إنْ لم تأت في الحال ، وأمك لا تريدك أن تأتى ، قلْ لى ، هل تأتى ؟ »

« سائتی ».

« ضد المن الله عنه « عنه الله »

« ضدّ أمر أمي ».

« تترك المعهد الديني ، تترك أمك ، تترك كلّ شيء وتأتي لتراثي أمويت؟ »

« لا تتكلّمي عن الموت ، يا كاييتو! »

ضحكت كاپيتو ضحكة قصيرة لا لون لها تدل على عدم التصديق ، وبعصا الخيزران كتبت كلمة على الأرض، انحنيت ، وقرأت : كاذب،

كان كلّ ذلك غريبا إلى حدّ أننى لم أجد شيئا أقوله، لم أستطع أن أفهم سبب الكلمة المكتوبة ، كما كنتُ عجزتُ عن فهم الكلمات المنطوقة، لو كنتُ فكرت في إهانة ، كبيرة كانت أم صغيرة ، ربما كنتُ كتبتُ أيضا ، بنفس الخيزرانة ، لكننى عجزتُ عن التفكير في أيّ شيء. كان رأسي مجرّد فراغ. في نفس الوقت ، استبدّ بي خوف من أن أحدا قد يسمع أو يقرأ، من ، ونحن وحدنا ؟ كانت دونا فورتوناتا جاءت مرةً إلى الباب ، لكنها عادت إلى الداخل في الحال، كانت العزلة كاملة، وأذكر أن بعض طيور السنونو مرّت فوق الحديقة ومضت في اتجاه مورو ده سانتا تريزا. ولا شيء آخر، من بعيد ، أصوات مبهمة مشوسية ؛ في الشارع وقع حوافسر ؛ من ناحية البيت ، السقسقة الصاخبة لطيور يادوا الصغيرة.

لا شيء أكثر ، أو فقط هذه الظاهرة الغريبة: النّعت الذي كتبته كاپيتو لم ينظر إلى نظرة خبيثة من الأرض فحسب بل بدا لى أيضا أنه اهتز مع الهواء، عندئذ خطرت على بالى فكرة بغيضة: قلت لها أن حياة القسيس ، على أي حال ، ليست سيئة للغاية ، وأننى يمكن أن أوافق عليها دون أسف شديد، كانت طريقة صبيانية للرد عليها بالضربات ؛ غير أنه كان يداعبنى أمل خفى فى أنها ستقذف بنفسها بين ذراعى ، غارقة فى الدموع . اكتفت كاييو بفتح عينيها على الساعهما ، وأخيرا قالت :

« القسيس شيء جيد ، بلا أدنى شك، مع ذلك سيكون الكاهن أفضل ، بفضل الجوارب الأرجوانية. اللون الأرجواني لون لطيف جدا، فكّر في ذلك ، سبكون الكاهن أفضل ».

« لكن من غير المكن أن يصبح المرء كاهنا قبل أن يكون قسيسا أوّلاً ، » قلت ، وأنا أعض على شفتيّ.

« حسنا ، ابدأ بالجوارب السوداء، فيما بعد ستأتى الجوارب الأرجوانية، ما أريد أن أطمئن عليه هو ألا يفوتنى أوّل قدّاس لك، أخبرنى في الوقت المناسب لأصنع فستانا على آخر موضة ، بجوبلّة ذات أطواق وكورنيش كبير – لكنْ ربما تغيّرت الموضة عندئذ، لابد أن تكون لك كنيسة كبيرة ، كارْمو أنْ سان فرانسسكو ... »

« أَنْ كانديلاريا ».

« أَوْ كَانديلاريا . أَى واحدة منها ستكون مناسبة ، بشرط أن أسمع أوّل قدّاس لك. سناظهر بمظهر لائق. سيسال الناس: « مَنْ هي تلك السيدة الشابة الجدّابة ، التي هناك ، ذات الفستان الجميل ؟ ».

« أوه ، إنها دونا كاپيتولينا ، سيدة شابة كانت تعيش في شارع ماتاكا فايوس... »

« كانت تعيش ؟ هل تنوين الانتقال إلى مسكن آخر ؟ »

« مَنْ يدرى أين سيعيش غدا ؟ » قالت ذلك بلهجة مشوبة بشىء من الانقباض. ثم ، وهي تعود إلى تهكّمها:

« وأنت عند المذبح ، ترتدى رداعك الكهنوتى ، وعليه عباءة ذهبية اللون ، ترتّل ... الصلاة الربانية ... »

آه! كم آسف على أنى لستُ شاعرا رومانسيا حتى أروى هذه المبارزة بالتعبيرات التهكّمية! من طعناتى وطعناتها ، من رشاقة أحدنا وخفة حركة الآخر ، من الدم يتدفّق ، والغضب المحتدم فى الروح ، إلى طعنتى الأخيرة النافذة ، التى كانت هكذا:

« طبعا ، يا كاپيتو ، ستسمعين أول قدّاس لي ، لكن بشرط واحد ».

أجابت: « تفضيّلُ قداستك بالكلام »،

« أتعدين بشيء واحد ؟ »

« 9 . a la »

« قولى ما إذا كنت تعدين ».

« لن أعد دون أن أعرف ما هو ».

« فى الحقيقة هناك شيئان اثنان ، » واصلتُ الكلام ، لأن فكرة أخرى خطرت على بالى.

« اثنان ؟ قلُّ لي ما هما »،

« الأول هو أن يكون اعترافك لى فقط ، أنا وحدى سأمنحك الكفّارة والغفران. الثاني هو ... »

« الأول أعد به ، » قالت كاپيتو وهي ترانى أتردد ، ثم أضافت أنها في انتظار أن تسمع الثاني،

كم كلّفنى أن أنطق به ، وهل كان ينبغى ألاّ يخرج أبدا من شفتى ! ما كنتُ سمعت ما سمعت ، وما كان تعيّن على أن أكتب هنا

شيئيا قد يجيد المرء أن من الصعب تصديقيه.

« الثانى ... نعم ... هو هذا ... عدينى بأن أكون القسيس الذى يتزوّجك »،

« مَنْ يتزوَّجني ؟ » قالت مقلّدة وهي ترتعش قليلا.

ثم أرخت روايتى فمها وهزت رأسها، « لا ، يا بنتينيو » ، قالت، « هذا سيعنى الانتظار وقتا طويلا، أنت لن تصبح قسيسا بين عشية وضحاها، هذا سيستغرق عدة سنين... انظر ، سأعدك بشيء آخر: أُعِدُك بأنك ستقوم بتعميد طفلى الأول ».

## ٤٥ - هَرُّرُ أَسِكُ ، أَيِهَا القَارِيءِ

هُزُّ رأسك ، أيها القارىء، قُمْ بكل إيماءات عدم التصديق الممكنة. بل اقذفْ بهذا الكتاب بعيدا ، إن لم يكن الملل منه دفعك إلى ذلك فعلا قبل الآن بكثير ؛ كل شيء ممكن، لكن إذا كنت فعلت ذلك الآن فقط ، وليس من قبل ، فأنا واثق من أنك ستلتقطه مرة أخرى وتفتحه على نفس الصفحة ، دون أن تؤمن بالضرورة بصدق المؤلف. مع ذلك ليس هناك ما هو أكثر دقة، فهكذا بالضبط تكلّمت كاپيتو ، وبنفس هذه الكلمات، تكلّمت عن طفلها الأولى كأنه دُميتها الأولى.

فيما يتعلق بذهولى ، فرغم أنه كان كبيرا إلا أنه كان مختلطا بإحساس غريب، أحسست بسائل يتدفق فى داخلى، ذلك التهديد بطفل أوّل ، الطفل الأول لكاپيتو ، زواجها بالتالى من شخص آخر ، الفراق الذى لا رجعة فيه ، الضياع ، الإبادة ، حاصرنى كل ذلك إلى حد أننى لم أجد لا كلمة ولا حركة ، بل جلست مذهولا. ابتسمت كاپيتو ؛ ورأيت وليدها البِكْر يلعب على الأرض...

يُصنع السلام كالحرب ، بسرعة، ولى كنتُ أنشد المجد في هذا الكتاب ، لقلتُ أننى أنا الذي بدأتُ المفاوضات ؛ لكنْ لا ، إنها هي التي بدأتُها. فبعد ما سبق بلحظات قليلة ، وفيما جلستُ منكسا رأسي ، أحنتُ هي أيضا رأسها لكنْ وعيناها تستديران إلى أعلى ، تنظران في عينيّ، تركتُها تتوسل إلى ثم قرّرتُ أن أنهض وأنصرف ، لكننى لم أنهض ، ولا عرفتُ ما إذا كان ينبغى أن أذهب. نظرتُ إلىّ كابيتو بعينيّن كانتا في منتهى الحنان ، وجعلتنى حالتهما متضرّعا للغاية ، إلى حدّ أننى بقيت. دسستُ ذراعى حول خصرها ؛ أمسكتُ بأطراف أصابعى ، و...

مرة أخرى ظهرت دونا فورتوناتا فى المدخل. لا أعرف لماذا ، ذلك أنها حتى لم تعطنى وقتا لانتزاع يدى ؛ اختفت فى الحال. ربما كان ذلك لجرد أن تُريح ضميرها ، مجرد طقس ، مثل صلوات روتينية تُثلَى بلا تُقوى ويُغمغم بها دفعة واحدة ، إلا أنْ كان ذلك لتُثبت لعينيها هى الواقع الذى همس لها به قلبها ....

مهما يكن من شيء ، استمر ذراعي يطوق خصر ابنتها ، وإنما هكذا صنعنا سلامنا ، وكان أفضل ما فيه هو أن كلاً منا أراد أن يُلقى اللهم على نفسه ، وتضرع كلٌّ منا طالبا صفح الآخر ، بررت كاپيتر تصرفاتها بعدم نومها ، وصداعها ، واكتئاب مزاجها ، وأخيرا « طَبْعها الردىء » . أما أنا ، الذي كنت أنفجر باكيا بسهولة في تلك الأيام ، فأحسست بعيني تغرورقان ... كان حُبًا خالصا ، كان تأثير الام حبيبتي ، كان رقة الصلّع.

# ٤٧ - « السيدة خرجت »

« حسنا ، انتهى الأمر ، » قلتُ أخيرا ، « لكن فسرًى لى شيئا واحدا. لماذا سالتنى ما إذا كنتُ خائفا من أن أضرر علقة ؟ »

« لم يكن ذَلك بلا سبب ، » قالت كاپيتو. ثم ، بعد شيء من التردُّد ، « لكن لماذا تزعج نفسك بذلك ؟ »

« هيا ، أخبريني. هل كان ذلك بسبب المعهد الديني ؟ »

« نعم ، كان كذلك. سمعتُ أنهم يَضربون هناك ... لا ؟ لا أصدُق هذا أيضًا ».

كان التفسير مقبولا من جانبى ؛ ولم أتلقّ غيره. وإذا كانت كاپيتو ، كما أظن لم تقلْ الحقيقة ، فأنا مضطر إلى الاعتراف بأن ذلك كان لأنها لم تستطع أن تقولها ، وكان الكذب واحدا من أولئك الخدم الذين يسرعون إلى الرد على الزُّوَّار بأن « السيدة خرجتْ » ، عندما لا ترغب السيدة في التحدّث مع أى شخص. ولهذا التواطئ لذة ما. فالخطيئة المشتركة تجعل حالة الأشخاص المعنيين ، في هذه اللحظة ، متساوية ، ناهيك بالبهجة التي ترتسم على وجه الزائر المخدوع ، وظهره وكتفيه وهو ينصرف. ... أما الحقيقة فلم تكن خرجتْ ، كانت لا تزال في البيت ، في قلب كاپيتو ، تغفو نائمة فوق ندمها . والواقع أننى لم أبتعد حزينا أو غاضبا . وجدتُ الخادمة مهذبة وأسرة ، أفضل من السيدة .

جاءت الطيور السنونو الآن من الاتجاه المعاكس ، أو ربما لم تكن نفس الطيور. نحن الذين كنّا نفس الشخصين : جلسنا هناك نحسب حصيلة أوهامنا ، ومخاوفنا ، وكنا بدأنا فعلا في حساب ذكرياتنا.

# ٤٨ - قستم عند البئر

« لا! » صحت فجأة،

« لا ماذا ؟ »

كنتُ أنعمتُ الفكر دقائق قليلة في صمت فتوصلتُ إلى فكرة ؛ كان مبياحي عاليا إلى درجة أنه أفزع جارتي الصغيرة،

« لا ، أن يكون الأمر كذلك ! » وأصلت القول. « يقولون أننا لسنا كبيرين بما فيه الكفاية لأن نتزوج ، وأننا طفلان ، طفلان رضيعان - هذا ما وصفونا به. حسنا ، لكن سنتين أو ثلاث سنوات تمر بسرعة. هل تقسمين على شيء ؟ ستقسمين على ألا تتزوجي أحدا سواى ؟ »

أقسمت كاپيتو بلا تردد ، بل رأيت خديها يتوردان من فرط السعادة، أقسمت مرتبن ثم مرة ثالثة.

« حتى إذا تزوّجت أخرى غيرى ، سافى بقسمى وان أتزوّج أبدا - في أيّ وقت من الأوقات ».

« إذا تزوجَّتُ أخرى غيرك ؟ »

« أَى شَىء يمكن أَن يحدث ، يا بنتينيو، ربما وجدتُ فتاة أخرى تميل إليك ، وتقع فى حبّك ، فتتزوّجها، مَنْ أَنَا بالنسبة لك حتى تتذكرنى فى وقت كهذا ؟ »

« لكننى أنا أيضا أقسم! أنا أقسم، يا كابيتو، أقسم بالرب العظيم أننى لن أتزوج من غيرك، هل هذا كاف؟ »

« كاف ، » أجابت. « لا أجرق على أن أطلب أكثر، نعم ، أنت أقسمت ... لكن دعنا نقسم بطريقة أخرى، دعنا نقسم أننا سنتزوج من بعضنا ، مهما يحدث ».

أنت ترى الفارق. كان ذلك أكثر من اختيار زوج وزوجة ؛ كان

تأكيدا للزواج، كان بإمكان رأس محبوبتى أن يفكّر بوضوح وسرعة. والحقيقة أن الصيغة السابقة كانت قاصرة ، مانعة لا غير. كان من المكن أن نغدو أعزب وعانسا ، كالشمس والقمر ، دون أن نحنث بقسمنا. كانت هذه الصيغة أفضل ، وكانت لها ميزة تقوية قلبى ضد التنصيب الكنسى. أقسمنا بالصيغة الثانية ، وأصبحنا سعيدين إلى درجة أن كل خوف من الخطر اختفى، كنّا تقيين ؛ وكانت السماء شاهدة علينا، ولم أعد أخاف حتى من المعهد الديني.

« إذا أصروا سأذهب ، لكننى سأنظر إليه على أنه معهد عادى، لن أصبح قسيّسا ».

فزعت كاپيتو من فراقنا لكنها تقبلت أخيرا هذه الخطة باعتبارها الأفضل، لن نضايق أمى ، وسيأتى الوقت الذى يمكننا فيه أن نتزوج. ومن ناحية أخرى فأى مقاومة من شأنها أن تؤكّد وشاية چوزيه دياس، لم يكن هذا التفكير تفكيرى بل كان تفكيرها.

## ٤٩ - شمعة في إيام الاحد

بهذه الطريقة وصلنا ، بعد كلّ ذلك العناء ، إلى الميناء الذي كان علينا أن نلجأ إليه بلا إبطاء. لا تلمنا ، أيها المرشد اللعين ، فالقلوب لا يتمّ عبورها مثل البحار الأخرى في هذا العالم. كُنّا راضيين ؛ وبدأنا نتكلّم عن المستقبل. وعَدْتُ عروسي بحياة هادئة وجميلة ، في الريف أو خارج المدينة فحسب. لابد أن نعود إلى هنا مرة كل سنة. إذا كان مُقامنا سيكون في ضواحي المدينة ، فلابد أن يكون بعيدا جدا حيث لا يزعجنا أحد. البيت ، في رأيي ، لا ينبغي أن يكون كبيرا أو صغيرا ، بل وسَطأ سعيدا. غرستُ حوله الزهور ، واخترتُ الأثاث ، وعربة صغيرة ، وكنيسة سعيدا. غرستُ حوله الزهور ، واخترتُ الأثاث ، وعربة صغيرة ، وكنيسة

خصوصية صغيرة. نعم ، لابد أن تكون لنا كنيسة خصوصية صغيرة رائعة ، مرتفعة ، من خشب شجر الچاكاراندا ، بتمثال لمريم العذراء، توقّفت عند هذه أكثر مما عند الباقى ، من جانب لأننا كُنّا متديّنين ، ومن جانب تعويضا عن رداء الراهب الذى كنت أوشك أن ألقى به فى الأدغال؛ لكن كان لا يزال هناك جانب آخر أعزوه إلى نيّة خفية ولا واعية لإيقاع حماية السماء فى المصيدة، ولابد أن نضىء شمعة فى أيام الأحد ....

### ٥٠ - حيدً أوسيط

بعد ذلك بخمسة أشهر رحلت إلى معهد سان چوزيه الدينى. ولى كان بإمكانى أن أحصى الدموع التى ذرفتُها فى مساء وصباح يوم رحيلى ، لوصل مجموعها إلى أكثر من كلّ الدموع التى ذُرفتْ منذ آدم وحواء. هناك مبالغة فى هذا ، لكن من الملائم أن أغالى فى التأكيد من حين لآخر ، لأنتقم من شيطان الدقة الذى يعذّبنى. ومع ذلك ، إذا اعتمدت على ذاكرة الإحساس وحسب ، فلست بعيدا عن الحقيقة : ففى الخامسة عشرة من العمر ، كلّ شىء لا نهائى. رغم أننى كنت مستعدًا ، كانت معاناتى كبيرة. أمى أيضا عانت ، لكن فى أعماق نفسها. على أن الأب كابرال كان توصلً إلى حدّ أوسط : أن يُجرى اختبارا لندائى. فإذا لم أتبيّن نداءً إلى الكنيسة ، مع نهاية سنتين ، ينبغى أن أنخرط فى مهنة أخرى.

« النذور لابد من الوفاء بها ، لكن حسبما يشاء الرب. افترضى أن ربّنا حرم ابنك من هذه النزعة ، وأن الحياة فى المعهد الدينى لم تهبه الميل إليهما كما وهبتنى ، سيعنى ذلك إذن أن المشيئة الإلهيّة تعترض. لم يكن بإمكانك ، يا سنيورة ، أن تضعى فى ابنك ،

حتى قبل الميلاد ، نبداءً حرمية رينيا منية ... »

كان ذلك تنازلا من الأب، كان يمنح أمى عذرا مسبقًا بجعل التنازل عن الدُّيْن يأتى من الدائن، تألّقت عيناها ، لكن شفتيها قالتا: « لا ». چوزيه دياس – لأنه لم يكن حقّق غايته فى السفر إلى أوروبا معى – تشبّع بالشيء الأفضيل التالى وأيد « اقتراح السنيور الأمين » ؛ كلّ ما هنالك أنه بدا له أن سنة واحدة ستكون كافية.

« أنا واثق ، » قال ، وهو يغمز لى ، « من أنه فى غضون سنة واحدة سيكشف نداء عزيزنا بنتينيو إلى الكنيسة عن نفسه بكل وضوح وبصورة حاسمة. ومن المؤكد أنه سيغدو قسيسا رائعا، ثم ، إذا لم يحدث ذلك خلال سنة... »

فيما بعد قال لى فيما بيننا: « اذهب لدة سنة. السنة تمر بسرعة. فإذا لم تشعر بأى ميل إلى ذلك على الإطلاق ، سيعنى ذلك أن السرب لا يريد ، كما يقول الأب ، وفى تلك الحالة ، يا صديقى الصغير ، خير علاج هو أوروبا ».

قدّمت إلى كاپيتو نصيحة مماثلة عندما أعلنت أمى رحيلى الذى لا رجعة فيه إلى المعهد الديني.

« ابنتى ، ستفقدين الآن رفيق طفولتك ... »

أسعدها هذا الوصف لها بالابنة (كانت هذه هى المرة الأولى التى تناديها أمى بذلك،) إلى درجة أنه لم يكن لديها مكان للحزن، قبلت يد أمى ، وقالت لها أنها سبق أن عرفت بذلك منى، وفيما بيننا شجّعتنى على أن أتحمّل كل شيء بصبر. « بعد مرور سنة ستتغيّر الأمور ، وسرعان ما تمرّ سنة ». لم تكن لحظة وداعنا حانت بعد ؛ جرى ذلك في الليلة السابقة على رحيلى ، بطريقة تحتاج إلى فصل خاصّ. كلّ ما أقول هنا هو أننا كلّما ازددنا حُبًا لبعضنا ، بدأت كابيتو تأسر أمى أكثر: أصبحت هو أننا كلّما ازددنا حُبًا لبعضنا ، بدأت كابيتو تأسر أمى أكثر: أصبحت

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أكثر جزعا ، وأكثر حنانا ، والتصقت بأمى على نحو متواصل ، دون أن تلتفت إلى أحد غيرها . كانت أمى بطبيعتها عطوفة وحساسة ؛ وكانت تتأثر بسهولة بالحزن أو الفرح . بدأت تكتشف كثيرا جدا من الفضائل الجديدة في كابيتو ، مواهب رائعة ونادرة . أعطتها خاتما من خواتمها ، وبعض الأشياء الصغيرة الأخرى . لم تكن لتوافق على أخذ صورة لها كما توسلت كابيتو ، حتى يكون بإمكانها أن تعطيها صورة فوتوغرافية ؛ لكن كان لديها صورة مصغرة ، رسمت عندما كانت في الخامسة والعشرين ، وبعد قليل من التردد ، قررت أن تعطيها لها . عينا كابيتو ، عندما تلقت التذكار ، لا يمكن وصفهما ، لم تكونا منحرفتين ، ولم تكونا أيضا مثل مد البحر : كانتا مباشرتين ، صافيتين ، متألقتين . قبلت البورتريه بحماس ، وقبلت أمى كابيتو . كل هذا يذكرني بوداعنا .

### ٥١ - بين عتمة المساء وظلمة الليل

بين عتمة المساء وظلمة الليل ، كلّ شيء ينبغي أن يكون قصيرا كتلك اللحظة، لم يدم وداعنا طويلا ، ومع ذلك دام أطول ما كان يمكنه أن يدوم، جرى الوداع في بيتها ، في حجرة الجلوس ، قبل أن تُوقد الشموع، أقسمنا مرة أخرى أننا سنتزوّج بعضنا، ولم يكن ما ختم العقد بختم الإقرار مصافحة ، كما كان الأمر في الحديقة؛ كان ذلك باتّحاد فمينا المتحابين ... ربما شطبتُ هذا عندما يذهب الكتاب إلى المطبعة ، إلا إذا قرّرتُ غير ذلك ، سيبقى في مكانه. ما يفرضه علينا الأمر الإلهي هو ألا نُقسم عبثا بالاسم المقدس الرب، لم أكن علينا الأمر الإلهي هو ألا نُقسم عبثا بالاسم المقدس الرب، لم أكن أمضى زائفا إلى المعهد الديني نظراً لأنه كان لي عقد نافذ كما ينبغي في ملف في محفوظات السماء ذاتها، فيما يتعلق بالختم ، كما خلق الرب

أيدى نظيفة ، خلق كذلك شفاها نظيفة ، والشرّ فى رأسك أنت الشرير أكثر مما فى رأس ذلكما المراهقين ... أيتها الرفيقة الحلوة لأيام طفولتى ، كنتُ نقيًا ، ونقيًا ظللتُ ، ونقيًا دخلتُ أروقة سان چوزيه باحثًا ، فى الظاهر ، عن التنصيب الكهنوتى ؛ وقبله عن النداء. لكن النداء هو أنت ، والتنصيب هو أنت .

# ٥٢ - بادوا العجوز

سأروى الآن وداع پادوا العجوز. متألقا ومُبكرا جاء إلى بيتنا. طلبت منه أمى أن يصعد ويتكلم معى في حجرتي.

« هل يمكنني ؟ » سبأل واضعا رأسه في الباب.

ذهبتُ لأصافحه. وضع ذراعيه بحنان حولى

« أرجو لك السعادة ! » قال لى. « سنفتقدك ، صدقنى ، أنا وأسرتى، نحن جميعا نقدرك تقديرا عاليا ، يا سنيور ، كما تستحقّ. إذا قالوا لك أيّ شيء خلاف هذا ، لا تصدقه. إنه قيل وقال خبيث، أنا أيضا كنت ضحية القيل والقال الخبيث ، في فترة زواجي، ولم يحقّق شيئا ، الرب عظيم ويكشف الحقيقة ، إذا قُدّر لك في يوم من الأيام أن تفقد أمك وخالك وهذا شيء آمل ، بحق هذا الضوء الذي يتألّق فوقى ، ألا يحدث أبدا ، لأنهما شخصان طيبان ، شخصان ممتازان ، وأنا ممتن للأفضال التي أسبغاها على ... لا ، لستُ مثل بعض الآخريين ، بعض الطفيليين ، الغرباء ، الذين يسعون إلى تحطيم العائلات ، المتملّقين الأخسّاء ؛ لا ، أنا من طراز آخر. أنا لا أعيش عالة على موائد الآخرين ، لا أعيش في بيت شخص آخر... حسنا ، أوائك هم المحظوظون ! »

« لماذا يتحدث على هذا النحو ؟ » قلتُ لنفسى متفكّرا. « من

المحتمل أنه يعرف أن چوزيه دياس يقول أشياء عنه ».

« لكن ، كما كنت أقول ، إذا قُدر لك في يوم من الأيام أن تفقد قريبيك ، يمكنك أن تعتمد على صداقتنا. هذا لا يساوى شيئا من حيث الأهمية ، لكن عاطفتنا هائلة ، صدقنى. ورغم أنك ستكون قسيسا ، بيتنا هو دائما بيتك تأمر فيه وتنهى، كل ما أطلبه منك هو ألا تنسانى: لا تنس يادوا العجوز ... »

تنهّد ومضى يقول: « لا تنسّ صديقك پادوا العجوز ، وإذا كان لديك أيّ شيء قديم صغير يمكنك أن تتركه لى الذكرى ، كراسة قديمة للغة اللاتينية ، أيّ شيء مهما كان ، زرار صديرى ، أيّ شيء لم يعد له نفع لديك... القيمة في الذكرى ».

أذهلتنى المفاجأة. كان لدى خصلة من شعرى ملفوفة فى ورقة ، خصلة طويلة ، جميلة ، كنت قصصتها فى الليلة السابقة. كانت نيتى أن أخذها إلى كاپيتو عندما أرحل ؛ لكننى قررت أن أعطيها لأبيها. لابد أن الابنة ستعرف ما يكفى لأن تأخذها وتحتفظ بها، التقطت اللّقة وأعطيتها له.

« ها هي ، خُذُ هذه ».

« خصلة من شعرك! » صاح بادوا ، وهو يفتح ويغلق اللّقة. « أوه! شكرا! أشكرك عن نفسى وعن أسرتى! سأعطيها لزوجتى العجوز لتحافظ عليها، أو للصغيرة. هي أكثر حرصا من أمها، ما أجملها! كيف أمكنك أن تقص مثل هذه الخصلة الجميلة ؟ عانقنى! مرة أخرى! ومرة أيضا! وداعا! »

كانت عيناه دامعتين بكل إخلاص. وحمل وجهه نظرة متحرّرة من الأوهام ، مثل رجل أنفق كل كنزه من الآمال على ورقة يانصيب واحدة ثم يرى الرقم اللعين يتمخض عن ورقة خاسرة - رقم حلو كهذا !

## ٥٣ - هانجن نرجل!

رحلتُ إلى المعهد الدينى، استبقينى أيتها الوداعات الأخرى! أمى ضمتنى إلى صدرها، ابنة العم چوستينا تنهدتْ، ربما بكتْ قليلا جدا أو لم تبك على الإطلاق، هناك أشخاص لا تسيل دموعهم فى الحال ، ولا فى أى وقت، يُقال أنهم يتألمون أكثر من الآخرين. من المحتمل أن ابنة العم چوستينا أخفت آلامها الداخلية فى العناية بالأشياء التى أهملتها أمى ، فى تقديم النصح الطيّب إلى ، فى إعطائى أوامر، الخال كوزمه ، عندما قبلتُ يده مودّعا ، قال لى ضاحكا: « ارحلْ ، يا فتى ؛ وعُدُ إلى و أنتَ بابا ! »

چوزیه دیاس ، الذی کان هادئا ورزینا ، لم یقل شیئا فی البدایة. کنّا تکلّمنا فی اللیلة السابقة ، فی حجرته ، التی کنتُ ذهبتُ إلیها لأری ما إذا کان لا یزال من الممکن أن أتفادی المعهد الدینی. کان ذلك لم یعد ممکنا ، لکنه أعطانی الأمل ، وما كان أهم : الشجاعة، قبل أن تنقضی السنة ، سنكون علی متن السفینة. ولأننی وجدتُ هذا مقتضیا إلی حدّ ما ، شرح موضحا :

« يُقال أنه ليس وقتا ملائما لعبور الأطلنطى، سأستفسر ؛ إذا لم يكن كذلك ، سنسافر في مارس أو أبريل ».

« يمكنني أن أدرس الطب هنا ».

أجرى چوزيه دياس أصابعه على حمّالتى بنطلونه في إشارة تدلّ على نفاد الصبر ، زمّ شفتيه ، ذهب إلى حدّ رفض الاقتراح رسميّا.

« لم أكن لأتردد في الموافقة على الفكرة » ، قال ، « لو أنهم في مدرستنا للطبّ لم يكونوا يدرّسون على وجه الحصر بذاءة الألوباثيا\*.

<sup>\*</sup> ألّرباثيا: منهج في العلاج باستخدام عقاقير تحدث آثار مختلفة عن آثار المرض المعالج (عكس هوميوباثيا) - المترجم

إلى طب العلاج. الفسيولوچيا ، التشريح ، الباثولوچيا ، ليست ألوباثيا وليست هوميوباثيا ، لكن من الأفضل أن نتعلم كل شيء في الحال ، مرة وإلى الأبد ، من الكتب ومن شفاه الرجال المخلصين للحقيقة .... »

كانت تلك هى الطريقة التى تكلّم بها فى الليلة السابقة ، فى حجرته هو. الآن لم يقل شيئا ، أو قدّم بعض الأقوال المأثورة عن الدين والأسرة. وأنا أذكر هذا: « أن تقتسمه مع الرب يعنى مع ذلك أن تمتلكه ». ثم عندما منحتنى أمى قبلتها الأخيرة ، تنهّد قائلا ، « أجمل صورة ! »

كان صباح يوم جميل. كان الصبية الملوّنون الصغار يثرثرون بهمسات خفيضة. الزنجيات طلبن بركتى: « البركة ، يا نيو\* بنتينيو! لا تنس جاريتك چوانًا! جاريتك ميكيلينا ستظلّ تصلى من أجلك، يا سيدى! »

فى الشارع ، واصل چوزيه دياس الإلحاح على آماله: « تحملُ لمدّة سنة واحدة، حينئذ سيتم ترتيب كل شيء »،

# ٥٤ – مديح للقديسة مونيكا

فى المعهد الدينى ... أه! لن أروى الآن قصة المعهد الدينى ؛ لن يكفى فصل واحد. لا ، يا سيدى العزيز. ذات يوم ، نعم ، من الجائز أننى سياعد وصفا موجزا عما رأيته هناك والحياة التى عشتها ، عن أولئك الذين عشبت معهم ، عن العادات وكلّ الباقى. هذا التلهف على الكتابة ،

<sup>\*</sup> نيو nhô : نُطُق زنجى لكلمة سنيور - المترجم

عندما يصيبك فى الخمسين ، لا يتركك أبدا. فى الشباب من المكن الشخص أن يعالج نفسه منه ؛ دون أن نذهب بعيدا ، هنا فى المعهد الدينى كان لى زميل ينظم أشعارا بطريقة چونكيرا فريره ، وكان كتاب ذلك الشاعر الراهب صدر قبل ذلك بقليل. رُسم قسيسا، بعد ذلك بسنوات التقيتُ به فى جناح المرتكين فى سان پدرو ، وطلبتُ منه أن يُرينى أحدث

- « أيّ أشعار ؟ » ، سأل نصف فزع.
- « أشعارك. ألا تتذكّر ، في المعهد الديني ... »
  - « أه! » ابتسم،

ابتسم ، ومضى ينظر ، فى الكتاب المفتوح أمامه ، من أجل الساعة التى سيكون عليه أن يتلو القدّاس فيها فى اليوم التالى. اعترف بأنه لم يكتب أى أشعار منذ أن رُسم قسيّسا، كانت دغدغة شباب ؛ هَرَشَ ، ذهبت ، أصبح على ما يرام، ثم تكلم نثرا عن كثير جدا من أمور المعهد: تكاليف المعيشة المرتفعة ، موعظة للأب فلان ... أبرشية فى ميناس....

كان النقيض لهذا طالبا في المعهد الديني لم يواصل المهنة. كان السمه ... لكن ليس من الضروري أن أعطى اسمه : ستتكلم الحالة بنفسها. كان نَظمَ قصيدة مديح للقديسة مونيكا ، التي امتدحها أشخاص عديدون ثم قُرئت بين طلاب المعهد الديني، حصل على إذن بطبعها ، وأهداها إلى القديس أوغسطين. كل هذا تاريخ قديم، ما هو أحدث أنني ذهبت ذات يوم في ١٨٨٨ للاستفسار عن أمر بعينه في إدارة البحرية. هناك التقيت مصادفة بزميلي هذا في الدراسة الذي أصبح رئيسا لشعبة إدارية. كان هجر المعهد الديني ، وهجر الأدب ، وتزدّج ، ونسي كل شيء فيما عدا قصيدة مديح للقديسة مونيكا ، التي تقع

فى حوالى تسع وعشرين صفحة ، والتى ظلّ يوزعها طوال حياته. لأننى كنت بحاجة إلى بعض المعلومات ، ذهبت وطلبتها منه. كان من المستحيل أن أجد سرعة واستجابة أكبر: أعطانى كلّ شىء – بوضوح ، بدقة ، بغزارة بطبيعة الحال تحدّثنا عن الماضى ، الذكريات الشخصية ، حكايات الفصل الدراسى ، الحوادث التافهة ، كتاب ، كلمة ، قولة ، كل المزاح القديم وقفنا عنده طويلا ، ثم ضحكنا معا ، وتنهدنا بانسجام . المناح القديم وقفنا عنده طويلا ، ثم ضحكنا معا ، وتنهدنا بانسجام . عشنا من جديد بعض أيامنا فى المعهد الدينى القديم والواقع أن الذكريات ، إمّا لأنها كانت تخص المعهد الدينى أو لأننا كنّا صغيرين أنذاك ، حملت طاقة سعادة إلى حد أنه حتى إذا كان هناك أى ظلً محزن آنذاك ، لم يظهر الآن واعترف بأنه لم يعد يرى كلّ زملائنا فى الدراسة .

« أنا أيضا ، كلهم تقريبا. بمجرد رسمهم قساوسة ، من الطبيعى أنهم عادوا إلى أقاليمهم ، وأولئك الذين من هنا تسلموا أبرشيّات في أماكن أخرى ».

« زمن سعید! » تنهد،

ثم بعد شيء من التفكير ، حدّق في وجهي بعينين ذابلتين ملحّتين ، وسال: « هل احتفظت بمديحي ؟ »

عجزتُ عن التفكير في شيء أقوله، حاولتُ أن أحرّك شفتيّ ، لكن لم تأت أيّ كلمات، أخيرا سألتُ: « مديح ؟ أي مديح ؟ »

« قصيدتي مديح للقديسة مونيكا ».

ظللتُ لا أذكر ، لكن كان لابد للتفسير أن يقعل فعله، بعد عدّة لحظات من البحث الذهنى ، أجبتُ بأننى كنتُ احتفظتُ بها لمدة طويلة ، لكن ماذا يمكن أن نفعل مع التنقّل ، والسفر ...

« ساتيك بنسخة »،

قبل مرور أربع وعشرين ساعة كان في بيتي ومعه الكتاب

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصغير ، كتاب صغير قديم ، عمره ست وعشرون سنة ، ملطّخ ومبقّع من القدّم ، لكن دون أن ينقص منه شيء ، وبإهداء مليء بالاحترام مكتوب حُطّ بده.

« الطبعة السابقة للأخيرة ، » قال لى. « ليس لدى الآن سوى نسخة واحدة منها ، ولا يمكنني أن أعطيها لأحد ».

ثم ، بينما كنت أتصفح العمل الأدبى القصير ، قال لى: « انظرُ ما إذا كنتُ تتذكّر شيئًا منه »،

والواقع أن انقطاعا لمدة ست وعشرين سنة يقتل صداقات أوثق وأكثر استقرارا ، لكنها كانت مجاملة مألوفة ، مجرد رفق ، أن يتذكّر المرء صفحة ما أو أخرى، قرأت إحداها بصوت مرتفع ، مشدّدا النبر على عبارات بعينها لأعطى الانطباع بأنها وجدت صدّى في ذاكرتي، أما هو فوافق على أنها جميلة ، لكنه فضل عبارات أخرى ، وأشار إليها.

« هل تذکرها ؟ »

« تماما، مديح للقديسة مونيكا ! كم تعود بى سنوات إلى شبابى ! لم أنس أبدا المعهد الدينى ، صدّقنى السنين تمرّ ، الأحداث تأتى تُزاحم بعضها ، أحاسيس جديدة ، ثم تأتى عندئذ صداقات جديدة ، تزول بدورها: تلك سنّة الحياة . ... باختصار ، يا زميل الدراسة العزيز ، لا شيء أضعف ذكرى أيام الزمالة تلك ، المدرسون القساوسة ، الدروس ، الألعاب ... ألعابنا ، هل تذكرها ؟ الأب لوبيس ! آه ، الأب لوبيس ... »

بعينيه فى الهواء ، بدا أنه كان يُصغى ، وربما كان ، مع أنه لم يُدُل إلا بتعليق واحد ، وبعد شىء من الصمت ، وهو يسحب عينيه ويتنهد: « النّاس أحبُّوه ، مديحى هذا ! »

بمجرد أن قيل هذا ، صافحنى بكل قوة عرفان هائل ، وودّع ، وانصرف. تُركتُ وحدى مع المديح ، أما الأشياء التي ذكرتني بها أوراقه فتحتاج إلى فصل أو أكثر. لكنني قبل ذلك - لأنني أيضا كان لدي مديحي - سأروى قصة سونيتة لم أكتبها قط كان ذلك في فترة المعهد الديني ، والبيت الأول كما يلي:

### يا زهرة السماء! يا زهرة زاهية ونقية!

كيف ولماذا قفز هذا البيت من دماغي ، لا أدرى. قفز خارجا على ذلك النحو، وأنا راقد في فراشي - صبيحة مفاجئة، ثم عندما لاحظتُ أن له وزن الشِّعر ، فكَّرتُ في تأليف شيء ينسجم معه ، سونيتَّة، الأرق ، عروس الشعر ذات العينين المحملقتين ، لم يدعني أنام ساعة طويلة أو ساعتين. الدغدغة طلبت أظافر الأصابع، هرشت بكل روحى، لم أختر السونيتة على الفور. في البداية فكّرت في أشكال أخرى ، في الشعر المقفّى وكذلك في المرسل ، لكنني استقررتُ في النهاية على السونيتّة: قصيدة قصيرة وطيعة. فيما يتعلق بالفكرة ، لم يكن البيت الأول فكرة بعد ، كان صبيحة ؛ وسنتأتى الفكرة فيما بعد، هكذا ، راقدا في الفراش ، ملفوفا في الملاءة ، حاولتُ أن أقرض الشعر. كان لديُّ إحساس الفزع المفاجىء لأم أحسنت داخل أحشائها بتحركات طفلها الأول، كنت على وشك أن أغدو شاعرا. كنتُ في طريقي إلى أن أتنافس مع ذلك الراهب، من بابِيا الذي كان تم اكتشافه قبل ذلك بقليل وكان أنذاك أخر صبيحة. أنا ، طالب المعهد الديني ، سأروى مصائبي شعرا كما رواها هو من الدير. حفظتُ البيت عن ظهر قلب ، وأخذتُ أردّده بصوت خفيض ، للملاءات، بصراحة ، وجدتُه جميلا ، وحتى الآن لا يبدو لي رديبًا .

### يا زهرة السماء ! يا زهرة زاهية ونقية !

ماذا كانت الزهرة ؟ كاپيتو ، ربما ؛ لكن كان من المكن أن تكون الفضيلة ، الشعر ، الدين ، أيّ مفهوم آخر يلائمه مجان الزهرة وزهرة السماء . انتظرتُ البقية ، مُنشدا البيت مرارا وتكرارا ، في البداية على جانبي الأيمن ، ثم على الأيسر ؛ أخيرا رقدتُ على ظهرى ، وعيناى على السقف . حتى في هذا الوضع ، لا شيء أكثر أتى إليّ.

عندئذ لاحظت أن السونيتات التى فازت بأعظم تمجيد هى تلك المقفلة بمفتاح ذهبى ، أى ، بأحد تلك الأبيات التى هى انتصار الفكرة والصورة، قررت أن أصنع مفتاحا كهذا ، ذلك أننى فكرت ملياً فى أنه إذا جاء البيت الأخير فى الترتيب الزمنى بعد الأبيات الثلاثة عشر التى تسبقه ، فسيكون من الصعوبة بمكان أن يتوقع المرء أن يكون له الكمال المنشود، تصورت أن مثل هذه المفاتيح لابد أن تُصب قبل القفل ذاته. هكذا عقدت العزم على أن أنظم البيت الأخير من السونيتة ، وبعد جهد جهيد ، انبثق هذا:

### الحياة فُقدتُ ، المعركة مع ذلك كُسبتُ !

بيتا رائعا، كان ربّانا ، بون أدنى شك. ثمّ إن فيه فكرة – الانتصار تمّ الفوز به مقابل الحياة ذاتها – فكرة مجيدة ونبيلة، ربما لم تكن جديدة تماما لكنها أيضا لم تكن شائعة، وحتى الآن لا يمكننى أن أفسر بأية طريقة مبهمة دخلت فى مثل ذلك الرأس الفتى، فى ذلك الوقت ، وجدتُها سامية. أنشدتُ المفتاح الذهبى مرارا، ثم ردّدتُ البيتين متعاقبين ، وأصبحت جاهزا لربطهما بالأبيات الاثنى عشر التى تقع بينهما، فيما يتعلق بالفكرة ، بدا لى الآن ، فى ضوء البيت الأخير ، أنه سيكون من الافضل ألا تكون كابيتو ؛ أن تكون العدالة، من الملائم أكثر أن نقول

أنه في النضال من أجل العدالة ربما تُفقَد الحياة لكن المعركة تُكسب مع ذلك، خطر ببالي أيضا أن أفهم المعركة بالمعنى المألوف فأجعلها كفاح المرء من أجل بلاده ، على سبيل المثال. في تلك الحالة ، ستكون زهرة السماء هي الحرية. لكن هذا الفهم للكلمة قد لا يكون مناسبا تماما ، نظرا لأن الشاعر كان طالبا في المعهد الديني ؛ وقضيت عدّة دقائق في المحيار هذا الفهم أو ذاك. وجدت العدالة أفضل ، لكنني أدركت في النهاية فكرة جديدة – المحبة، أنشدت البيتين ، كلا منهما بالأسلوب الذي يلائمه ، أحدهما ببطء:

يازهرة السماء! يا زهرة زاهية ونقية! والآخريجيوية:

الحياة فُقدت ، المعركة مع ذلك كُسبت !

كان الشعور الذي لوى هو أن سونيتة بالغة حدّ الكمال تُوشك أن تولد. لم تكن البداية الجيدة والنهاية الجيدة بالأمر الهين. لكى أعطى نفسى حَمَّام إلهام ، استدعيت إلى ذهنى عدّة سونيتات شهيرة ، ولاحظت أن أغلبها سهلة إلى حدّ بعيد. كانت الأبيات ، بالفكرة الموجودة فيها فعلا ، تتدفق تدفقا طبيعيًا أحدها من الآخر بحيث يعجز المرء عن أن يحسم ما إذا كانت الفكرة هي التي صاغت الأبيات ، أو أن الأبيات هي التي استدعت الفكرة عندئذ استدرت إلى سونيتتي ، ومرة أخرى ردّدت البيت الأول وانتظرت الثاني، لم يكن الثاني وشيكا ، ولا الثالث ، ولا الرابع ، ولا أيّ منها. انتابتني عدة نوبات غضب ، وأكثر من مرة فكرت في الخروج من الفراش والذهاب لتجربة الحبر والورق، ربما من خلال الكتابة ، تندفع الأبيات إلى أفواجا ، لكن ...

بعد أن أرهقنى الانتظار ، قرّرتُ أن أغيّر معنى البيت الأخير بمجرّد نقل موضع كلمتين ، على هذا النحو:

## الحياة كُسبت ، المعركة مع ذلك فُقدت !

ينقلب المعنى ليغس النقيض تماما ، لكن هذا فى حد ذاته يمكن أن يستدرج الإلهام. فى هذه الحالة ، تكون هناك مفارقة: بعدم ممارسة المحبة يمكن المرء أن يكسب الحياة لكنه يخسر معركة السماء. تشجّعت وانتظرت، لم تكن لدى نافذة. لو كانت لدى ، لكان من المكن أن أذهب لأشحذ فكرة من الليل. ومن يدرى ما إذا كانت الحباحب التى تضىء هنا تحت لم تكن لتبدولى أشبه بقطع صغيرة مقفّاة من النجوم فيقدم إلى هذا المجاز الحى أبياتا مراوغة بإيقاعاتها ومعانيها.

كدحت عبثا ، بحثت ، فتشت ، انتظرت ، لم تأت أي أبيات . منذ ذلك الوقت كتبت أكثر من صفحة من النثر ، والآن أوّلف هذه القصة ، مع ذلك لا أزال أجد أنه لا شيء في هذا العالم أكثر صعوبة من الكتابة ، جيدة أو سقيمة ، حسنا ، يا سادتي ، لا شيء يعزّيني عن تلك السونيتة التي لم أكتبها . لكن - لأنني أعتقد أن السونيتات تنبثق جاهزة الصنع ، شأنها في ذلك شأن قصائد الشعر الغنائي والمسرحيات وبقية الأعمال الفنية ، في ذلك شأن قصائد الشعر الغنائي والمسرحيات وبقية الأعمال الفنية ، بحكم قانون من قوانين النظام الميتافيزيقي - أقدم هذين البيتين لأوّل شخص كسول يريدهما . ففي يوم من أيام الأحد ، أو عندما تمطر السماء ، أو في الريف ، أو في أي لحظات فراغ أخرى ، يمكنه أن يحاول أن يرى ما إذا كانت السونيتة ستأتي . كل ما سيكون عليه هو أن يعطيها فكرة وأن يُضيف الوسط المفقود .

reed by Till Collibilite - (no stallips are applied by registered version)

### ٥٦ - طالب في المعهد الديني

كلُّ هذا ظلّ يقوله لى شيطان كتاب صغير ، بحروف طباعته ذات الطراز القديم واستشهاداته اللاتينية. رأيتُ لمحات كثيرة من حياة طالب في المعهد الديني تخرج من أوراق ذلك الكتاب الصغير: الأخوان ألبوكيركه على سبيل المثال ، أحدهما كاهن في باييا ، بينما دخل الآخر الطبّ ويقال أنه اكتشف علاجا نوعيا ضد الحمى الصغراء. رأيتُ باستوس ورجُليه الهزيلتين – وهو الآن قسيس أبرشية في مييا – پونته ، إن لم يكن مات فعلا، لويس بورچيس ، رغم أنه قسيس ، دخل السياسة وانتهى إلى أن يكون سيناتورا للامبراطورية ... . كم من وجوه أخرى حملقتُ في وجهى من الصفحات الباردة للمديح ! لا ، لم تكن باردة كانت تحمل دفء الشباب الغض ، دفء الماضى ، دفئى أنا . أردتُ أن أعيد قراحها ؛ هنا وهناك أدركتُ معنى النصّ؛ بدا لى مفعما بالحياة كما كان في أول يوم ، وإن كان أوجز، الكتاب الصغير أطلق سحرا: أحيانا ، وبلا وعي ، يوم ، وإن كان أوجز، الكتاب الصغير أطلق سحرا: أحيانا ، وبلا وعي ، عندما وقعتْ عيناى على آخر كلمة في الصفحة ، قامت يدى ، التي عندما وقعتْ عيناى على آخر كلمة في الصفحة ، قامت يدى ، التي اعتدما وقعتْ عيناى على آخر كلمة في الصفحة ، قامت يدى ، التي اعتدما وقعتْ عيناى على آخر كلمة في الصفحة ، قامت يدى ، التي اعتدما وقعتْ عيناى على آخر كلمة في الصفحة ، قامت يدى ، التي

كان هنا طالب آخر في المعهد الديني. كان اسمه حزقيال ده سوزا إسكوبار. كان صبيًا نحيلا ، ذا عينين صافيتين متألقتين تتنقّلان حوله بصورة متواصلة ، مثل يديه ، مثل قدميه ، مثل كلامه ، مثل كل شيء فيه ربما أحس أي شخص لم يعتد عليه باضطراب ، عندما لا يدري أين يجده. لم يكن ينظر إليك في عينك ، لم يكن يتكلم بوضوح ولا بتسلسل منطقي، لم تكن يداه تمسكان بيديك أو تسمحان ليديك بأن تمسكا بهما لأن أصابعه كانت رفيعة وقصيرة ، وعندما تظن أنك أخذتهما بين يديك ،

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجدت أنك لم تعد تمسك بشىء. نفس الشىء كان يصدُق على قدميه ، اللتين ما إن تكونان هنا إلا وتكونان هناك. هذه الصعوبة المتمثلة فى الخفة كانت عقبته الكبرى عندما حاول أن يألف عادات المعهد الدينى. كانت ابتسامته لحظية ، لكنه كان يملك أيضا ضحكة رائعة مرحة، شىء واحد فيه لم يكن سريعا ومتقلبا إلى هذا الحد – ولعه بالتفكير والتأمل. مرات كثيرة كنا نفاجئه ، منسحبا إلى داخل نفسه ، متفكّرا . دائما كان يفسر بأنه كان يتأمل في موضوع روحي ما ، أو بأنه كان يفكر في درس اليوم السابق، بعد أن حاز ثقتى ، كثيرا ما كان يطلب منى شروحا دقيقة وتكرارات ، وكانت لديه الذاكرة التى تحفظها جميعا ، حتى بالكلمات . ربما سلبثه هذه المقدرة مقدرة ما أخرى.

كان أكبر منى بثلاث سنوات ، وكان ابن محام من كوريتيبا ؛ وكان أحد أقربائهم يعمل بالتجارة فى ريو دى چانيرو ، وكان يعمل وكيلا لأبيه، كان الأب رجل آراء كاثوليكية صارمة، وكان لإسكوبار أخت ، وكانت ملاكا ، كما قال.

« ليست ملاكا فى جمالها فقط ، بل فى حنانها أيضا . لا يمكنك أن تتصور أى شخص حنون هى وهى تكتب إلى كثيرا . لابد أن أريك رسائلها ».

كانت فى الواقع بسيطة ورقيقة ، مليئة بالتودّد والنصيح. إسكوبار روى لى قصصا عنها ، وكانت شيّقة ، وكانت كلها تدلّ على حنان وفهم تلك المخلوقة المخلصة. كان من شأنها أن تجعلنى راغبا فى الزواج منها ، لى لم تكن كاپيتو هناك، وماتت بعد ذلك بفترة قصيرة.

مخدوعا بكلماته ، كنتُ تقريبا على وشك أن أروى له قصتى أنا هناك وأنذاك. في البداية كنتُ مترددا ، لكنه وجد طريقه إلى أن يحوز ثقتى. تلك الأساليب المراوغة توقّفتْ عندما رغب في ذلك ، وجعلها الزمن

والوسط أكثر هدوءًا. ومضى إسكوبار يفتح كل روحه ، من الباب الخارجى إلى السياج الخلفى، وروح أيّ شخص ، كما تعلم ، مرتب مثل بيت ، وليس من غير المالوف أن يكون بنوافذ على كل الجوانب ، بالكثير من الضوء والهواء النقى. هناك أيضا بيوت مغلقة ومظلمة ، بلا نوافذ ، أو بقليل منها ، وهذه القليلة بقضبان عليها على غرار الأديرة والسجون. وهناك بيوت أخرى أشبه ما تكون بكنائس صغيرة خاصة وبأسواق خيرية ، أو

لا أدرى ماذا كان بيتى، لم أكن أصبحت كازمور بعد ولا دون كازمور بعد ولا دون كازمور بعد ولا دون كازمور بعد ولا دامت الأبواب لم يكن لها مفاتيح ولا أقفال لم يكن من الضرورى إلا دفعها ، ودفعها إسكوبار ودخل، وجدتُه هنا في الداخل ، وهنا بقى إلى أن …

بحظائر بسبطة ، أن بقصور فخمة،

# ٥٧ - على سبيل التمهيد

أه! ليس طلاب المعهد الدينى وحدهم الذين نهضوا خارجين من تلك الأوراق القديمة للمديح. جلب الكتاب لى أيضا أحاسيس كانت تلاشت ، وهى كثيرة ومتنوعة بحيث لا يمكننى أن أرويها دون سرقة الأسطر من بقية القصة. أحدها واحد من أولاها – وددت لو سجئته باللاتينية – ليس لأن الموضوع لا يمكن التعبير عنه باحتشام بلغتنا ، التى هى عفيفة للعفيفات ، كما قد تكون فاسقة للفاسقات. نعم ، أيتها السيدة الأشد عفة ، كما كان سيقول چوزيه دياس الذى فُجعتُ فيه مؤخّرا ، يمكنك أن تقرئى الفصل كاملا إلى النهاية دون ازعاج أو خوف من اساءة. سوف أدّض القصة لفصل آخر. ومهما تُثبت أنها متواضعة وحذرة

في التعبير ، ففيها مع ذلك شيء ما أقلّ تزمّتا ، يتطلّب سطورا قليلة من

الاسترخاء والتمهيد. ليكن هذا الفصل بمثابة تمهيد – والتمهيد هام ، أيها القارىء العزيز. ذلك أنه عندما يتفحص القلب إمكان ما سيأتى – حجم الأحداث ووفرتها – فسوف يكون جريئا ومتأهبا، وهذا سيقلل الشرد وإذا لم يقلله هذا ، فلن يقلله شيء أبدا. والآن سترى حيلة أو حيلتين من حيلي ، لأنك عندما تقرأ ما تُوشك على قراحته ، من المحتمل أن تجده أقل فجاجة مما كنت توقعت.

### ٥٨ - المعاهدة

فى يوم من أيام الاثنين ، وأنا عائد إلى المعهد الدينى ، رأيتُ سيدة تسقط فى الشارع. كان لابد لبادرتى الأولى أن تكون بادرة إشفاق أو ضحك. لم تكن لهذا أو ذاك (وهذا ما وددت لو رويته باللاتينية) ، كانت السيدة تلبس جوربين طويلين نظيفين جدا ولم تلطّخهما ، وكانت تلبس أربطة جوارب من الحرير ولم تفقدها. سارع عدة أشخاص لمساعدتها لكنهم لم يصلوا فى الوقت الملائم لإنهاضها، قفزت على قدميها مرتبكة للغاية ، ونفضت التراب عن جونلتها ، وشكرتهم ، وانعطفت فى الشارع التالى.

« هذا الجنون بتقليد البنات الفرنسيات في شارع أوقيدور ، » قال چوزيه دياس وهو يسير إلى جانبي ويعلّق على الحادث ، « شيء أحمق بكل وضوح، سيداتنا الشابات ينبغي أن يسرن كما كنّ يسرن دائما ، بطريقتهن الرقيقة المتمهلة ، وليس بهذه التيك - تيك المتفرنسة ... »

لم أكد أسمعه. لمعت جوارب وأربطة السيدة بيضاء ودارت دورة لولبيّة أمامى ، سارت وسقطت ، نهضت وسارت منصرفة. عندما وصلنا إلى الناصية ، نظرت إلى الشارع الجانبي وعلى مبعدة رأيت سيدتنا سيئة

الحظ تمضى في طريقها بنفس الخُطئى ، تيك - تيك ، تيك - تيك ... « لم تُصبَ بأذى فيما يبدو ، » قلتُ،

« كأن ذلك أفضل لها ، لكن لابد أن ركبتيها أصيبتا بخدوش. هذا التسابق تكلُّف ».

أعتقد أن « التكلُّف » هو ما قاله. كنت لا أزال مع « الركبتين المخدوشتين ». ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ، على طول الطريق إلى المعهد الديني ، لم أر امرأة في الشارع إلا وكان ما تمنيتُه لها سقطة. بعضهن ، فيما ظننت ، كن يلبسن جوارب مُحكمة ناعمة وأربطة أنيقة ... وربما كانت هناك بعضهن اللائي لا يلبسن جوارب مطلقا الكنني رأيتهن يلبسنها ... أو ... ذلك أيضا ممكن .

وأنا أكشف هذا مع حُدوفات لكى أعطى انطباعا عن أفكارى ، التى كانت مسهبة ومشوشة على هذا النحو. لكن من المحتمل أنى لا أعطى أى فكرة على الإطلاق. كان رأسى ساخنا وخطوى غير ثابت. كانت الساعة الأولى فى المعهد الدينى لا تُطاق. كان لأردية الكهنة مظهر الجونيلات فذكّرتُنى بسقوط السيدة. كانت لم تعد تلك التى رأيتُها تسقط، كلّ مَنْ كنتُ رأيتُهن فى الشارع أظهرن لى الآن ، فى لمحة واحدة ، أربطتهن الزرقاء. نعم ، كانت زرقاء. فى الليل حلمتُ بهن، حشد هائل من المخلوقات البغيضات كُنّ يسرن حولى تيك – تيك... كُنّ جميلات ، بعضهن نحيلات ، وأخريات سمينات ، وكُنّ جميعا سريعات الحركة كالشيطان، استيقظتُ ، حاولتُ أن أعيدهن بالشعوذات وبأساليب أخرى ، لكن ما كدتُ أعود إلى النوم إلاّ وعُدن ، وممسكات بأيدى بعضهن أخذن يَدُننَ حولى في دائرة ضخمة من الجونيلات أو ممتطيات الهواء كُنّ يُمطرن الأقدام والأرجل على رأسى. استمر هذا حتى الفجر، لم أنم بعد ذلك، تلوتُ صلوات ربانية ، وصلوات السيدة العذراء ، وصلوات قانون الإيمان

المسيحى\*. ولأن هذا الكتاب هو الحقيقة المطلقة ، فأنا مُرغم على الاعتراف بأنه كان على أن أقطع أكثر من صلاة لأمضى في الظلام وراء شخص وهمى ، تيك – تيك ، ثم بسرعة أستأنف الصلاة من جديد ، في الوسيط مباشرة ، لألحمها تماما ، وكأنه لم يكن هناك انقطاع ؛ لكنني واثق من أن العبارة الجديدة لم تكن شُستأنف من حيث انقطعت السابقة.

عندما عاد الشرّ فيما بعد في الصباح ، حاولتُ أن أتغلّب عليه ، لكن بطريقة لا تدمّره كليًا، أنت يا مَنْ درست الكتاب المقدّس يمكنك أن تحدس ماذا كانت. هكذا تماما، ولأننى عجزتُ عن طرد هذه الأخيلة عن نفسى ، احتكمتُ إلى معاهدة بين ضميرى وخيالى. هذه الرؤى الأنثوية سينظر إليها من الآن فصاعدا على أنها مجرّد تجسدات الرذائل ، وسيجرى توقّعها بوصفها كذلك – كأفضل طريقة لتمتين الخُلُق وتقويته لمواجهة المعارك العنيفة للحياة، لم أقم بصياغة هذا في كلمات ، ولم يكن ذلك ضروريا . عُقدتُ المعاهدة بصورة ضمنية ، بشيء من التناقض ، لكنها عقدتُ المعاهدة أيام كنتُ أنا الذي استدعيتُ الرؤى ، لأحصرُن نفسى ، ولم أكن أطردها عنى إلا عندما تكون هي ذاتها تعبت وانصرفت.

## ٥٩ - ضيوف لهم ذاكرة جيدة

هناك ذكريات لا تهدأ إلى أن ينشرها القلم أو اللسان، قال أحد القدماء أنه كان يشمئز من ضيف له ذاكرة جيدة، والحياة مليئة بهذا النوع من الضيوف ، وربما كنت واحدا منهم ، رغم أن الدليل على أن لى ذاكرة ضعيفة يتمثلل في ذات واقع أن اسم ذلك القديم لا يحضرني في هذه

<sup>\*</sup> الذي مطلعه « نؤمن بإله واحد ... » - المترجم

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللحظة ، لكنه كان أحد القدماء ، وهذا يكفى،

لا ، لا ، ذاكرتي لست جيدة. على العكس ، يكن مقارنتها يشخص عاش في بنسيونات دون أن يحفظ الوجوه أو الأسماء ، بل مجرّد تفاصيل مبعثرة. إذا قضى شخص حياته في نفس بيت الأسرة بثبات أثاثه وعاداته ، أشخاصه وعواطفه ، فإن كل شيء يُنحت في داخله بالتواصل والتكرار، كم أحسد أولئك الذين لم ينسوا بعد لون بنطلوناتهم الأولى! فأنا است متأكدا من لون البنطلون الذي لبستُه أمس. يمكنني فقط أن أحلف أنه لم يكن أصفر ، لأننى أمقت ذلك اللون - لكن حتى هذا قد يكون النسبيان أو التشوَّش، بل هو النسبيان أكثر منه التشوش! سنوضيِّح نفسى، لا طريقة هناك لتصحيح كتاب مشوّش ، لكن كل شيء يمكن تعويضه في حالة كُتُب مليئة بالحذوف. من ناحيتي ، عندما أقرأ كتابا من النمط الأخير لا أنزعج على الإطلاق. ما أفعله ، عندما أصل إلى النهاية ، هو أن أغمض عيني وأستدعى كل الأشياء التي لم أجدها فيه، ما أكثر الأفكار الرائعة التي تأتيني عندئذ! أيّ تأملات عميقة! الأنهار، الجيال ، الكنائس ، التي لم أجدها في الصفحة المكتوبة ، كلها تظهر لي الآن بمياهها ، وأشجارها ، ومذابحها ؛ ويُجِرِّد الجنرالات السيوف التي لم تغادر أغمادها قط ، ويُطلق الكلاريون الأنغام التي ظلَّت نائمة في المعدن ، وكل شيء يتقدّم بحيوية مفاجئة.

الحقيقة أن كل شيء يمكن العثور عليه خارج كتاب به فجوات ، أيها القارىء النبيل، هذه هي الطريقة التي أملاً بها ثغرات الآخرين ؛ بنفس الطريقة يمكنك أن تملاً ثغراتي.

# ٦٠ - أيها العمل الأدبى القصير العزيز

هذا ما فعلتُه بمديح للقديسة مونيكا ، بل فعلتُ أكثر: وضعتُ فيه ليس فقط ما كان ينقصه عن القديسة ، بل أيضا أشياء لم تكن لها أي صلة بها. سبق لك أن رأيت السونيتة ، والجوارب ، والأربطة ، وطالب المعهد الديني إسكوبار ، وأشياء أخرى عديدة، سترى الآن بقية ما خرج من الصفحات المصفرة للعمل الأدبى القصير في ذلك اليوم،

أبها العمل الأدبى القصير العزيز ، أنت لم تكن تساوى شيئا ، لكن كم أكثر يساوى زوج شبشب قديم ؟ ومع ذلك كثيرا ما يكون في زوج شبشب نوع من العبير وإن جاز القول دفء قدمين، مهما يكن ممزّقا وباليا ، يذكَّرنا زوج شبشب مع ذلك بأن شخصا لبسه في الصباح وهو يخرج من فراشه ، أو خلعه في الليل وهو يدخل فيه. وإذا كانت المقارنة غير مناسبة لأن الشبشب في الواقع جزء من شخص وأحس باحتكاك قدمه ، هناك ذكريات أخرى ، مثل الحجر من شارع ، الباب لبيت ، تصفير خاص ، نداء بائع متجول ، مثلا بائع جوز الهند ، الذي ذكرتُه في الفصل ١٨. وعندما حكيت عن أغنية جون الهند ، كنت ممزَّقاً بالشوق إلى حدّ أننى طلبتُ أن يُدوّنها لى صديق كان مدرّس موسيقى وألصقتها بالغراء في نهاية الفصل، وإذا كنتُ حذفتُها فيما بعد ، فذلك لأن موسيقيًا أخر عرضتُها عليه اعترف ، بصراحة ، بأنه لم يجد في المقطوعة شبيئا يمكن أن يُوقظ أيّ أشواق. ولأن نفس الشيء قد لا يحدث مع محترفين آخرين قد يتصادف أن يقرأوني ، من الأفضل أن أوفّر على ناشر الكتاب عناء وتكلفة طباعة الكلاشيهات، أنت ترى أننى لم أضف أيَّ ملحق ، وإن أفعل. وأنا مقتنع بأنه لا يكفى أن يكون صبياح الباعة في الشوارع ، شانه شأن الأعمال الأدبية القصيرة لطلاب معهد ديني ،

منطویا فی داخله علی أحداث ، وأشخاص ، وأحاسیس : من الضروری أن يعرفها المرء ویعانیها فی حینها - بدون ذلك یكون كل شیء أبكم ولا لون له.

لكن لننتقلُ إلى باقى ما خرج من الصفحات المصفرة،

# ٦١ – عجلة هوميروس

كان الباقى كثيرا جدا، رأيتُ أيام الفراق الأولى تُقبِل ، أيام كئيبة قاسية ، رغم كلمات التشجيع التى تلقيتُها من المدرسين القساوسة والطلاب فى المعهد الدينى ، وتلك التى كانت من أمى ومن الخال كوزمه كما حملها جوزيه دياس إلى المعهد الديني.

« الجميع يشتاقون إليك ، » قال لى ، « لكن أعظم شوق بطبيعة الحال في أعظم قلب، فأيّ قلب هو ؟ » سأل ، مُقصحا عن الإجابة بعينيه.

« ماما ».

أمسك چوزیه دیاس بیدی بانفعال وانطلق یقد مصورة لحزن أمی ، كیف كانت تتكلم عنی كل یوم ، تقریبا كل ساعة. ولما كان یتفق دائما معها وأضاف كلمة أو أخری بشأن المواهب التی أنعم الرب بها علی ، كان اغتمام روح أمی فی هذه المناسبات لا یُوصف. كان یروی لی كل هذا ، یغمره إعجاب دامع. الخال كوزمه بدوره أصبح بالغ الحنان.

« أمس فقط كانت هناك حالة شيقة، عندما حدث أن قلت لحضرتها أن الرب منحها ليس ابنا بل ملاكا من السماء ، تأثّر الدكتور إلى حد أنه لم يستطع أن يمنع دموعه إلا بالإدلاء بأحد مدائحه الساخرة تلك لى بالطريقة التى لا يعرفها إلا هو. ولا حاجة إلى القول أن دونا جلوريا

مسحت دمعة مختلسة. وإلا ما كانت أمًّا! أيّ قلب ممتلى عجبًا! الأكثر امتلاءً!»

« لكن ، يا سنيور چوزيه دياس ، ماذا عن خروجي من هنا ؟ »

« أنا مهتم بذلك، الرحلة إلى أوروبا هى ما ننشد ، لكن يمكن القيام بها بعد سنة أو سنتين من الآن ، في ١٨٥٠ أو ١٨٦٠ ... »

« ليس قبل ذلك! »

« سيكون من الأفضل أن نقوم بها هذه السنة ، لكن لننتظر فرصتنا المناسبة، اصبر ، واصل الدراسة ، لن تخسر شيئا بالتقاط بعض المعرفة هنا ؛ إلى جانب ذلك ، حتى إذا لم تصبح قسيسا ، التعلم في المعهد الديني مفيد ، ليس بالشيء السيء أن تنطلق في العالم ، مصبوحا بزيوت اللاهوت المقدسة ... .»

عند هذه النقطة – وأنا أذكر ذلك كأنه كان أمس – ومضت عينا چوزيه دياس بحدة ملأتنى بالدهشة. ثم انطبق عليهما الجفنان وظلاً كذلك عدد لحظات ، إلى أن رفعهما مرة أخرى وتركزت عيناه على جدار الفناء كأنهما سكرتا بشىء ما ، إن لم يكن بنفسهما، أخيرا انتزعتا نفسهما من الجدار وأخذتا تجولان في أنحاء الفناء بأكمله، ربما كان بوسعى أن أقارنه بعجلة هوميروس: أحاط بالعجل الذي ولده لترة وأخذ يئن برفق حوله، لم أسائه ماذا دهاه، أحجمت ، في البداية من الخجل ثم بسبب أستاذين ، أحدهما أستاذ لاهوت ، كانا يسيران في اتجاهنا، عندما كانا على وشك أن يمراً بنا ، تكلم معهما التابع ، الذي كان يعرفهما ، بالاحترام الذي كانا يستحقانه ، وسئالهما عن مدى تقدّمي.

« لا يزال الوقت مبكرًا جدا على قطع أى وعود ، » قال أحدهما ، « لكن يبدو أنه سيجتاز كلّ شيء على أفضل ما يرام ».

« هذا ما كنتُ أقول له منذ قليل ، » قاطع چوزيه دياس بسرعة.

« إننى أعد نفسى اسماع أول قداس له، لكن حتى إذا لم يتم رسمه قسيسا ، لا يمكنه أن يحصل على تعليم أفضل مما يحصل عليه هنا. وسوف ينطلق في رحلة الحياة ، ، » و ختم كلامه ، متأنيا عند كلمات «ممسوحا بزيوت اللاهوت المقدسة ... ، »

فى هذه المرة كان الوميض فى عينيه أقل ولم يسقط الجفنان كما أن إنسانى العينين لم يقوما بالحركات التى قاما بها من قبل. على العكس ، كان كله اهتماما واستفسارا. كل ما هناك أن ابتسامة متألقة وودية ارتشعت حول شفتيه، وجد أستاذ اللاهوت المجاز على هواه وقال له ذلك، شكره چوزيه دياس ، وأوضع أنها كانت أفكارا ندّت عنه عفو الخاطر فى سياق الحديث. لم يكن كاتبا أو خطيبا.

كنتُ أنا الذى لم أجد المجاز عل هواى على الإطلاق، وبمجرد أن انصرف الأستاذان ، هززتُ رأسى:

« لا أريد أن أسمع أي شيء عن زيوت اللاهوت المقدسة. أريد أن أخرج من هنا في أسرع وقت ممكن ، أو الآن على الفور... . »

« على الفور ، يا ملاكى ، مستحيل ؛ لكن ربما كان ذلك أسرع كثيرا مما نتصور ، من يدرى ؟ ربما في سنة ٥٨ هذه نفسها عندى خطة جاهزة وأنا أفكر الآن في الكلمات التي سأستخدمها عند عرضها على دونا جلوريا . أنا واثق من أنها ستذعن وتذهب معنا ».

« أشك في أن ماما ستسافر معنا إلى الخارج ».

« سنرى، الأم قادرة عل أيّ شيء ؛ لكنْ بها أو بدونها ، اعتبر رحيلنا حقيقة لا شك فيها ، وسأبذل قصارى جهدى ؛ انتظرْ فقط. الصبر كل ما هو مطلوب، ولا تفعلْ هنا أيّ شيء يمكنه أن يؤدي إلى نقد أو شكوى – الطاعة الكاملة وكلّ مظاهر الرضا ! ألم تسمع كلمات الثناء التي قالها الأستاذ ؟ كان سلوكك على ما يرام، حسنا إذن ، واصلْ نفس السلوك ».

- « لكن ١٨٥٩ أو ١٨٦٠ بعيدتان جدا ».
- « سيكون في هذه السنة ، » أجاب جوزيه دياس.
  - « ثلاثة أشهر من الآن ؟ »
    - « أوستّة ».
    - « لا ، ثلاثة ».
- « حاضر ، ثلاثة. عندى خطة جديدة ، وهي تبدو لي أفضل من أي خطة أخرى، أن نجمع بين غياب النداء الكنسي وضرورة تغيير الجو. لم لا تسعل ؟ »
  - « لم لا أسعل ؟ »
- « أَوه ، ليس على الفور. سأبلّغك لتسعل عندما تكون هناك حاجة إلى ذلك ، مع البداية تدريجيا ، سعلة جافة صغيرة وبعض فقدان الشهية. سأكون مستمرا في تهيئة حضرتها ... أوه ، كل هذا لمصلحتها هي، عندما ترى أن ابنها لا يمكنه أن يخدم الكنيسة كما ينبغي أن تُخْدَم ، ستكون أفضل طريقة لإنفاذ إرادة الرب هي تكريسه لشيء ما آخر. العالم أيضا كنيسة لذوى القلوب الطيبة ... »

مرة أخرى بدا لى أنه مثل عجلة هوميروس: كأن كلماته « العالم أيضا كنيسة لذوى القلوب الطيبة » كانت ثورا صغيرا ، أخاً ل « زيوت اللاهوت المقدسة »، لكننى لم أترك له أي وقت للتعبير عن حنانه الأمومى ، وقاطعته بقولى: « آه ! أنا فاهم ! نجعلها ترى أننى لست على ما يرام لكى نُسافر إلى الخارج ، أليس كذلك ؟ »

تردد چوزیه دیاس قلیلا ، ثم أفصح عن قصده: « نجعلها تری الحقیقة ، لأننی ، بصراحة ، یا بنتینیو ، عندی شکوك أحیانا بخصوص صدرك. صدرك لیس قویا، عندما كنت صغیرا أصبت مرارا بسخونة وببحة .... كلّ ذلك ذهب عنك الآن ، لكنْ هناك أیام لا یكون فیها لونك علی

ما يرام. أنا لا أقول أنك مريض الآن ، لكن المرض قد يأتى فجأة، البيت يمكن أن ينهار دفعة واحدة. وهكذا إذا كانت تلك السيدة التى فى عداد القديسات غير راغبة فى الذهاب معنا – أو لنجعلها تذهب بسرعة أكبر ، أظن أن سعلة جيدة ... وإذا كان السعال سيأتى على أى حال ، فمن الأفضل أن نعجل به ... حسنا ... دُعُ الأمر لى ، سأعطيك الإشارة ...».

« حسنا ، لكننى لن أصعد إلى ظهر السفينة بمجرد أن أخرج من هنا ، أوّلاً أخرج من هنا ، ثم نفكّر في الإبحار . الرحلة هي التي يمكن أن تنتظر إلى السنة التالية . أليسوا يقولون أن أفضل وقت للسفر أبريل أو مايو ؟ حسنا فليكن مايو إذن . أوّلاً أغادر المعهد الديني ، في غضون شهرين من الآن ... »

ولأن الكلمة كانت تلتصق بحلقى ، استدرت بسرعة وسالت مباشرة: « وكاييتو - كيف حالها ؟ »

### ٦٢ - لمسة من إياجو

كان السؤال غير حكيم فى وقت كنتُ أحاول فيه تأجيل موعد الإبحار. كان بمثابة إقرار بأن السبب الرئيسى أو الوحيد لنفورى من المعهد الدينى يتمثل فى كاپيتو، الأمر الذى كان من شأنه أن يجعله يعتقد أن الرحلة بعيدة الاحتمال، أدركتُ هذا بمجرد أن تكلّمت، أردتُ أن أصحت نفسى لكننى لم أعرف كيف كما أنه لم يترك لى وقتا.

« إنها مبتهجة وسعيدة كعادتها دائما، يا لها من مخلوقة طائشة ! فقط تنتظر لتوقع في شراكها شابا ما متأنقا من الحيّ ، وتتزوجه ... . » أنا واثق من أن وجهي غدا شاحبا. على الأقل أحسست بقشعريرة

انا والق من أن وجهى عدا ساحب على أدَّقَلُ الحسسيَّ بِعَسَّعَرِيرِهِ سرتُ في كل جسدى، فالنبأ القائل أنها كانت مبتهجة وسعيدة بينما كنتُ verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered versio

أبكى كل ليلة أحدث ذلك الأثر ، وكان ذلك مصحوبا بدق عنيف من قلبى إلى حد أنه يبدو لى حتى فى الوقت الحالى أننى أسمعه. هناك شىء من المبالغة فى هذا القول ، لكن هذا هو شأن الخطاب البشرى ، فهو مركب من التضخيم المسرف والتهوين المسرف بحيث يعوض كل منهما عن الآخر ويتكافأ معه، من جهة أخرى إذا فهمنا أن السمع فى هذه الحالة لم يكن سمع الأذنين بل سمع الذاكرة ، سنصل إلى الحقيقة الدقيقة، لا تزال ذاكرتى تسمع الدق العنيف لقلبى فى تلك اللحظة، لا تنس أنها كانت عاطفة الحب الأول. كنت على وشك أن أطلب من چوزيه دياس أن يفسر بهجة كاپيتو ، ماذا فعلت ، ما إذا كانت دائما تضحك ، أو تغنى ، أو تقفز ، لكننى كبحت جماح نفسى فى الوقت المناسب ، ثم عندئذ: فكرة تقفز ، لكننى كبحث جماح نفسى فى الوقت المناسب ، ثم عندئذ: فكرة

فكرة أخرى ، لا ، إحساس قاس ومجهول ، غيرة خالصة ، يا قارىء قلبى. ذلك ما حفر طريقه فى داخلى وأنا أردد لنفسى كلمات چوزيه دياس: «شاب ما متأنق من الحىّ ». كانت هذه حقا كارثة لم أفكر فيها قط. أنا عشت كثيرا فيها ، وبها ، ولها ، إلى حدّ أن التدخل المفاجىء لشاب ما متأنق كان ، إن جاز القول ، فكرة بلا واقع، لم يكن خطر ببالى أبدا أن هناك شبانا متأنقين فى الحى ، من مختلف الأعمار والأنماط ، متنزهين عريقين فى الأعمائل. تذكّرت عندئذ أن بعضهم اعتادوا أن يحملقوا فى وجه كاپيتو – وكنت أحس أننى زوجها إلى حدّ أنه بدا وكأنهم كانوا يحملقون فى وجهى أنا ، مجرد تعبير عن الإعجاب والحسد، وعندما افترقنا ، بالمكان والمصير ، بدا لى الشر ليس ممكنا وحسب ، بل أكيدا. ثم أكد ابتهاج كاپيتو الشك. إذا كانت مبتهجة ، كان ذلك يعنى أنها وقعت بالفعل فى حبّ شخص آخر ، تتبعه بعينيها كلما مر ذلك يعنى أنها وقعت بالفعل فى حبّ شخص آخر ، تتبعه بعينيها كلما مر فى الشارع ، تكلّمه من النافذة عند هبوط الليل ، يتبادلان الزهور و ...

و ... ماذا أيضا ؟ أنت تعرف ماذا أيضا يتبادلان. إذا لم يكن بإمكانك أن تحدس بنفسك فلا فائدة من قراعتك باقى الفصل ، ولا باقى الكتاب ؛ ستكون عاجزا عن أن تحدس أيّ شيء ، حتى إذا أعطيتُك أصل وتاريخ كل كلمة. لكن إذا كنت حدست فسوف تفهم أنني ، بعد أن ارتجفت ، أحسست بحافز عنيف إلى أن أندفع بلا تردد أو إبطاء عبر البواية الرئيسية ، أن أحثِّ الخطى ، وأجرى ، وأسرع إلى بيت يادوا ، وأمسك بكابيتو وأمرها ، وأجبرها على أن تعترف كم ، كم ، كم دفع لها -هذا الشاب المتأنق من الحيِّ. لم أفعل شيئًا، لم يكن لنفس الأحلام التي أقصبًا الآن ، في غضون تلك الدقائق الثلاث أو الأربع ، هذا المنطق للحركة والفكر. كانت مفكَّكة ، مرقّعة ، مرقّعة للغاية ، مثل تصميم مرقّع وملتو ، فوضى ، زوبعة أعمتنى وأصمتننى، عندما عدت إلى نفسى كان چوزیه دیاس یختتم جملة لم أكن سمعت بدایتها ، وحتى النهایة كانت مبهمة: « الأهمية التي تعطيها لنفسها ». أيّ أهمية ومَنْ ؟ افترضت طبعا أنه كان لايزال يتحدث عن كاييتو ، وأردتُ أن أسأله ، لكن الرغبة ماتت فور مولدها مثل انبثاقات أخرى كثيرة جدا لها. اكتفيت بسؤال التابع متى أعود إلى البيت وأرى أمي،

« بى شوق إلى رؤية ماما . هل يمكننى أن أذهب هذا الأسبوع ؟ » « ستذهب يوم السبت ».

« السبت ؟ أوه ، نعم ، نعم ! اطلبُ من ماما أن ترسل في طلبي يوم السبت ! السبت ! هذا السبت ، هل ستفعل ؟ اجعلْها ترسل في طلبي من غير إبطاء ».

تلهّفت على مجىء السبت. حتى ذلك الحين أزعجتنى الأحلام ، حتى في يقظتى. لن أرويها هنا ، لكى أتفادى إطالة هذا الجزء من الكتاب. سأسجّل وإحدا فقط ، وبأقل عدد ممكن من الكلمات ، أو بالأحرى ، سأسجّل حلمين لأن أحدهما تولّد عن الآخر – إن لم يكونا يشكّلان في الواقع نصنفًى حلم واحد. كل هذا غامض ، سيدتى القارئة ، لكن الخطأ هو خطأ جنسك ، الذى أقلق على هذا النحو مراهقة طالب مسكين في المعهد الديني. لولا ذلك ، ربما كان هذا الكتاب مجرّد موعظة في أبرشية لو كنتُ أصبحت قسيسا ، أو رسالة رعوية لو كنتُ أصبحت أسقفا ، أو منشورا عاما لو كنتُ أصبحت البابا ، كما أوصانى الخال كوزمه: « ارحلُ ، يا فتى ، وعد إلى وأنتُ بابا ! » أه ، لماذا لم أحقق هذه الرغبة ؟ فبعد نابليون ، الملازم والامبراطور ، صارت كل المصائر ممكنة في هذا القرن.

فيما يتعلق بالحلم ، فها هو. بينما كنتُ منشغلا بالتفتيش عن شبان متأنقين في الحيّ ، رأيتُ أحدهم يتحادث مع حبيبتي تحت نافذتها . أسرعتُ إلى المكان ؛ كان هرب. صعدتُ إلى كابيتو ، لكنها لم تكن وحدها ؛ كان أبوها إلى جانبها ، يمسح عينيه ويحملق في ورقة يانصيب خاسرة. لأن هذا لم يكن واضحا لي مطلقا ، كنتُ على وشك أن أطلب منه تفسيرا عندما قدّمه إلى من تلقاء نفسه: الشاب المتأنق أحضر إليه منذ قليل قائمة بالأرقام الفائزة بجوائز ، وتبيّن أن الورقة خاسرة. كان لديه رقم ٤٠٠٤، قال لي أن هذا التناسق في الأرقام شيء ملغز وجميل ، ومن المحتمل أن عجلة اليانصيب تحطمت ؛ فمن المستحيل ألا تكون ورقته كسبت الجائزة الكبرى، بينما كان يتكلم ، كانت كابيتو تعطيني ، بعينيها ،

verted by Till Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل الجوائز ، كبرى وصغرى، أعظم هذه الجوائز كان لابد من إعطائها بالفم. وهنا يدخل الجزء الثانى من الحلم، اختفى پادوا ، وكذلك آماله المتصلة بورقة اليانصيب. كانت كاپيتو تنظر إلى الشارع متكئة على النافذة ، تطلعت بسرعة إلى كل مكان في الشارع ، كان مهجورا، أخذت يديها ، وغمغمت بشيء أو آخر ، واستيقظت وحيدا في مهجعي،

لا تكمن أهمية ما قرأته لتوك في موضوع الحلم ، بل في المحاولات التي بذلتُها لأعود إلى النوم لأستأنف الحلم مرة أخرى. لا يمكنك أبدا في هذا العالم أن تتصوّر الطاقة والمثابرة اللتين بذلتُهما في إغماض عيني والاحتفاظ بهما مغمضتين بإحكام ، وفي طرد كل شيء عن عقلى لكي أسقط نائما. لكنني لم أسقط نائما. هذا الجهد ذاته أفقدني نومي حتى الفجر. عند الفجر نجحت في استمالته إلى ، لكن عندئذ لا الشبان المتأنقون ، ولا أوراق اليانصيب ، ولا الجوائز الكبرى أو الجوائز الصغرى – لا شيء على الإطلاق أتى ليقلقني. لم أعد أحلم في تلك الليلة ، وسمّعت دروسي تسميعا رديئا في اليوم التالى.

### ٦٤ - فكرة وتردد

وأنا أعيد قراءة الفصل السابق ، جاءتنى فكرة ومعها تردد، لا يزيد التردد عن هذا ، ما إذا كان ينبغى أن أسجّل الفكرة على الورق ، لأنه لاشىء على الأرض أكثر منها ابتذالا ، وإنْ كان ابتذال الشمس والقمر اللذين تمنحهما لنا السماء كل يوم وكل شهر، استدرتُ مبتعدا عن المخطوطة ونظرتُ إلى الجدران. أنت تعلم أن هذا البيت في إنچنيو نوڤو ، من حيث أبعاده ، ونظامه ، وديكوره ، نسخة طبق الأصل من بيتى القديم في ماتاكاڤايوس، وكما أخبرتك في الفصل ٢ ، كان غرضي من إحياء

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البيت الآخر هو أن أربط طرفى حياتى ببعضهما ، وهذا ، بالمناسبة ، ما لم أحققه إلى الآن. حسنا ، حدث نفس الشيء لذلك الحلم الذي حلمتُه في المعهد الديني ، ولا يهم كم حاولتُ أن أنام ونمت. من هذا أستنتج أن إحدى مهام الإنسان تتمثل في أن يغمض عينيه ويحتفظ بهما مغمضتين بإحكام ليرى ما إذا كان الحلم الذي انقطع عندما كان الليل في أوّله سيستمر خلال الساعات الميتة، هذه هي الفكرة المبتذلة والمبتكرة التي تردّدتُ في كتابتها هنا ، ولا أكتبها الآن إلا من باب الاحتياط.

قبل إنهاء هذا الفصل ، ذهبتُ إلى النافذة لأسأل الليل عن السبب في أن الأحلام رقيقة إلى درجة أنها تنقطع وتتبدّد عند أدنى فتح للعينين أو تقلّب للبدن ، فلا تدوم الليل لم يردّ على في الحال كان فاتن الجمال ؛ كانت التلال المنخفضة شاحبة في ضوء القمر وتجمّد المكان في الصمت حينما ألححت ، أخبرني أن الأحلام لم تعد خاضعة لسلطانه وعندما كانت تقيم على الجزيرة التي كان منحها إياها لوسيان ، حيث كان لليل قصره ، ومن حيث كان يُطلقها بوجوهها الأشبه بوجوه الغواصين ، ربما كان الليل أعطاني تفسيرات ممكنة الزمن غير كل شيء الأحلام القديمة أحيلت إلى المعاش ، أما الجديدة فأقامت في دماغ كل شخص وهذه الأخيرة ، مع أنها حاولت محاكاة السابقة ، عجزت عن المحاكاة: فجزيرة الحموح وتنافس أوروبا والولايات المتحدة .

كانت تلك إشارة إلى الفيليبين. ولأننى لا أحب السياسة ، وناهيك بالسياسة العالمية ، أغلقت النافذة وعُدتُ لإنهاء هذا الفصل قبل أن أذهب إلى الفراش. لم أعد ألتمس أحلام لوسيان ، ولا الأحلام الأخرى ، ثمار الذاكرة والهضم. غنوتُ راضيا بنوم آمن هادىء. في الصباح ، عندما يهدأ كل شيء ، سأمضى مع بقية القصة والشخصيات.

جاء السبت ، وجاءت أيام سبت أخرى ، وبدأت أزداد حبًا الحياة الجديدة ، مُناوبا بين البيت والمعهد الدينى، المدرسون القساوسة أحبّونى ، والأولاد أيضا ، وإسكوبار أكثر من الأولاد الآخرين والمدرسين، وبعد خمسة أسابيع كنتُ مستعدًا لأن أخبره بمتاعبي وأمالي، صدّتْني كاييتو.

- « إسكوبار هو صديقي الحقيقي جدا ، يا كاپيتو! »
  - « لكنه ليس صديقي ».
- « ربما أصبح صديقك ؛ قال لى فعلا أنه يريد أن يأتى ليلتقى بماما ».
- « هذا لا يهم ، أنت لا تملك الحق في أن تقول سرًا لا يخصك وحدك بل يخصنى أيضا ، وأنا لا أعطيك إذنا بأن تقول أى شىء لأى شخص ».

كانت على حق، ظللت صامتا وأطعت، حالة أخرى أطعت فيها توجيهاتها وقعت في أوّل سبت ، عندما ذهبت إلى بيتها. بعد دقائق قليلة من الحديث نصحتنى بأن أذهب: « لا تبق هنا اليوم أكثر من هذا. عُد إلى البيت ، وساذهب إليكم فيما بعد، من الطبيعى أن دونا جلوريا تريد أن تكون معك معظم الوقت ، أو كلّ الوقت إنْ أمكن ».

فى كل هذا ، قدّمت مديقتى الصغيرة الدليل على بعد نظرها إلى درجة أنه يمكننى أن أستغنى تماما عن الاستشهاد بمثل ثالث ، لكن فيم تفيد الأمثلة إن لم يكن فى الاستشهاد بها ، كما أن هذا المثل جيد إلى حدّ أن حذفه سيكون جريمة. كان ذلك أثناء عودتى الثالثة أو الرابعة إلى البيت، بعد أن أجبت على الأسئلة الألف التى وجهتها أمى عن الطريقة التى يعاملوننى بها ، ودراستى ، وأصدقائى ، وتدريبى ، وما إذا كا أيّ

شيء يؤلني في أيّ مكان ، وماإذا كنت أنام جيدا ، كل تلك الأشياء التي يخترعها الحب الأمومي لاستنفاد صبر ابن – ختمت بالاستدارة إلى جوزيه دياس:

« يا سنيور چوزيه دياس ، ألا تزال تشك في أن قسيسا جيدا سيخرج من هذا الصبي ؟ »

« مضرتك ... »

« وأنت ، يا كاپيتو ، » قاطعت أمى مستديرة إلى ابنة پادوا ، التى تصادف أن كانت فى الحجرة معها: « ألا تعتقدين أن عزيزنا بنتينيو سيغدو قسيسا جيدا ؟ »

« أعتقد ، يا سنبورة ، » أجابت كاييتو باقتناع.

لم أحب ذلك الاقتناع. قلت لها ذلك فى الصباح التالى ، فى حديقتها ، عندما تذكّرت كلماتها فى المساء السابق. صارحتها ، لأول مرة ، بالابتهاج الذى أبدته منذ بداية دخولى المعهد الدينى ، بينما كان قلبى يتقطع شوقا. صارت كاپيتو جادة وسالتنى عن الطريقة التى كنت أريدها أن تتصرف بها ، وهى ترى أنهم يرتابون فينا بالفعل. هى أيضا قضت ليالى تعيسة ، وكانت أيامها ، فى بيتها هى ، حزينة مثل أيامى ؛ ويمكننى أن أسأل أباها وأمها . بل كانت أمها قالت لها ، بلغة مبطنة ، أنها ينبغى أن تكف عن التفكير في.

« مع دونا جلوريا ودونا چوستينا ، بالطبع ، أتظاهر بأننى مبتهجة وسعيدة بحيث لا يبدو أن وشاية چوزيه دياس صحيحة. لو بدت صحيحة ، لحاولوا أن يفصلونا أكثر من ذى قبل ، وربما انتهى الأمر بألا يستقبلونى... من ناحيتى ، يكفى أننا أقسمنا عل أن يتزوج كل منا من الآخر »،

كان ذلك صحيحا: كان علينا أن نتظاهر لكي نقتل كلُّ شك،

وبتمتع ، فى الوقت ذاته ، بحريتنا السابقة ، ونبنى مستقبلنا بهدوء. لكن المتمل بما سمعتُه فى اليوم التالى على مائدة الإفطار. عندما قال الخال كوزمه أنه لا يزال يريد أن يرى كيف سيكون مظهرى وأنا أبارك الناس فى القداس ، روت أمى كيف قالت لها كاپيتر قبل ذلك بأيام قليلة عندما كانتا تتحدثان عن بنات يتزوجن صغيرات: « حسنا ، فيما يخصنى ، الشخص الذى ينبغى أن يتزوجني أنا هو الأب بنتينيو. إننى أنتظر إلى أن يتم رسمه قسيسا! »

ضحك الخال كوزمه من القصة، ولم يمنع چوزيه دياس ابتسامة، ابنة العم چوستينا وحدها قطبت جبينها وحدقت إلى مستفسرة، أما أنا ، الذى نظرت إليهم جميعا حولى ، فلم أستطع أن أواجه نظرة ابنة عمى فشغلت نفسى بالأكل، لكننى لم أكل إلا القليل. كنت سعيدا بتحفة كاپيتو في الخداع إلى حد عجزت عن التفكير في أي شيء آخر، وبمجرد أن انتهيت من الإفطار قمت بزيارة خاطفة إلى هناك وأبلغتها بالحديث ، وامتدحت دهاءها. ابتسمت كاپيتوشاكرة،

« عندك حق ، يا كاپيتى ، » قلت مختتما ، « سنخدع هؤلاء القوم جميعا ».

« ألم نخدعهم بعد ؟ » أجابت ببراءة.

### ٣٦- صداقة حميمة

كانت كاپيتو تشق طريقها إلى قلب أمى، كانتا معاً معظم الوقت ، تتحدُثان عنى بمناسبة وبغير مناسبة، اعتادت كاپيتو أن تذهب إلى هناك وتخيط فى الصباح ؛ وكانت تبقى أحيانا للغداء،

لم تكن ابنة العم چوستينا تشارك قريبتها في هذه المجاملات ،

لكنها لم تُعامل حبيبتي بالسوء المتوقّع منها. كانت صادقة بما يكفي لتقول الآراء السبيئة التي تعتقدها عن شخص ، ولم يكن رأيها حسنا في أيّ شخص - ربما باستثناء زوجها ، لكن زوجها كان ميتا ، على أي حال ، لم يكن هناك رجل بوسعه أن يضارعه في الحنان ، في المثابرة والاستقامة ، في السلوك وفي توقّد العقل. كان هذا الرأى ، وفقا للخال كوزمه ، تالياً لوفاة زوجها ، ذلك أنهما في حياته كانا يتشاجران ويتعاركان دائما ، وفي الشهور الستة الأخيرة عاشا منفصلين، ويرجع الفضل من باب أولى إلى حسِّها بالعدالة ؛ فامتداح الموتى طريقة في الصلاة من أجلهم. كانت أيضًا مُغرمة بأمى ، أو إذا فكَّرتُ أيَّ تفكير سيء فيها ، كان ذلك بينها وبين وسادتها. من المفهوم أنه كان عليها أن تُبدى لها في الظاهر الاحترام اللائق، وأنا لا أعتقد أنها طمحت إلى أيّ نوع من الميراث. والأشخاص المطبوعون على هذا يتجاوزون الخدمات المألوفة ، فَهُمْ يجعلون أنفسهم مقبولين أكثر ، وهم دائمو المجاملات ، ويضاعفون ملاطفاتهم ، ويتفوَّقون على الخدم. كل هذا كان مناقضا لطبيعة ابنة العم چوستينا ، والتي كانت تتألّف من الفظاظة والعناد. ولمّا كانت تعيش في البيت من باب الإحسان ، وهذا بديهي ، ما كان لها أن تُبدى استخفافا بسيدته ، وكان عليها أن تحتفظ لنفسها بمشاعر استيائها ، أو ألا تذكرها يسوء إلاَّ مع الله والشيطان،

افترض أنها تكن مشاعرا استياء ضد أمى - لم يكن من شأن ذلك أن يبر لها أن تمقت كابيتو ، كما أنها لم تكن بحاجة إلى مبررات إضافية. على أن صداقة كابيتو الحميمة جعلتها بغيضة أكثر لقريبتى، وإذا كانت لم تعاملها معاملة سيئة في البداية ، فهي غيرت سلوكها بمضى الوقت وانتهت إلى تجنبها. عندما لم تعد تراها كانت كابيتو المجاملة تستفسر عن صحتها وتسأل عنها. تسامحت ابنة العم چوستينا مع هذه

المجاملات. الحياة مليئة بالتزامات يفى بها الناس مهما تكن رغبتهم كبيرة فى التهرب منها. إلى جانب ذلك ، كانت كاپيتو سيدة لسحر قادر على الاستعباد ؛ وفى نهاية الأمر كان لابد لابنة العم چوستينا من أن تبتسم ، وإنْ كانت ابتسامة مُرّة ، لكنها مع أمى وحدها كانت تجد شيئا دنيئا يمكنها قوله عن الفتاة.

عندما سقطت أمى مريضة بحمّى وصلت بها إلى باب الموت ، طلبت أن تكون كاپيتو ممرضتها، ورغم أن هذا أراح ابنة العم چوستينا من مهام بغيضة مرهقة ، لم تغفر لصديقتى الصغيرة تطفُّها، ذات يوم سئلتها ما إذا لم يكن لديها شىء ما تفعله فى بيتها، وفى يوم آخر ، أطلقت ضاحكة هذه الحكمة: « لا حاجة بك إلى الجرى وراء ما تبغين ، ما سيكون من نصيبك سيأتى إليك من تلقاء نفسه ».

### ٦٧ - خطيئة

لن أجعل المرأة المريضة تنهض من فراشها دون أن أروى ما حدث لى، بعد خمسة أيام ، استيقظت أمى ذات صباح منزعجة ومضطربة إلى حد أنها أمرت بإحضارى إلى البيت من المعهد الدينى، بلا جدوى قال الخال كوزمه: « أختى جلوريا ، أنت تُزعجين نفسك بلا شيء ؛ الحمل ستزول ... »

« لا ! لا ! أرسلُ في طلبه ! قد أموت ، وإن ينجو روحي إذا لم يكن بنتينيو هنا معي ».

« سنبلغه ».

« حسنــا ، لا تخبره بشـيء ، لكن أحضــره ، الآن ، الآن ، لا تنتظر »،

اعتقدوا أنه هذيان الحمّى ؛ لكنْ لأن الإرسال في طلبي لا يكلّف شيئا ، عهدوا بالمهمة إلى چوزيه دياس. دخل مرتبكا فأفزعني. أخبر رئيس المعهد فيما بينهما بالمضوع وتلقّيت إذنا بالعودة إلى البيت. في الشارع ، سرنا معا دون أن نقول شيئا. لم يغيّر خطوه المألوف – المقدمة الكبرى قبل الصغرى ، المقدمة الصنغرى قبل نتيجة القياس – لكنه ثبّت عينيه على الأرض وتنهّد من وقت لآخر إلى حدّ أننى خشيتُ أن أنظر إلى وجهه خشية ما يمكن أن أقرأ فيه. كان تكلم عن المرض كموضوع بسيط ؛ وجهه خشية ما يمكن أن أقرأ فيه. كان تكلم عن المرض كموضوع بسيط ؛ لكن الاستدعاء إلى جانب فراش مرضها ، والصمت ، والتنهّدات ، ربما كانت تعنى شيئا أكثر. كان قلبي يدق بعنف ، وارتعشت رجُلاي ، وأكثر من مرة ظننت أنني على وشك السقوط ... .

كانت رغبتى فى أن أسمع الحقيقة يعقدها خوفى من معرفتها، كانت تلك هى المرة الأولى التى اقترب فيها الموت منى ، فحاصرنى ، وحملق فى وجهى بعينيه الغائرتين المعتمتين. كلما أوغلنا فى السير فى شارع باربونوس ، أفزعتنى أكثر فكرة الوصول إلى البيت ، الدخول ، سماع البكاء ، رؤية جثة ... أوه ، لا يمكننى أبدا أن أصف هنا كل ما شعرت به فى تلك الدقائق المفزعة. مهما كان من شأن البطء الأبطأ الذى سار به چوزيه دياس ، بدا الشارع وكأنه يتلاشى تحت أقدامنا ، وكانت البيوت تفر هاربة على الجانبين ، وأتت أصوات بوق من ثكنات الحرس البلدى فترددت فى مسمعى وكأنه بوق يوم القيامة.

مضيت فى طريقى ، وصلت إلى الأقواس ، انعطفت فى شارع ماتاكاڤايّوس. لم يكن البيت هناك مباشرة ، بل كان على مسافة كبيرة بعد كازا دوس إنڤاليدوس ، قُرَّب مجلس الشيوخ، ثلاث أو أربع مرات أردت أن أسال رفيقى ، دون أن أجرؤ على فتح فمى ؛ لكننى الآن لم تعد لدى أن رغبة من هذا القبيل. فقط ظللت أسير ، راضيا بالأسوأ كضربة قدر ،

كضرورة بشرية ، وعندئذ ، من أجل مقاومة الفزع ، همس الأمل لقلبى -- ليس بهذه الكلمات ، فلا شيء تم لفظه بكلمات ، بل بفكرة يمكن ترجمتها بها- « إذا ماتت أمي ، سيكون ذلك نهاية المعهد الديني ».

أيها القارىء ، كان ذلك وميضا مفاجئاً كالبرق ؛ ما كاد ينير الليل حتى تلاشى ، تاركا الظلام أشد كثافة بسبب الندم الذى تركه معى وراءه. كان ذلك تحريض اللهفة والأنانية. إخلاص البنوة تلاشى للحظة أمام احتمال حرية بعينها من خلال اختفاء الدين والمدين. كانت لحظة ، أقل من لحظة ، جزء من لحظة ، لكن مع ذلك: كافية لتعقيد بؤسى بالندم.

كان چوزيه دياس يتنهد. مرة نظر إلى تعلوه سيماء الحزن إلى حد أنه بدا لى أنه خمّن أفكارى ، وطلبتُ منه تقريبا ألا يقول أى شيء لأى شخص ، لأننى سأعاقب نفسى ، الخ .. لكن حزنه كان ينطوى على الكثير من الحب بحيث لم يكن من المكن أن تكون له أى صلة بخطيئتى ؛ لكن عندئذ كان لا يزال هناك موت أمى... . أحسستُ بكرب شديد ، بغصة فى حلقى ، ولم يعد بمقدورى أن أتحمل ذلك فانفجرتُ باكياً.

« مالك ، يا بنتينيو ؟ »

« ماما ؟ »

« لا ، لا ! يا لها من فكرة ! حالتها خطيرة جدا لكنه ليس مرضا قاتلا ، وربّنا كبير. امسح عينيك ، لا يليق بصبى فى سنك أن يمضى باكيا فى الشارع، لن يتمخّض الأمر عن أىّ شىء ، مجرّد حُمّى ... الحميّات تصيب المرء بقوة مفاجئة وتذهب بنفس الطريقة ... لا ، ليس بأصابعك ، أين منديلك ؟ »

مسحت عينى ، رغم أن كلمتين فقط من كل كلمات چوزيه دياس بقيتا في قلبى: كانت الكلمتان هما: خطيرة جدًا . أدركت فيما بعد أنه

لم يقصد سوى خطيرة ، لكن استخدامه المألوف لصيغ التفضيل يجعل الفم يُطنب ، وفى سبيل جملته المطنبة ضاعف چوزيه دياس تعاستى. فإذا صادفت فى أى وقت حالة من هذا النوع فى هذا الكتاب أخبرنى بها ، أيها القارىء ، لعلنى أصحّحها فى الطبعة الثانية: لا شىء غير ملائم أكثر من منح أرجل طويلة جدا لأفكار قصيرة جدا . مسحت عيني ، أكر ، ومضيت أسير ، متلهفا الآن على أن أصل إلى البيت وأطلب الصفح من أمى على الفكرة الشريرة التى خطرت على بالى . أخيرا وصلنا إلى هناك ، ودخلنا ؛ بقدمين مرتجفتين صعدت الدرجات الست إلى الصالة ، وفى غضون لحظات قليلة كنت أنحنى على الفراش وأصغى إلى كلمات أمى الرقيقة فيما كانت تضغط على يدى فى يديها ونادتنى بابنها . كانت متلهفة ، احترقت عيناها فى عينى ، وبدا كل كيانها يحترق فى البركان الذى بداخلها . جثوت إلى جانب الفراش ، لكننى ، لأنه كان مرتفعا ، كنت بعيدا جدا عن ملاطفاتها:

« لا ، يا ابنى ، انهضْ ، انهضْ ! »

كاپيتو ، التى كانت فى حجرة النوم أيضا ، استمتعت برؤية دخولى ، وحركاتى ، وكلماتى ، ودموعى ، كما أخبرتنى فيما بعد ؛ لكنها بطبيعة الحال لم تشك فى كل أسباب غمى.

بعد أن ذهبت إلى حجرتى فكرت فى أن أقول لأمّى كل شىء ، بمجرّد أن تصبح على مايرام. لكن هذه الفكرة لم تنل سيطرة حقيقية على . كانت رغبة مبهمة متراخية لم أكن لأضعها أبدا موضع التنفيذ ، مهما آلمتنى خطيئتى. ومدفوعا بالندم ، استفدت مرة أخرى بحيلتى القديمة الخاصة بالندور الروحية . طلبت من الرب أن يعفو عنى وينقذ حياة أمى وسأتلو عندئذ ألفى صلاة ربانية . لعل القسيس الذى يقرأنى أن يغفر لى حيلتى هذه ؛ كانت آخر مرة استغلاتها فيها . والأزمة التى وجدت نفسى

فيها تفسر كل شيء ، ليس أقل من العادة والإيمان. كان هذا يعنى إضافة ألفى صلاة ربانية. أين تلك القديمة ؟ لم أسدد - لا هذه ولا الأخرى ، لكن مثل هذه الننور ، التي تصدر عن أرواح مخلصة بريئة ، أشبه ما تكون بالنقود الائتمانية - رغم أن المدين لا يعاود شراعها ، تُساوى المبلغ المكتوب عليها.

### ٨٨-لنؤجلُ الفضيلة

قليل من الأشخاص يمكن أن تكون لديهم الشجاعة للاعتراف بتلك الفكرة التي خطرت لى في شارع ماتاكافايوس، ساعترف بكل شيء على حدة بقصتى. كتب مونتاني عن نفسه: ece ne sont pas mes gestes حسنا مناسك طريقة واحدة وحسب لوصف المرء لجوهره: أن يقول كل شيء ، الحسن والرديء. هذا ما أفعله كلما تذكّرت أشياء مناسبة لتفسير وإعادة تفسير نفسي، على سبيل المثال ، الآن بعد أن رويت خطيئة ، سأكون سعيدا جدا بأن أروى أي عمل كريم قمت به من نفس الفترة إذا تذكّرت عملا كهذا؛ لكنني لا أتذكّر أي عمل كهذا، سيجرى تأجيله إلى أن تظهر فرصة أكثر ملاءة.

كما أنك لن تخسر بانتظارك ، يا صديقى ، على العكس ، يخطر على بالى أن... الأعمال الكريمة ليست كريمة فى أىّ مناسبة وحسب بل هى أيضا ممكنة ومحتملة وفقا للنظرية لدىّ خطايا وفضائل ، وهذا أمر ليس أقل بساطة منه وضوحا، وهو يتلخّص فى هذا: كل شخص

<sup>\*</sup> ليست مأثري ما أكتب ؛ بل جوهري (بالفرنسية في الأصل) - المترجم.

يُولد بعدد بعينه من الخطايا والفضائل تتّحد بالاقتران ليعوض بعضها الآخر في الحياة، عندما يكون أحد هذين القرينين أقوى من الآخر فهو وحده يوجّه الفرد - دون أن يكون قادرا على القول مع ذلك - لأنه لم يمارس هذه الفضيلة أو يرتكب تلك الخطيئة - أنه يخلو من الواحدة أو الأخرى، لكن القاعدة هي تسليم النفس الممارسة المتزامنة للاثنتين ، بما يعود بالنفع لحاملهما ، وأحيانا بمجد عظيم على الأرض وفي السماء، ومن المؤسف أنه لا يمكنني أن أعطى أساسا لهذا بحالة أو أكثر من خارج نفسي؛ لكنْ ينقصني الوقت.

بقدر ما يتعلق الأمر بى ، من المؤكد أننى ولدت بالعديد من هذه الأزواج المقترنة ، وبطبيعة الحال فأنا لا أزال أملكها، حدث مؤخّرا هنا في إنچنيو نوفو أنْ رغبت ذات ليلة عانيت فيها من صداع فظيع في أن ينفجر قطار من قطارات السنترال ، بعيدا عن سمعى ، وفي أن يتوقّف الخط لعدة ساعات ، حتى إذا كان لابد لأحدهم أن يموت؛ ثم في اليوم التالى فاتنى قطار في نفس الطريق لأننى قدمت عكازى لرجل أعمى لم لا Voilà mes gestes, voilà mon essence يكن لديه عكاز.

### ۲۹ – قداس

تمثّلت إحدى مآثرى التى تعبّر خير تعبير عن جوهرى فى الإخلاص الذى سارعت به يوم الأحد التالى لأسمع القدّاس فى سانتو أنتونيو دوس پويرس. أراد التابع أن يذهب معى وبدأ فى ارتداء ملابسيه ، لكنه كان بطيئا جدا مع حمالاته وأربطة بنطلونه إلى حدّ أننى

<sup>\*</sup> تلك مأثرى ؛ ذلك جوهرى (بالفرنسية في الأصل) - المترجم.

لم أستطع أن أنتظره. إلى جانب ذلك ، أردت أن أكون بمفردى. أحسست بضرورة تفادى أى حديث من شأنه أن يُحول أفكارى عن الغرض الذى كنت ذاهبا من أجله ، وكان هذا يتمثل فى عقد صلح بينى وبين الرب بعد ما حدث فى الفصل ٢٧. لم يكن غرضى أن أطلب أن يغفر لى الخطيئة فحسب ، بل أيضا أن أشكره على شفاء أمى ، وأن أجعله -- وهو يرى أننى أقول كل شيء - يمتنع عن الجباية على نذرى، إن يهوه ، رغم سماويته - أو لهذا السبب بالذات - هوروتشيلد ، فقط أكثر إنسانية بكثير: إنه لا يمنح فترات سماح بتأجيل الديون ، بل يعفى من الدين بالكامل ، بشرط أن يرغب المدين حقا فى أن يُصلح من حاله ويخفض بالكامل ، بشرط أن يرغب المدين حقا فى أن يُصلح من حاله ويخفض نفقاته. حسنا ، أنا لم أطلب شيئا آخر؛ ومن الآن فصاعدا لن أنذر أى نفور أخرى لا يمكننى الوفاء بها ، أما تلك التى نذرتُها فعلا فسافى بها خالما أحققها.

سمعت القدّاس، عند رفع خبز القربان المقدّس شكرتُه على حياة وصحة أمى، ثم تضرّعت إليه أن يغفر لى الخطيئة ويلغى الدين ، وتلقيت البركة الأخيرة من الكاهن الذى أقام القدّاس كإجراء مقدّس للمصالحة، وفيما بعد خطر لى أن الكنيسة وطدت فى كرسى الاعتراف الطقس الأكثر قبولا بين الطقوس الدينية الشرعية ، وفى الاعتراف الأداة الأكثر جدارة بالثقة بين أدوات تسوية الحسابات الخلقية بين الانسان والرب، لكن جبنى الذى لا فكاك منه أغلق هذا الباب المضمون دونى: كنت خائفا من أن أعجز عن العثور على كلمات أروى بها سرّى لكاهن الاعتراف، كم يتقير الانسان! اليوم أمضى إلى حدّ نشره،

واصلتُ الصلاة ، رسمتُ إشارة الصليب على نفسى ، أغلقتُ كتاب الصلاة ، وسرتُ نحو الباب، لم يكن هناك كثير من الناس ، لكن الكنيسة لم تكن كبيرة أيضا ، واستطعتُ فقط أن أخرج ببطء . كان هناك رجال ونساء ، كبار وصغار ، حرائر وأقطان ، وربما عيون جميلة وأخرى قبيحة؛ لكننى لم أر لا هذه ولا تلك. ظللت أسير في اتجاه الباب ، مع الموجة ، وسمعتُ التحيات والهمسات الخفيضة. في الرواق ، حيث كان المكان مضيئا ، نظرتُ إليهم جميعا . رأيتُ فتاة شابة ورجلا يخرجان من الكنيسة ويقفان . الفتاة نظرتُ إلى وتكلّمتُ مع الرجل ، ونظر الرجل إلى فيما كان يُصغى إلى الفتاة . وتناهت هذه الكلمات إلى أذنيُ:

- « لكن ماذا تريدين ؟ »
- « أريد أن أستفسر عنها . يجب أن تسأل ، يا بابا ».

كانت سينيازينيا سانشا ، زميلة كاپيتر في الدراسة ، وكانت تريد أن تستفسر عن أمى، أتى إلى أبوها. قلت له أن أمى شُفيت. ثم خرجنا، أشار إلى بيته ، ولأننى كنت ذاهبا في نفس الاتجاه ، ذهبنا معا. كان چورچيل رجلا في الأربعين أو أكثر قليلا ، وكان به ميل إلى كرش ضخم، كان شخصا بالغ الخنوع. وعندما وصلنا إلى بيته ، أصر على أن أتناول الإفطار معهما.

- « أشكرك ، ماما تتوقّعني ».
- « سنبعث بصبى ملوّن ليقول أنك باق للإفطار وأنك ستأتى فيما بعد ».
  - « ساتى فى يوم آخر »،

استدارت سينيازينيا سانشا إلى أبيها ، وأصنعت ، وانتظرت لم

تكن قبيحة. كان وجه الشبه الوحيد مع أبيها أنفها ، الذى كان غليظا أيضا فى طرفه؛ لكن كانت هناك ملامح تأخذ الجمال من وجه وتمنحه لآخر. كانت تلبس ببساطة. كان چورچيل أرمل وكان يعيش لابنته، وعندما رفضت الإفطار ، توسل إلى أن أتوقف وأستريح دقائق قليلة، لم أستطع أن أرفض فدخلت. أراد أن يعرف عمرى ، ودراساتى ، وقدم إلى النصح فى حالة ما إذا كنت سأصبح قسيسا. أعطانى رقم دكانه فى شارع كيتاندا، أخيرا ودعنى، أتى إلى بسطة السلم؛ وبعثت الابنة تحياتها إلى كابيتو وإلى أمى، وعندما نظرت إلى أعلى من الشارع ، كان الأب عند النافذة وأوما إيماءة وداع فخمة.

# ٧١- زيارة من إسكوبار

فى البيت ، كانوا كذبوا بالفعل ، فأخبروا أمى أننى عُدْتُ وأغير ملابسى.

« قداس الساعة الثامنة لابد أن يكون انتهى ... بنتينيو كان ينبغى أن يكون عاد ... هل تعتقد أن شيئا حدث ، يا أخى كوزمه ؟ ابعث بأحد ليرى ... » هكذا كانت تتحدث من دقيقة لأخرى؛ لكننى دخلت ومعى الطمأنينة.

كان يوم مفاجآت سارة، جاء إسكوبار ليزورنى ويستفسر عن صحة أمى. لم يقم من قبل بزيارتنا أبدا ، كما أن علاقاتنا آنذاك لم تكن وثيقة كما صارت فيما بعد ، لكن لأنه عرف السبب وراء مغادرتى للمدرسة قبل ذلك بُثلاثة أيام ، انتهز فرصة يوم الأحد ليزورنى زيارة خاطفة ويسال عما إذا كان لا يزال هناك خطر، عندما قلت له أنه ليس هناك خطر ، تنهد،

- « كنتُ فزعا » ، قال.
- « هل يعرف الآخرون ؟ »
- « فيما يبدو؛ بعضهم يعرف »،

أحب الخال كوزمه وجوزيه دياس الصبى. قال له التابع أنه رأى أباه ذات مرة في ريودي جانيرو. كان إسكوبار مهذبا جدا؛ رغم أنه تحدث أكثر من عادته فيما بعد إلا أنه لم يكن كثير الكلام مثل الصبية الذين في عمرنا. في ذلك اليوم وجدتُه أصرح قليلا من المعتاد، دعاه الخال كوزمه إلى الغداء معنا، فكر إسكوبار لحظة ثم قال أن وكيل أبيه يتوقّعه، تذكرت كلمات جورجيل ، وكرّرتُها:

« سنبعث بصبى ملوّن ليقول أنك ستتغدّى معنا وأنك ستأتى فيما يعد ».

« ستكون مشكلة كبيرة! »

« لا مشكلة على الإطلاق » ، قاطع الخال كوزمه.

قبل إسكوبار ، بقى للغداء، لأحظت أن الحركات السريعة التى كان يبقيها تحت السيطرة فى الفصل الدراسى ، سيطر عليها الآن أيضا ، فى حجرة الجلوس وكذلك على المائدة. كانت الساعة التى قضاها معى ساعة صداقة بلا تحفظ. أطلعتُه على الكتب القليلة التى كنت أملكها. أعجب إعجابا شديدا ببورتريه أبى؛ بعد لحظات قليلة من التأمل فيه استدار إلى وقال:

« من الواضح أن هذا كان إنسانا صافى القلب! »

عُيْنا إسكوبار ، اللتان كانتا صافيتيْن ، كما قلتُ من قبل ، كانتا أيضا حلوتيْن جدا. تلك هي الطريقة التي وصفهما بها چوزيه دياس بعد أن غادر ، وأنا أحتفظ بالكلمة رغم مرور أربعين سنة على ذلك. في هذه الحالة لم يكن هناك أيّ أثر لمبالغات التابع. كان الوجه الحليق لإسكوبار

يكشف عن بشرة ناعمة ناصعة. ربما كان جبينه منخفضا قليلا (كان مفرق شعره فوق حاجبه الأيسر تماما) لكنه كان مرتفعا مع ذلك بما يكفى لئلاً يلتهم بقية ملامحه فيقلّل من جمالها. والواقع أنه كان وجها لافتا للنظر: فم دقيق بارتفاع حاد إليه ، وأنف رفيع مقوس. وكانت له عادة خاصة هي أن يلوى كتفه الأيمن من حين لآخر – وفقدها بعد أن نبهه إليها أحدنا ذات يوم في المعهد الديني - وهذا أفضل مثال رأيتُه في حياتي لشخص يعالج نفسه من عيب ثانوى تافه.

لم أستطع أبدا أن أمنع نفسى من نوع من الزهو البالغ كلما وجدت أصدقائى يحوزون رضا الجميع، ارتاحت أسرتى بكاملها ارتياحا شديدا إلى إسكوبار، حتى ابنة العم چوستينا وجدته شابا جديرا بالاحترام للغاية ، رغم ...

« رغم ماذا ؟ » سأل چوزيه دياس عندما رأى أنها لا تعتزم إتمام عمارتها .

لم يحصل على أى إجابة ، كما لم يكن من المحتمل أن يحصل عليها. ومن المحتمل أن ابنة العم چوستينا لم تجد أى عيب واضح أو هام في ضيفنا. كانت كلمة رغم نوعا من الاحتياط ضد تقيصة ما ربما اكتشفتها فيه ذات يوم ، إما هذا أو أنها كانت نتيجة عادة طويلة قادتها إلى أن تضع تحفيظا حيث لا تجد ما تتحفظ عليه.

غادر إسكوبار بعد الغداء مباشرة، أخذتُه إلى الباب ، حيث انتظرنا الاتوبيس، قال لى أن مخزن الوكيل فى شارع بيسكادوريس ، وأنه يظل مفتوحا حتى الساعة التاسعة لكنه يحبّ البقاء خارج البيت إلى وقت متأخر، افترقنا بتأثّر كبير: داخل الاتوبيس ، ظلّ يلوّح مودّعا، بقيتُ عند الباب لأرى ما إذا كان سينظر إلى الوراء من بعيد ، لكنه لم مفعل.

« أيّ صديق عظيم هذا ؟ » سأل شخص من نافذة قريبة.

لا حاجة إلى أن أقول لك أن الشخص كان كاپيتو. هناك أشياء يمكن تخمينها في الحياة ، كما في الكتب ، روايات كانت أم قصصا حقيقية. كانت كاپيتو ، التي كانت تختلس النظر إلينا من وراء الستارة المعدنية ، والتي فتحت النافذة على مصراعيها الآن وظهرت. كانت شهدت توديعاتنا العاطفية ، وغير الحجولة ، أرادت أن تعرف من ذا الذي كان يعنى كلّ ذلك لى.

« إنه إسكوبار » ، قلتُ. ذهبتُ ووقفتُ تحت النافذة ونظرتُ إلى أعلى،

### ۷۲- تعدیل مسرحی

لا أنا ، ولا أنت ، ولا هي ، ولا أي شخص آخر في هذه القصة كان بإمكانه أن يُجيب بما هو أكثر ، وأكيد أيضا أن القدر ، شأنه في ذلك شأن كل الكتّاب المسرحيّين ، لا يُعلن انقلابات حظّه المفاجئة ، ولا الحدث الفاجع الختامي، كلّ منها يصل في وقته المعلوم ، إلى أن يهبط الستار ، وتنطفيء الأضواء ويعود المشاهدون إلى بيوتهم للنوم، في هذه الطريقة ربما كان هناك شيء مرغوب فيه على سبيل التعديل ، وأنا أقترح ، على سبيل التجربة ، أن تبدأ المسرحية بالنهاية، يقتل عطيل نفسه وديدمونة في الفصل الأول؛ وتُخصّص الفصول الثلاثة التالية للتأثير البطيء المتناقص للغيرة ؛ ويُترك الفصل الأخير للمشاهد الافتتاحية الخاصة بتهديد الأتراك ، وتفسيرات عطيل وديدمونة ، والنصيحة الجيدة للداهية إياجو: « ضَعْ المال في الكيس ». على هذا النحو، سيجد المشاهد في المسرح ، من جهة ، فزورته التمثيلية المعتادة في الصحف ، لأن الفصول المسرح ، من جهة ، فزورته التمثيلية المعتادة في الصحف ، لأن الفصول

الأخيرة ستفسّر الحدث الفاجع الختامى فى الفصل الأول ، والذى سيكون « المفتاح » إن جاز القول ، وسيذهب إلى الفراش ، من جهة أخرى ، بالانطباع الأوّلى الطيب للحنان والحب: « أحبّتنى للأخطار التى اجتزتها ،

« احبيني للاحطار التي لجنزتها ، وأحبيتُها لأنها أشفقت منها عليّ ».

# ٧٣-مدير خشبة المسرح

القدر ليس كاتبا مسرحيا فقط ، هو أيضا مدير خشبة مسرحه هو، أيْ أنه يحدّ دخول الشخصيات في المشهد ، ويعطيها رسائل وأشياء أخرى ، ويُحدث ضوضاء خلفية المسرح لتنسجم مع الحوار: الرعد ، عربة ، طلقة نارية. عندما كنت صغيرا ، مثلوا هنا ، في هذا المسرح أو ذاك ، مسرحية تنتهي بيوم القيامة، كانت الشخصية الرئيسية هي شخصية أحشويرش\* ، الذي اختتم مونولوجا ، في المشهد الأخير ، بهذه الصيحة: « إنني أسمع بوق رئيس الملائكة ! » لم يسمع أيّ بوق على الإطلاق. أحشويرش ، المجلّل بالعار ، كرّر بيت الشعر ، بصوت أعلى هذه المرة ، ليلمّح لمدير خشبة المسرح ، لكنْ لا شيء أيضا، عندئذ سار إلى خلفية المسرح ، متظاهرا بأداء حركة تراجيدية ، لكنْ في الواقع بغرض الهمس نحو الكواليس: « القرن! القرن! القرن! » التقط الجمهور هذه الكلمة وانفجر ضاحكا ، إلى حد أنه عندما انطلق صوت البوق على نحو حدي وصرخ أحشويرش للمرة الثالثة بأنه بوق رئيس الملائكة ، صحّحه صبى صغير مشاكس في الجزء الخلفي لقاعة المسرح من هنا في طبي صبي صغير مشاكس في الجزء الخلفي لقاعة المسرح من هنا في الأسفل: « لا ، يا سنيور ، إنه قرن رئيس الملائكة! »

<sup>\*</sup> أحشويرش: اليهودي التائه - المترجم.

بنفس الطريقة يمكن تفسير وقوفي تحت نافذة كاييتو ومرور شخص على ظهر حصان - غندور ، كما اعتدنا أن نقول في تلك الأيام. جلس منفرج الساقين فوق حصان أكُمت جميل ، ثابتا على السرج ، اللجام في اليد اليسرى ، واليمني عند حزامه ، البُوت من الجلد اللميم ، أنيق المظهر والوضع؛ ولم يكن الوجه مجهولا لديّ، سبق أن مرّ آخرون ، كما أن آخرين سيأتون بعده؛ كانوا جميعا في طريقهم لرؤية حبيباتهم، كان من عادة ذلك الزمن مطارحة الغرام من فوق ظهر الحصان. أعد قراءة ألينكار: « لأن طالبا ( تقول إحدى شخصياته المسرحية في ١٨٥٨ ) لا يمكنه أن يكون بدون هذين الشيئين ، حصان وحبيبة ». أعد قراءة ألقاريس ده أزيفيدو. إحدى قصائده (١٨٥١) تروى كيف أنه عاش في كاتومبي ولكي يرى حبيبته في كاتيَّته ، استأجر حصانا مقابل ثلاثة مياريسات ... ثلاثة ميارسات! اختفت كلها في غضون ليلة من الزمان! حسنا ، الغندور الذي فوق الحصان الأكمت لم يمرّ بنا كما مرّ الآخرون: كان بوق يوم القيامة ، وانطلق في الوقت المعلوم. ذلك أسلوب القدر ، الذي هو مدير خشية مسرحه هو، لم يقنع الراكب بالمرور ، بل أدار رأسه في اتجاهنا ، اتجاه كاييتو، ونظر إلى كاييتو، ونظرتْ إليه كاييتو. مضى الحصان في طريقه لكن رأس الرجل واصل التحديق إلى الوراء،

كان هذا ناب الغيرة الثانى الذى نفذ إلى داخلى. ولأصدُقك القول ، من الطبيعى الإعجاب بالأشخاص الأنيقين؛ لكن ذلك الشخص اعتاد المرور كل أصيل. كان يعيش فى كامبودا أكلاماسون القديم ، ثم ... ثم ... حاولٌ فقط أن تحكم بقلب من الجمر المتقد. لا كلمة لكاپيتوا غادرتُ الشارع بسرعة ، ودخلتُ الصالة ، وكان أول شيء أدركتُه هو أننى كنتُ فى حجرة الجلوس .

## ٧٤- سيُرُور البنطلون

فى حجرة الجلوس كان الخال كوزمه وچوزيه دياس يتحادثان ، أحدهما جالسا على مقعد ، والآخر وهو يتمشى ويقف ثم يتمشى ويقف حالما رأيت چوزيه دياس تذكّرت ما كان قاله فى المعهد الدينى : « فقط تنتظر لتوقع فى شراكها شابا ما متأنقا من الحى وتتزوجه ...» لا شك فى أنها كانت إشارة إلى الرجل الذى على ظهر الحصان. هذه الذكرى فاقمت الانطباع الذى أتيت به معى من الشارع؛ لكن ربما كانت هذه العبارة ، المصونة فى لا شعورى ، هى التى دفعتنى إلى الاعتقاد بخبث نظراتهما العجلى. كان ما أردت القيام به هو أن أمسك بخناق چوزيه دياس ، فأجره إلى الصالة ، وأساله ما إذا كان تكلم انطلاقا من الحقيقة الفعلية أم من الافتراض؛ لكن چوزيه دياس ، الذى كان توقف عندما رآنى البيت المجاور؛ وتخيلت أن كاپيتو تركت النافذة فزعة ولن تتباطأ عن أن البيت المجاور؛ وتخيلت أن كاپيتو تركت النافذة فزعة ولن تتباطأ عن أن تظهر ، وتوجه الأسئلة ، وتفسر ... أما ذلكما الشخصان فواصلا الحديث إلى أن نهض الخال كوزمه ليذهب ويرى المرأة المريضة ، وأتى چوزيه دياس إلى عند تجويف النافذة الأخرى.

قبل ذلك بلحظة ، كانت لدى رغبة فى أن أساله عما هناك بين كاپيتو والشبان المتانقين فى الحى، أما الآن ، عندما تخيلت أنه أتى إلى من أجل الغرض الخاص بإبلاغى ، فكنت خائفا من أن أسمع، أردت أن أوقف فمه، رأى چوزيه دياس شيئا ما فى وجهى ، يختلف عن تعبيره المعتاد ، فسألنى بجزع: « ماذا حدث ، يا بنتينيو؟ »

لكيلا أنظر اليه ، تركت عينى تسقطان. وعندما سقطتا ، رأيت سنيور إحدى رجُلَى بنطلون التابع - السيور التي تُشد تحت الحذاء -

مفكوكة ؛ وعندما ألح على معرفة ماذا دهانى ، أجبتُ بمد إصبعى: « انظرُ السيور ، زرَّرُ السيور »،

انحنى چوزيه دياس؛ وفررتُ من الحجرة،

### ٧٥- يـــا'س

فررتُ من التابع ، فررتُ من أمى – لم أذهب إلى حجرتها – لكننى لم أفرّ من نفسى، جريتُ إلى حجرتى ودخلتُ وراء نفسى، تحدثتُ مع نفسى ، ضقتُ ذرعا بنفسى ، ألقيتُ بنفسى على الفراش ، وأخذتُ أتقلب مع نفسى، بكيتُ ، وكتمتُ نحيبى بطرف الملاءة، حلفتُ أننى لن أزور كاپيتو ذلك الأصيل ، ولا مرة أخرى أبدا ، وأننى سأصبح قسيسا في التو واللحظة.

رأيتُ نفسى رسمتُ قسيسا بالفعل ، واقفا أمامها، بكتُ نادمة وتوسلتُ طالبة صفحى ، لكننى ، باردا وهادئا ، لم يكن لدى سوى الاحتقار والازدراء، أدرتُ لها ظهرى، ووصفتُها بأنها منحرفة،

مرّتين وجدتُ نفسى أجزّ على أسناني ، وكأنها كانت بينها.

بينما كنتُ متمدّدا على الفراش ، سمعتُ صوتها، كانت جات لتقضى بقية الأصيل مع أمى ، وربما معى ، كما كانت لها أوقات أخرى؛ لكنْ مهما كان ما أحدثه مجيئها فى نفسى ، فهولم يجعلنى أغادر حجرتى، كانت كاپيتو تضحك بصوت مرتفع ، وتتحدّث بصوت مرتفع ، كانما لتجعلنى أدرك أنها هناك. ظللتُ أصم، وحيدا مع نفسى واحتقارى، وكنتُ مملوءاً برغبة فى أن أغرز أظافرى فى حلقها، وأدفنها عميقا، وأراقب الحياة تنزف منها مع دمها ... بعد ذلك ببعض الوقت أحسست أننى صرت هادئا لكن مرهقا ومكتئبا. وجدت نفسى ممددا على الفراش ، وعيناى على السقف ، وفجأة تذكّرت أن أمي كانت قالت لى ألا أستلقى على الفراش بعد الغداء أبدا ، لكى أتجنب عُسر الهضم. قفزت واقفا على قدمى ، لكننى لم أغادر حجرتى. كانت كاپيتو تضحك أقل وتتكلّم بنبرة خفيضة في تلك اللحظة ؛ ربما لانها استاعت من حبسى نفسى بعيدا عنها ، لكن حتى هذا لم يؤثر في.

لم أتناول عشاءً ونمت نوما مضطربا. في الصباح التالى لم أحس أننى تحسنت ، أحسست أننى مختلف، في تلك اللحظة ازداد غمى بالخوف من أن أكون مضيت إلى أبعد مما هو لائق دون أن أفكر في الأمر جيدا. رغم أن رأسى آلمنى قليلا ، تظاهرت بالإحساس بأننى أسوأ ، لكي أبقى في البيت فلا أذهب إلى المعهد الدينى ؛ لأذهب إلى وأتحدث مع كابيتو، ربما كانت غاضبة منى ، بل ربما لم تعد تحبنى ، وتُفضل الرجل الذي على ظهر الحصان، قررت أن أصفى كل شيء ، أن أسمعها وأحاكمها، ربما كان لديها دفاع وتفسير،

كان لديها كلاهما، عندما علمت مبررى لحبسى نفسى عنها فى اليوم السابق ، قالت لى أننى ظلمتها ظلما كبيرا، لم يكن بوسعها أن تصدق أننى بعد القسم الذى تبادلناه ، يمكن أن أعتبرها متقلبة إلى هذا الحد ، وأنه يمكننى أن أعتقد ... وهنا انفجرت باكية ، وأتت ببادرة فراق ؛ لكننى كنت إلى جانبها فى الحال، أمسكت بيديها وقبلتهما بعاطفة مفعمة وحرارة إلى حد أننى أحسست بهما ترتعشان، مسحت عينيها بأصابعها؛ قبلتهما مرة أخرى ، لذاتهما وإكراما للدموع. عندئذ تنهدت ،

وهزّت رأسها، اعترفت لى بأنها لا تعرف ذلك الشاب - ليس أكثر من الآخرين الذين كانوا يمرّون فى الأصائل ، على ظهور الخيل أو على الأقدام، وإذا كانت نظرت إليه ، فذلك فى حدّ ذاته دليل على أنه لم يكن هناك أى شيء بينهما ؛ ولو كان هناك ، لكان من الطبيعي أن يُظهرا غير ما سُطنان،

« ثم ماذا كان يمكن أن يكون هناك في الوقت الذي يوشك فيه على الزواج ؟ » بهذا اختتمت كلامها.

كان يوشك على الزواج ؛ وأخبرتنى ممن سيتزوج - فتاة فى شارع باربونوس، أسعدنى هذا السبب أكثر من أي من الأسباب الأخرى ، وأدركت هى ذلك فى إيماسى، رغم ذلك ، لم يمنعها هذا من القول أنها ، من أجل تجنّب أي سوء تفاهم آخر ، لن تنظر من النافذة بعد ذلك أبدا.

« لا ! لا ! لا ! أنا لا أطلب منك ذلك ! »

وافقت على سحب الوعد ، لكنها وعدت وعدا آخر ، وكان مؤدّاه أنه عند أوّل شكّ من جانبى سينتهى كلّ ما بيننا . قبلت التهديد ، وأقسمت على أنها لن تكون مضطرة إلى تنفيذه أبدا ؛ كان ذلك شكّى الأوّل والأخير .

## ٧٧- السعادة في الآلام القديمة

فى رواية تلك الأزمة فى حبّ مراهقتى ، أحسّ بشىء لا أدرى كيف أشرحه: بطريقة ما اكتسبت ألام تلك الفترة طابعا روحيا مع مضى الزمن إلى حد أنها ذابت واستحالت إلى سعادة. ليس هذا واضحا - لكن ليس كل شىء واضحا فى الحياة أو فى الكتب. والحقيقة أننى أحس بسعادة خاصة فى إعادة رواية هذه المحنة ، فى حين أنها تذكّرنى بمحن أخرى أرجو ألا أتذكّرها مقابل أى شىء كان.

# ۷۸-سیر پسیسر

حتى فى حينه أحسست بضرورة ما فى أن أروى لشخص ما ماكان يجرى بين كاپيتو وبينى، لم أرو القصة بكاملها ، بل جانبا منها فقط ، وكان إسكوبار هو الذى تلقّى سرى،

عندما عدتُ إلى المعهد الدينى يوم الأربعاء ، وجدتُه قلقا: قال لى أنه كان عقد عزمه على أن يذهب ليرانى لو بقيتُ بعيدا يوما آخر، سألنى بقلق مم كنتُ أعانى وما إذا كنتُ بخير تماما.

« أنا بخير »،

فيما كنتُ أجيب ، غاصتُ عيناه في عينيّ. بعد ذلك بثلاثة أيام قال لى أن الناس بدأوا يلاحظون شرود ذهنى ، وأن أفضل شيء هو أن أخفيه بقدر الإمكان، كان لديه ، بدوره ، أسباب ليكون شارد الذهن أيضا ، لكنه حاول أن يكون يقظا.

« هو ظاهر إذن؟ ... »

« نعم ، أحيانا لا يبدو أنك تسمع أيّ شيء ، وتكون أفكارك بعيدة في مكان ما . تظاهر ، يا سنتياجو »،

« عندى أسباب... »

« أصدَّقك؛ لا أحد يشرد عقله بلا سبب ».

« إسكوبار... » تردّدتُ؛ وانتظر هو،

«ماڈا؟»

« إسكوبار ، أنت صديقى؛ وأنا صديقك أيضا، هنا ، فى المعهد الدينى ، أنت الشخص الذى شقّ طريقه إلى داخل قلبي ؛ وفي الخارج ،

باستثناء أفراد أسرتى ، لا أملك ، إذا تكلمنا بالمعنى الدقيق للكلمة ، صديقا ».

« إذا قلتُ نفس الشيء ، » ردّ على قولى بابتسامة ، « سيفقد كلامي سحره ؛ سيبدو أننى أردّد ما تقول. لكن الحقيقة هي أنك صديقي الحميم الوحيد هنا، وأعتقد أن هذا ملحوظ ، لكن هذا لا يغيّر من الأمر شيئا بالنسبة لي ».

تأثّرتُ بشدّة ، أحسستُ بصوتى يندفع من حلقى: « إسكوبار ، أيمكنك أن تحافظ على سرّ؟ »

« أنت تسأل؟ إذن لابد أن لديك شكوكا ، وفي هذه الحالة ... »

« سامحنى ، كان ذلك طريقة فى الكلام. أنا أعرف أنك شخص جاد ، وأنا أعتبر ذلك أشبه ما يكون بالاعتراف لقسيس ».

« إذا كنت بحاجة إلى أن أجعلك في حلّ من الاعتراف ، فأنت في حلّ ».

« إسكوبار ، لا يمكننى أن أكون قسيسا، أنا هنا ، وأهلى يعتقدون ويتوقعون أننى سنأكون قسيسا ؛ لكن لا يمكننى أن أكون قسيسا ».

« ولا أنا ، يا سانتياجو».

« أنت أيضًا ؟ ».

« سرَّ بسرِّ، لا أنوى أن أكمل الدراسة أيضا، حُبَّى هوالتجارة ، لكن لا تقلُ شيئا – لا شيء على الإطلاق ، هذا بيننا فقط، وهذا لا يعنى أننى لست متديّنا، أنا متديّن ، لكن التجارة هي هوايتي ».

« هذا فقط ؟ ».

« ماذا أيضا يمكن أن يكون هناك؟ ».

أخذت أتمشى للحظة ثم همست بالكلمات الأولى لسرى - مترددة ، غير متميزة ، إلى حد أننى لم أسمعها أنا نفسى، أعرف ، مع ذلك ، أننى

قلتُ: «شخص ... » بتحفظ. شخص ؟ ... لم تكن به حاجة إلى أى شىء أكثر ليفهم. الشخص لابد أنه فتاة، ولا تتصوّر أنه اندهش باكتشاف أننى كنتُ أحبّ. وجد ذلك طبيعيا تماما ، ومرة أخرى غاصتُ عيناه في عيني. ثم رويتُ له أقصى ما أمكنني دون الدخول في تفاصيل ، لكنني أسهبتُ بحيث أسعد بإطالة التفكير في شُغلى الشاغل، أصغى إسكوبار باهتمام، في نهاية حديثنا طمأنني على أنه سرّ مدفون في جبّانة. نصحني بالا أكون قسيسا، لم يكن بوسعى أن أجلب إلى الكنيسة قلبا ينتمي إلى الأرض أكثر من السماء. سأكون قسيسا سيئا ، بل لن أكون قسيسا على الإطلاق، من جهة أخرى ، حمى الله المخلصين، ومادام بوسعى أن أخدمه في شؤون الدنيا فقط ، ينبغي لى أن أبقي هناك،

لا يمكنك أن تتصور السعادة التي منحها لي أن أفضى إليه بهذا، كان ذلك بالنسبة لي في الواقع قسطا إضافيا من سعادة غامرة، ذلك القلب الفتي ، مصغيا إلى ، متعاطفا معى ، منح هذه الدنيا مظهرا مدهشا. كانت دنيا عظيمة جميلة ، والحياة مغامرة رائعة ، وأنا لا أكثر ولا أقل من حبيب السماء: تلك كانت أحاسيسي، لاحظ أنني لم أقل له كل شيء ، ولا حتى الجانب الأفضل، لم أقص عليه الفصل الخاص بضفر الضفيرتين ، على سبيل المثال ، ولا الفصول الأخرى التي من هذا النوع ؛ لكن ما رويت له كان كثيرا جدا.

لا حاجة إلى القول أننا عُدنا إلى الموضوع، عُدنا مرارا، امتحت السجايا الخلفية لكابيتو كموضوع جدير بإعجاب تلميذ بالمعهد الدينى: سذاجتها الحلوة ، تواضعها ، مثابرتها ، وعاداتها الدينية، لم أقترب من مفاتنها الجسدية ، ولا هو سائلني عنها ؛ بالكاد لمحّت إلى ميزة معرفتها شخصيا.

« هذا مستحيل الآن مباشرة » ، قلتُ له ، في أوّل يوم اثنين بعد

عودتى من البيت ، « تعتزم كابيت أن تقضى أياما قليلة مع صديقة لها فى شارع إنقاليدوس. عندما تعود ستذهب أنت معى إلى البيت ؛ لكن يمكنك أن تأتى فى أى وقت. لماذا لم تتناول الغداء معى أمس؟ »

« لم تقم بدعوتی ».

« أتحتاج إلى دعوة ؟ كلهم ارتاحوا إليك ارتياحا شديدا في ستنا ».

« وأنا ارتحت ارتياحا شديدا إليهم جميعا ؛ لكنْ إذا كان لى أن أعبر عن تفضيل ، لابد أن أعترف بأن أمك ملاك »،

« أليست ملاكا حقا ؟ » أجبتُ بتلهُّف.

# ٧٩- لننتقل إلى الفصل

نعم ، أسعدنى أن أسمعه يقول ذلك. أنت تعرف ماذا كان رأيى فى أمى. حتى الآن ، وأنا أقطع هذه الجملة لأحدق فى صورتها على الحائط ، أجد تلك الصفة مطبوعة على وجهها، وليست هناك طريقة أخرى يمكن للمرء أن يفسر بها رأى إسكوبار ، ذلك أنه لم يكد يتبادل معها أربع كلمات، كلمة واحدة وحيدة كانت كافية للتغلغل فى أعماق جوهرها. نعم ، نعم ، كانت أمى ملائكية، ومع أنها كانت ترغمنى آنذاك على مهنة لم أردها ، لم يكن بوسعى أن أمنع الإحساس بأنها ملائكية ، قديسة.

وهلُ من المؤكد أنها كانت ترغمنى على مهنة كنسية ؟ هنا أصل إلى نقطة كنت تمنيت أن أعرضها فيما بعد - بل كنت أطيل التفكير في المكان الذي ينبغى أن أضع فيه الفصل. في الواقع ، لا ينبغى أن أروى الآن ما أعتقد أننى لم أكتشفه إلا بعد ذلك بكثير ؛ لكن ما دمت لمحت إلى

erted by fill Collidine - (110 stamps are applied by registered version)

هذه النقطة ، فالأفضل أن أنتهى منها . إنها نقطة خطيرة ومعقدة ، شائكة ودقيقة ، ينبغى فيها للمؤلف أن يلتفت إلى الطفل الذي كانه ، وللطفل أن يصغى إلى المؤلف ، بحيث يمكن لكليهما أن يقولا الحقيقة – لا شيء سوى الحقيقة ، بل والحقيقة كلها . من المناسب أيضا أن أشير هنا إلى أن النقطة موضوع الحديث هي على وجه التحديد ما يجعل القديسة قديسة أكثر ، دون تحامل (بالعكس تماما !) على جانبها البشرى والدنيوي . كفي تقديما للفصل لننتقل إلى الفصل.

### ٨٠-لندخيل القصيل

لندخلُ الفصل، كانت أمى تقية ورعة. أنت تعرف هذا ، وكذلك ممارساتها الدينية ، والإيمان الخالص الذى يلهم هذه الممارسات. كما أنك لا تجهل أن مهنتى الكنسية كانت موضوعا لنذر نذرته أمى عندما ولدتُ. كلّ شىء سبق سرده فى مكانه الصحيح. أنت تعرف أيضا أنها ، بقصد توثيق القيد المعنوى لالتزامها ، أفضتُ بمشاريعها ودوافعها لأقاربها ولاصدقاء الأسرة. النذر ، الذى نُذر بحماس حار ، وقبل برحمة ، حفظته أمى بابتهاج فى أعمق أعماق قلبها. وأنا أعتقد أننى عرفتُ طعم سعادتها الغامرة فى اللبن الذى رضعتُه من ثديها. والدى ، لوأنه عاش ، ربما كان بدل مشاريعها. ولأن نداءه كان السياسة ، فربما كان سيضع قدمى على بداية ذلك الطريق ، رغم أن المهنتين لم تكونا ، ولا تزالان ليستا ، متعارضتين – أكثر من قسيس دخل الصراع الحزبى وحكومة البشر. لكن أبى مات دون أن يعرف أي شيء عن الأمر ، وبقيتُ أمى مع العقد ، بوصفها المدينة الوحيدة.

يقرّر أحد الأقوال المأثورة لفرانكلين أن من كان عليه أن يدفع في

عيد الفصح ، يكون صومه الكبير قصيرا. لم يكن صومنا الكبير أطول من غيره ، ذلك أن أمى ، رغم أنها كانت جعلتنى أتعلم اللاتينية والدين ، بدأت تنوجل يوم دخولى المعهد الدينى. هذا هر ما يُسمَى ، بلغة التجارة ، « تمديد أجل دفع كمبيالة ». كان الدائن مليونيرا كبيرا ؛ لم يكن يعتمد على الدفع ليأكل ، وكان يوافق على التأجيلات حتى دون زيادة معدل الفائدة. لكن أحد الأصدقاء الذين كانوا وقعوا عى الكمبيالة تكلم ، ذات يوم ، عن ضرورة دفع المبلغ المنذور: ذلك مذكور في أحد الفصول الأولى. وافقت أمى وانسحبت أنا إلى سان چوزيه.

حينئذ ، في نفس ذلك الفصل ، ذرفت أمي بعض الدموع التي مسحتها بلا تفسير ، والتي لم يفهمها مطلقا أحد من أولئك الذين كانوا حاضرين ، لا الخال كوزمه ، ولا ابنة العم چوستينا ، ولا التابع چوزيه دياس. أما أنا ، الذي كنتُ وراء الباب ، فلم أفهم أكثر مما فهموا . عند إعادة الفحص (رغم السنين) ، يبدو أن الدموع كانت تعبّر عن إحساس يتوقع الوحدة ، وألم الفراق – وربما كان السبب أيضا (وهنا نأتي إلى النقطة) أنها ندمت على نذرها . بوصفها كاثوليكية وتقيّة ، كانت تعرف جيدا جدا أن الندور ينبغي الوفاء بها ؛ كان السؤال هو « هل من الحق والصواب الوفاء بها جميعا ؟ » كانت تميل بطبيعة الحال إلى الإجابة بالنفي . لماذا كان لابد أن يعاقبها الرب بحرمانها من ابن ثان ؟ ربما كانت مشيئة القوة المقدسة هي ألا تكون بي أي حاجة إلى تكريسه لخدمتها مئذ البداية . كان نوعا من الاستنتاج المتمهل ؛ لابد أنه جرى في اليوم الذي وكدتُ فيه على أي حال كان ذلك استنتاجا أوليا ، لكنْ غير مقنع بما فيه الكفاية لجعلها تنكث بنذرها : ظل كلّ شيء كما كان ، وذهبتُ أنا إلى المعهد الديني.

مجرّد إغفاءة من جانب الإيمان كان من شأنها أن تحلّ المشكلة

لصالحى ، لكن الإيمان ظلّ يقظا بعينين واسعتين مخلصتين. لوكان ذلك بمستطاعها لعقدت أمى مقايضة نُنور ، واهبة جانبا من سنى عمرها لتحتفظ بى معها ، خارج دائرة رجال الدين ، متزوّجا وأبا لأسرة. هذا ما أفترضه ، تماما كما أعتقد أنها رفضت الفكرة لأنها بدت لها غير أمينة. هكذا وجدتُها دائما في مجرى الحياة اليومية،

من ناحية أخرى ، سرعان ما خفّفت من تأثير غيابى مجاملات كاپيتو، التى كانت بدأت فى جعل نفسها شخصا لا غنى عنه، شيئا فشيئا اقتنعت أمى بأن هذه البنت ستسعدنى، ثم أخيرا الأمل فى أن الحبّ ، الذى جعلنى لا أطيق المعهد الدينى مطلقا ، سيجعلنى أرفض البقاء هناك لا فى سبيل الرب ولا فى سبيل الشيطان: هذا الأمل الحميم والخفى بدأ يغزو قلب أمى، فى هذه الحالة ، كان على أنا أن أفسخ العقد ؛ ولن يقع عليها أى لوم، بهذا تحتفظ بى دون أى إجراء ، منها شخصيا إن شئنا الدقة، كان أشبه ما يكون بإيداع المبلغ الكامل لدين عند شخص ما لتسليمه للدائن ، ثم جعل الحامل يحتفظ بالمال لنفسه فلا يسلم شيئا. وفى الحياة المعتادة ، لا يعفى إجراء يقوم به شخص ثالث الطرف المتعاقد من التزامه ؛ لكن ميزة عمل عقد مع السماء تكمن فى أن النية لها نفس القيمة التى للمال.

لابد الله النف المحرب بنزاعات مشابهة ، وإذا كنت متدينا ، فلابد الله سعيت من حين لآخر إلى عقد تسوية بين السماء والأرض بنفس الطريقة بالضبط ، أو بطريقة ما مشابهة في نهاية الأمر ، تتصالح السماء والأرض: إنهما تَوْأَم – فالسماء خُلقت في اليوم الثاني والأرض في الثالث مثل إبراهيم ، أخذت أمي ابنها إلى أرض المريا ؛ أكثر من هذا ، أحضرت الحطب لحرق الذبيحة ، والنار ، والسكين . ثم ربطت اسحق ووضعته فوق ربطة الحطب ، وأخذت السكين ، ورفعته عاليا . تماما

عندما كانت توشك على أن تهوى به ، سمعت صدوت الملاك يعلن باسم الرب: « لا تمد يدك إلى الغلام ، ولا تفعل به شيئا ، لأنى قد علمت الآن أنك خائف من الله ». لابد أن هذا كان الأمل الخفي لأمى.

كانت كاپيتو بطبيعة الحال ملاك الكتاب المقدّس، الحقيقة أن أمى لم تعد تطيق غيابها عنها، كان التعلّق المتزايد يتجلّى بطرق رائعة، انتهت كاپيتو إلى أن تغدو زهرة البيت ، شمس صباحه ، أنسام مسائه ، قمر ليله: هناك عاشت ساعات وساعات ، تُصغى وتتحدّث وتُغنّى، أصغت أمى إلى صوت قلبها ، وقرأت عينيها ، وكان اسمى بين المرأتين أشبه بكلمة سر الحياة الآتية.

## ۸۱-شیء قالتیه امی

الآن بعد أن قصصت ما اكتشفته في وقت لاحق ، يمكنني أن أروى شيئا قالته أمى. الآن ستفهم قولها يوم السبت عندما وصلت إلى البيت وعلمت أن كاييتو في شارع إنقاليدوس مع سينيازينيا چورچيل:

« لماذا لا تذهب وتراها ؟ ألم تقل لى أن والد سانشا طلب منك الذهاب إلى بيته ؟ ».

« نعم فعل »،

« حسنا إذن ، يعنى ، إذا رغبت كان من المتوقع أن تعود كاپيتو اليوم لتكمل عملا معى ؛ لابد أن صديقتها طلبت منها أن تبيت عندها ».

« ربما كانتا تغازلان أحد الشبان » ، لمحّت ابنة العم چوستينا غامزةً،

لم أقتلها لأنه لم يكن في متناولي سيف أو حبل ، مسدّس أو خنجر ؛ لكن العينين اللتين أدرتُهما إليها ، لو كان بمقدورهما أن تقتلا ، كان من

شانهما أن تقوما بعمل كل هذه الأشياء. أحد أخطاء العناية الإلهية أنها لم تترك للإنسان إلا ذراعيه وأسنانه كأسلحة للهجوم ، ورجليه كأسلحة للفرار أو الدفاع. ربما كان بوسع العينين أن تفيا بالغرض الأول. نظرة واحدة كانت ستكفى ليصد المرء أو يصرع عدوا أو غريما ، وكانت ستكفى لإنزال الانتقام الفورى ، بالإضافة إلى أن هاتين العينين القاتلتين ذاتهما كان بإمكانهما عندئذ ، لإزاحة العدالة من سبيلهما ، أن تنقلبا إلى عينين تثيران الرثاء فتبكيا الضحية، تهربت ابنة العم چوستينا منى ؛ وكنت أنا من لا يمكنه الهرب من تأثير تلميحها، ويوم الأحد ، في الساعة الحادية عشرة ، أسرعت إلى شارع إنقاليدوس.

استقبلنى والد سانشا ، بمظهر رث وحزينا . ابنته كانت مريضة: في اليوم السابق ، أصابتها حُمّى أخذت تزداد سوءً . لأنه كان شديد التعلق بابنته ، اعتقد أنه راها ميتة بالفعل وأبلغنى أنه سيقتل نفسه أيضا . إنه فصل كئيب كمقبرة – موت وانتحار واغتيال . اشتقت إلى شعاع من أشعة الشمس وسماء صافية . كانت كاپيتو هي التي أتت بهما معها إلى باب الحجرة بمجيئها لتقول لوالد سانشا أن ابنته تريده .

- « هل هي أسوأ ؟ » سأل چورچيل بفرع.
- « لا ، يا سنيور ، لكنها تريد أن تكلّمك ».
- « انتظرى هنا » ، قال لها ، ثم مستديرا إلى ، « هي ممرضة سانشا لن تكون لها ممرضة غيرها ، ساعود في الحال »،

بدت على كاپيتو علامات التعب والإجهاد ، لكنها بمجرد أن رأتنى انقلبت تماما عائدة إلى نفسها القديمة الساحرة ، نشيطة ومبتهجة ، مع غير قليل من الدهشة. لم تكد تصدق أنه أنا، تحدّثت معى ، وجعلتنى أتحدّث معها ، والواقع أننا تحادثنا عدة دقائق ، لكن بصوت خفيض ومكتوم إلى حد أنه لم يسمعنا حتى الجدران ، مع أن لها أذانا . فضلا عن

ذلك ، إذا كانت سمعت أيّ شيء ، فهي لم تفهم شيئا ، لا هي ولا قطع الأثاث ، التي كانت حزينة كصاحبها.

# ٨٧-الاريكة

بين كل قطع الأثاث ، الأريكة وحدها بدا أنها فهمت حالتنا الروحية ، ذلك أنها عرضت علينا خدمات قاعدتها الخيزرانية بمزيد من الإلحاح جعلنا قبلنا وجلسنا. وإلى هذه الفترة يرجع الرأى الخاص نوعا ما الذى أراه فى الأريكة: الألفة والذوق متحدان فيها ، وهى تعطى ، فكرة عن بيت بكامله دون أن يغادر المرء مطلقا حجرة الجلوس. يمكن لرجلين يجلسان عليها أن يناقشا مصير امبراطورية ، ولا مرأتين موضة فستان ؛ يمل وامرأة – فقط لانحراف يصيب القانون الطبيعي سيتحدثان عن أي شيء آخر غير نفسهما. هذا ما فعلنا ، كابيتو وأنا. أذكر على نحو غامض أنني سألتُها ما إذا كانت ستبقى هناك طويلا ...

« لا أدرى. بيدو أن الحمّي آخذة في الزوال ولكن ... »

كما أذكر أيضا ، على نحو غامض ، أننى فسرت زيارتى لشارع إنقاليدوس بالحقيقة المطلقة ، أيْ بأنها كانت اقتراح أمى.

« اقتراحها ؟ » غمغمت كاپيتو، ثم أضافت عيناها ، وهما تشعّان بائق نادر ، « سنكون سعيدين ! »

كرّرتُ الكلمات ، ببساطة بأصابعي ، بالضغط على أصابعها . الأريكة ، سواء رأتُ ذلك أم لم تر ، واصلتْ تقديم خدماتها لأيدينا المتشابكة ولرأسينا اللذين كانا يتكنان قريبين جدا ، متلامسين تقريبا .

## ٨٣- البورتريسه

عاد چررچيل إلى حجرة الجلوس وقال لكاپيتو أن ابنته تريدها. نهضتُ مسرعا، فقدتُ هدوئي وتماسكي وركّزتُ عيني على الأثاث، كاپيتو، على العكس ، نهضتُ بطريقة طبيعية وسألتُ عما إذا كانت الحُميّ أسوأ. « لا » ، أحاب،

لا قفزة فزع ، لا مظهر بدل على إخفاء سر من جانب كاپيتو، استدارت إلى ، طلبت منى أن أبلغ تحياتها لأمى ولابنة العم چوستينا ، وودعتنى مؤقتا، مدّت بدها إلى ، ثم خرجت إلى الصالة ، ولم أتمالك أن أحسدها، كيف أمكن لكاپيتو أن تسيطر على نفسها بكل تلك السهولة ، وأنا لا ؟

«سيدة صغيرة حقا! » لاحظ جورچيل ، وهو يتبعها بنظره أيضا. غمغمتُ «نعم »، حقا كانت كاپيتر تنمو بسرعة فائقة ، كان قوامها يكتسب منحنيات جديدة ، وصلابة جديدة ؛ وكذلك روحها أيضا، كانت امرأة من الداخل ومن الخارج ، امرأة من اليمين ومن اليسار ، امرأة من كل جانب ومن الرأس إلى القدم، كان هذا التبرعم أسرع الآن لأننى كنت أراها على فترات تفصل بينها أيام قليلة ؛ كلّ مرة آتى إلى البيت كنت أجدها أطول وأكثر أنوثة، كانت لعينيها نظرة متأملة جديدة ؛ ولفمها إثارة جديدة.

استدار چورچیل إلى حائط الحجرة حیث كان معلقا بورتریه لسیدة شابة وسائلني ما إذا كانت كاپیتو تشبه البورتریه.

كانت إحدى عادات حياتى أن أوافق دائما على أيّ رأى قد يكون للشخص الذى أتحادث معه ، طالما كان الأمر لا يثير اشمئزازى أو يقيدنى بالتزام. قبل أن أنظر لأرى ما إذا كانت كابيتو تشبه البورتريه حقا ،

بادرتُ وأجبتُ « نعم »، عندئذ أخبرنى أنه بورتريه زوجته ، وأن الأشخاص الذين كانوا يعرفونها قالوا نفس الشيء. هو أيضا كان يعتقد أن الملامح متشابهة ، خاصبة الجبهة والعينان. وفيما يتعلّق بطبعيهما ، كانا طبعًا وإحدا. مكنك أن تظن أنهما أختان.

« أضف إلى هذا الصداقة التى تكنّها لسانشينيا ؛ لم تكن أمها أقوى صداقة معها ... أحيانا ، في الحياة ، توجد هذه التشابهات الغربية ».

#### ۵۸- نسداء

فى الردهة وفى الشارع ، واصلتُ سؤال نفسى عما إذا كان ارتاب فى أى شىء فى الواقع ، لكننى حسمتُ بأنه لم يفعل وبدأت أنطلق فى سيرى. كنتُ مسرورا بالزيارة ، بابتهاج كاپيتو، بامتداحات چورچيل – كنتُ بالغ السرور إلى حد أننى لم أكترث فى الحال لصوت كان بنادينى.

« سنيور بنتينيو! سنيور بنتينيو! »

فقط بعد أن ارتفع الصوت أكثر وظهر صاحبه عند الباب ، وقفتُ ورأيتُ من هو وأين كنتُ أقف. كنت حينئذ في شارع ماتاكاڤايوس، كان المكان ودكان صيني ، فقيرا وبائسا ؛ كانت أبوابه مغلقة نصف إغلاق ، وكان الشخص الذي يناديني رجلا فقيرا ذا شعر رمادي غامق وكان يلبس ملابس بالية.

« سنیور بنتینیو » ، قال لی ، وکان یبکی ، « هل علمت أن ابنی ماندوکا مات ؟ »

« مات ؟ »

« مات منذ نصف ساعة ؛ سيتم دفنه غدا، أرسلت في الواقع كلمة إلى أمك وتعطّفت على بإرسال بعض الزهور لوضعها على التابوت. ابنى المسكين ! كان لابد أن يموت ، وكان الأفضل له أن يموت ، الولد المسكين ، لكنه رغم هذا يؤلم. الحياة التي عاشها ! ... منذ يوم فقط أو نحو ذلك ذكرك ، يا سنيور ، وسأل ما إذا كنت في المعهد الديني ... أتود أن تراه ؟ ادخل وانظر إليه ... »

من المؤلم أن أقر بهذا ، لكن من الأفضل أن أروى كثيرا من أن أروى قليلا، أردت أن أقول « لا » ، أننى لا أريد أن أرى ماندوكا ، بل أتيت بحركة لأولى الأدبار. لم يكن خوفا ؛ في مناسبة أخرى ربما كنت دخلت حتى بفضول متلهف ، لكننى في تلك اللحظة كنت بالغ القناعة ! أن أرى صبيا ميتا في طريق عودتي من لقاء غرامي ... هناك أشياء لا تتلاءم ولا تنسجم الخبر في حد داته أزعجني أفكارى الذهبية فقدت بريقها وتحول معدنها إلى رماد ، رماد قبيح قاتم ، ولم أعد قادرا على تمييز أي شيء أعتقد أننى نحجت في القول أننى في عجلة من أمرى ، لكن من المحتمل أننى لم أتكلم بكلمات واضحة ، ولا حتى بكلمات بشرية ، لكن من المحتمل أننى لم أتكلم بكلمات واضحة ، ولا حتى بكلمات بشرية ، لأنه ، فيما كان منحنيا عند المدخل ، فتح الطريق لي بإيماءة ، أما أنا ، لون شجاعة إما على الدخول أو على الفرار ، فتركت جسمى يفعل ما يشاء ودخل جسمى .

أنا لا ألوم الرجل: فيما يخصّه كان أهم شيء في تلك اللحظة هو ابنه، لا تلمنى أنا أيضا: فيما يخصّنى كان أهم شيء كاپيتو. كانت المشكلة أن الشيئين أتيا معا في نفس الأصيل ، وأن موت أحدهما أتي وحشر أنفه في حياة الآخر. في ذلك تكمن المشكلة برمتها. لو كنتُ مررتُ قبل ذلك أو في وقت لاحق ، أو لو كان ماندوكا انتظر ساعات قليلة ليموت ، لم يكن لنغمة غير سارة أن تأتى لتعترض ألحان روحي. لماذا يموت قبل

مرورى بنصف ساعة بالضبط ؟ أيّ ساعة ملائمة للرحيل عن هذه الحياة ؛ يمكن للمرء أن يموت ألطف موت لنَقُلُ في السادسة أو السابعة مساءً.

## ٨٥- الصبيّ الميت

كان هذا هو الإحساس المشوَّش الذى دخلتُ به دكان الصينى. كان الدكان معتما وكان الجزء الداخلى من البيت أقلَ ضوءًا حينتذ إلى حدَّ أن النوافذ المطلّة على الزقاق كانت مظلمة. رأيتُ الأم تبكى في زاوية في حجرة الطعام. على باب حجرة النوم ، كان هناك طفلان يحملقان إلى الداخل بدهشة مرتعبة ، بالإصبع في الفم. الجثة رقدتُ على الفراش.

لنضع قلمنا ونذهب إلى النافذة لننعش الذاكرة بنسمة هواء. في الحقيقة ، كانت الصورة قبيحة ، بالموت والصبى الميت ، الذى كان رهيبا ... أما هذه الصورة ، حولى هنا ، فهى شيء مختلف تماما ... كلّ ما أرى هنا يتنفس الحياة ، عنزة تمضغ بصوت مسموع إلى جانب عربة كارو، دجاجة تنقب بمنقارها في قانورات الطريق ، قطار من قطارات البرازيل سنترال يتحرّك لاهنا ، يصفّر ، يدخّن ، ويمر ، نخلة تهز شواشيها إلى السماء – أخيرا هناك برج الكنيسة ، وإنْ كان بلا عضلات ولا غصن مورق، والصبى الذى في الزقاق ، والذى يطلق طيارته الورق ، ليس ميتا ، لا يوشك على الموت ، وإن كان اسمه أيضا ماندوكا.

صحيح أن ماندوكا الآخر كان أكبر – أكبر قليلا، لابد أن ماندوكا الآخر كان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة ، لكن كان يمكنك بنفس السهولة أن تظن أنه في الخامسة عشرة أو الثانية والعشرين: وجهه لم يكن يكشف عن عمره ، كان بالأحرى يُخفيه في ثنيات ال ... هيا ، فَلْيُرُو كلُ

شىء! لقد مات ، وكل أقاربه ماتوا ، وإذا كان أحدهم لا يزال حيًا فإنه ليس شهيرا بما يكفى لينزعج أو يتألم، فَلْيرُو كلَّ شيء: عانى ماندوكا من مرض قاس ، لا أقل من الجذام، في الحياة كان قبيحا ؛ في الموت بدا رهيبا، عندمًا رأيتُه ممدّدا على الفراش ، جسمه الذي يدعو الرثاء والذي كان من قبل جارى ، ارتعبتُ ، وأدرتُ عينيٌ بعيدا، لا أدرى أيّ يد خفية دفعتنى دفعا إلى النظر مرة أخرى ، حتى بصورة عابرة ، استسلمتُ ، نظرتُ ، ظللتُ أنظر ، إلى أن تقهقرتُ تماما وغادرتُ الحجرة.

« لقد تألم! » تنهد الأب.

« ماندوكاً الصغير البائس! » انتحبتُ الأم.

همّى الوحيد كان أن أبتعد: قلتُ لهما أنهم يتوقّعوننى فى البيت ، واستودعتُهما الله، سالنى الأب ما إذا كنتُ سأتعطف عليهم بالذهاب إلى الجنازة، أجبتُ بصدق بأننى لا أدرى ، بأننى سأتصرف حسبما تقرّر أمى، وغادرتُ بسرعة ، ومررتُ عبر الدكان ، وقفزتُ إلى الشارع،

# ٨٦- أحبثوا ، أيها الأولاد !

كان المكان قريبا جدا إلى حد أننى في غضون ثلاث دقائق وجدت نفسى داخل البيت. توقفت في الصالة الانقط أنفاسى، كنت أحاول أن أنسى الصبى الميت وامتقاع اللون والتشوه ، والباقى الذي لم أروه حتى لا أعطى مظهرا بشعا لهذه الصفحات ، لكن يمكنك أن تتصور، محوث كل ذلك من ناظرى في ثوان قلائل: كل ما كنت بحاجة إليه هوأن أفكر في ذلك البيت الآخر ، وبالأحرى في حياة كابيتو ووجهها الفاتن الناضر ... أحبوا ، أيها الأولاد ! وفي المحل الأول البنات الجريئات الجميلات، عندهن دواء للأمراض ، عبير يجعل رائحة منتنة تعبق بالعبير ؛ وبدلا من الموت منحنك الحياة ... أحبوا ، أيها الأولاد ، أحبوا !

## ٨٧- الكاريتـــة

عندما وصلت إلى درجة السلّم العليا ، دخلت فكرة دماغى كأنما كانت تنتظرنى وراء الحاجز الحديدى للبوابة. سمعت من الذاكرة كلمات والد ماندوكا وهو يطلب منى الذهاب إلى الجنازة فى اليوم التالى. وقفت ساكنا على درجة السلّم. فكرت لحظة، نعم ، يمكننى أن أذهب إلى الجنازة ؛ سأطلب من أمى أن تستأجر لى عربة ...

لا تتصور أنها كانت الرغبة في ركوب عربة ، مهما كانت السعادة التي كان يمكن أن أجنيها من القيام برحلة في عربة. عندما كنت صبيا صعفيرا ، أذكر أنني اعتدت أن أقوم برحلات كهذه مرارا ، مع أمى للقيام بزيارات ودية أو رسمية ، وإلى القداس إن كانت السماء تُمطر، كانت كاريتة قديمة لأبى احتفظت بها أمى لأطول مدة كانت بإمكانها. الحوذي ، الذي كان عبدا من عبيدنا ، والذي كان عجوزا مثل الكاريتة ، كان يجدني على الباب، لابسا أحسن ملابسي، منتظرا أمى، وكان يقول ضاحكا:

« چوان العجوز سيقود العربة للسيد الصغير! »

و كان من النادر ألا أعطيه هذه التوصية: « چوان، تذكّر أن تكبح جماح البغلين، سر ببطء ... »

« نياً \*جلوريا لا ترغب في أن أفعل ذلك ». "دعُهما بسير إن بيطء على أيّ حال!"

<sup>\*</sup> نِيًا ، nhà . نُطق زنجى لكلمة سنيورة - المترجم.

أنت تفهم ، كان ذلك الأستمتع بلذّة الرحلة في الكاريثة ، ليس من التباهي ، لأن أولئك الذين بالخارج لا بمكنهم أن يرول المرء. كانت

أجل التباهى ، لأن أولئك الذين بالخارج لا يمكنهم أن يروا المرء. كانت كاريتة قديمة عتيقة الطراز بعجلتين ، قصيرة وضيقة ، بستارتين من الجلد فى الأمام يمكن سحبهما إلى الجانبين عندما يخرج المرء أو يدخل. وكان فى كل ستارة ثقب زجاجى كنت أحب أن أختلس النظر من خلاله.

« اجلس هادئا ، يا بنتينيو! »

« دعيني أختلس النظر ، يا ماما ! »

وعندما كنتُ أصغر ، اعتدتُ أن أقف ووجهى قبالة الزجاج فأرى الحوذى ببُوته الضخم ، يمتطى منفرج الساقيْن البغل الأيسر قابضا على لجام البغل الأيمن؛ في يده سوط ثقيل طويل. كلّ شيء كان مزعجا البُوت ، السوط ، البغلان – لكنه كان يستمتع بذلك وأنا أيضا على كل من الجانبيْن ، كنتُ أرى البيوت تمرّ ، بعضها بدكاكين ، مفتوحة أو مغلقة ، بأشخاص أو بدونهم ، وفي الشارع كان الناس يأتون ويذهبون أو يعبرون أمام الكاريتة ، بخطى واسعة أو بخطوات متبخترة عندما كان الأشخاص أو الحيوانات يعترضون الطريق ، كانت الكاريتة تتوقف ، وحينئذ كان أو الحيوانات يعترضون الطريق ، كانت الكاريتة تتوقف ، وحينئذ كان المشهد يغدو مثيرا بوجه خاص: الأشخاص الواقفون على الرصيف أو في المداخل كانوا يحملقون في الكاريتة ويتحادثون فيما بينهم ، بطبيعة الحال عمن بداخل الكاريتة ، وعندما كبرت كان يدور بخيالي أنهم يعرفون ويقولون ، « إنها تلك السيدة التي من شارع ماتا كاڤايُّوس ، التي لها ابن ، بنتينيو ... »

كانت الكاريتة منسجمة تماما مع طريقة أمى المعتزلة فى الحياة إلى حد أنه عندما لم تعد هناك كاريتة أخرى من نوعها ، واصلنا الركوب فيها ، وكانت معروفة على طول شارعنا وفى الحي باسم « الكاريتة القديمة ». أخيرا وافقت أمى على التخلّى عنها، لم تَبِعُها فى الحال مع

ذلك ، ولم تفترق عنها إلا لأن نفقات الإسطبل أجبرتها على أن تفترق. كان السبب وراء احتفاظها بها ( رغم أنها غدت عديمة الفائدة ) عاطفيًا على وجه الحصر: كانت ذكرى من زوجها . كلّ شيء كان ينتمي إلى أبى تم الاحتفاظ به كقطعة منه ، كأثر من شخصه ، من روحه الطاهر والنقي ذاته . لكن العادة كانت أيضا ابنة روح المحافظة التي كانت تسلّم بها لأصدقائها . كانت أمى نموذجا طيبا الوفاء العادات القديمة ، التقاليد القديمة ، الأساليب العتيقة . كان لديها متحفها من التذكارات: أمشاط بلا أسنان ، خرقة من شال ، بعض القطع النقدية النحاسية يرجع تاريخها إلى ١٨٢٤ وه ١٨٨ ، ولأن كل شيء لابدً له من أن يغدو قديما ، حاولت أن تجعل نفسها قديمة ، لكنني سبق أن ذكرت أنها فيما يتعلق بهذه النقطة لم تحقّق رغبتها تماما ،

#### ٨٨- ذريعة مشرفة

لا ، لم تأت فكرة الذهاب إلى الجنازة من ذكرى العربة ومفاتنها. كان الأصل شيئا آخر غير ذلك: كان ذلك لأننى ، إنْ ذهبتُ إلى الجنازة في اليوم التالى ، لم أكن سأذهب إلى المعهد الدينى وكان سيمكننى القيام بزيارة أخرى لكاپيتو، زيارة أكثر امتدادا. ها أنتُ عرفت. ربما جات ذكرى العربة كشىء إضافى ، في وقت لاحق ، لكن السبب المباشر ، الرئيسى ، هو السبب الآخر. كان بإمكانى أن أعود إلى شارع إنقاليدوس بذريعة الاستفسار عن سينيازينيا چورچيل. كنتُ أتأمّل كل شيء بحضرنى كما حدث فى ذلك اليوم: چورچيل بالغ القلق ، كاپيتو معى على الأريكة ، أيدينا متشابكة ، تضفير الضفيرتين ...

« أنا داهب لأسال ماما ».

فتحتُ البوابة، قبل أن أمرٌ عبرها ، تماماً كما كنتُ سمعتُ من الذاكرة كلمات والد الصبى الميت ، سمعتُ حينئذ كلمات أمه ، وكرّرتُ برقّة: « ماندوكا الصغير المسكين! »

## ٨٩- الرفيض

ارتبكت أمى عندما طلبت منها أن أذهب إلى الجنازة،

« احسر يوما في المعهد الديني ... »

لفت نظرها إلى الصداقة التى كان يكنّها لى ماندوكا ، ثم إنهم ناس بؤساء ... قدّمت كل المبرّدات التى استطعت التفكير فيها، عبرت ابنة العم چوستينا عن رأي بالسلب،

« أنت لا تعتقدين أنه ينبغي أن يذهب؟ » سألت أمي،

« لا ، لا أعتقد، أيّ صداقة هذه التي لم أسمع بها أبدا ؟ »

انتصرت ابنة العم، عندما حكيت الحكاية للتابع ، ابتسم وقال أن الدافع الخفى لابنة عمى ربما كان حرمان الجنازة من « بريق حضورى »، مهما كان من شيء ، ظللت غاضبا. في اليوم التالى ، عندما أنعمت التفكير في دافعها ، لم يُثِرُ استيائى؛ وفيما بعد ، أحسست فيه بلذة ما .

#### ٩٠-المناظيرة

فى اليوم التالى ، مررتُ ببيت الصبى الميت دون أن أدخل ، أو حتى أتوقّف — أو إنْ كنتُ توقفتُ فلحظة فقط هى أقصر أيضا من تلك التى يستغرقها إخبارك بها. إن لم أكن مخطئا ، سرتُ حتى بسرعة أكبر ، خائفا من أن يُنادوا على كما حدث فى اليوم السابق. أما وأننى لم

أكن ذاهبا إلى الجنازة ، كان من الأفضل أن أظلٌ بعيدا بأقصى

ما يمكن، ظللتُ أمشى وأفكر فى الشخص البائس.

لم نكن صديقين ، كما أننا لم نعرف بعضنا لفترة طويلة جدا،
الألفة – أىّ ألفة كان بإمكانها أن تكون بين مرضه وصحتى ؟ استمتعنا
بعلاقات قصيرة وغير وثيقة، فكرت فيها وأنا ماض فى طريقى ، وبدأتُ
أتذكر بعضها، تمخضت كلها عن مناظرة واحدة بيننا ، قبل ذلك بسنتين ،
بخصوص ،،، من الصعوبة بمكان أن تصدق بخصوص ماذا كنت. كانت

عاش ماندوكا في المساكن القدرة وراء الدكان ، ممدّدا على الفراش ، يقرأ لتزكية الوقت. يوم الأحد ، قُرْب الأصيل كان أبوه يلبسه قميص نوم داكن ويحمله إلى الجزء الخلفي من الدكان. من هناك كان يختلس النظر إلى الخارج بعرض شبر واحد من الشارع ويرى الناس يمرّون. كانت تلك فسحته الوحيدة. وهناك رأيتُه مرة ، وأحسستُ بغير قليل من الفزع. كان المرض بدأ يلتهم جانبا من لحمه؛ وكانت أصابعه متآكلة، لم يكن مظهره جذّابا بالتأكيد. كنتُ في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرى. في المرة الثانية التي رأيتُه فيها هناك ، تكلّمنا عن حرب القرم ، التي كانت أنذاك في ذروتها وفي كل الصحف. قال ماندوكا أن الطفاء سينتصرون حتما ، وأنا قلتُ « لا ».

« حسنا ، سنرى » ، أجاب. « فقط إذا لم ينتصر العدل في هذا العالم - وهذا مستحيل - ذلك أن العدل في جانب الحلفاء »،

« لا ، يا سنيور ، الحقّ في جانب الروس ».

بطبيعة الحال ، كُنّا نهتدى بما كان يقال فى صحف المدينة ، والتى كانت بدورها تحذو حذو الصحف الأجنبية ، لكن من الجائز أيضا أن كلاّ منا كان يعتنق الرأى الذى يتفق مع مزاجه، كنتُ دائما موسكوڤيا

rerted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نوعا ما فى أفكارى، دافعت عن موقف روسيا، فعل ماندوكا نفس الشىء مع الحلفاء، وفى ثالث يوم أحد دخلت فيه الدكان مسسنا الموضوع مرة أخرى، عندئذ اقترح ماندوكا أن نتبادل المناقشات مكتوبة؛ ويوم الثلاثاء أو الأربعاء تلقيت فَرْخَيْن من الورق يحتريان عرضا ودفاعا عن موقف الحلفاء ووحدة وسلامة أراضى تركيا ، وينتهيان بهذه العبارة النبوئية: « الروس لن يدخلوا القسطنطينية! »

قرأتُ رأيه وشرعتُ في دحضه، لا أتذكر حجة واحدة وحيدة من الحجج التي استخدمتُها ، وربما لا تكون هناك أيّ أهمية لمعرفتها الآن والقرن يوشك أن ينتهي؛ لكن ما أذكره عنها هو أنها كانت مُفحمة. أخذتُ له ورقتى بنفسى، أدخلوني إلى حجرة النوم ، حيث كان يرقد ممدّدا على الفراش ، نصف مغطَّى بلحاف مرقِّع، إمَّا ولعي بالسباجلات وإما شيء آخر لا أستطيع أن أضع إصبعي عليه ، منعني من الإحساس بكل تلك الرائحة التي تعافها النفس والتي كانت تنبعث من الفراش ومن الصبي المريض؛ وكانت السعادة التي أعطيته الورقة بها صادقة. ومع أن وجه مأندوكا كان مثيرا للاشمئزان ، كانت الابتسامة التي أنارتُه تموَّه قبحه للادي، أما الثقة التي أخذ بها الورقة منى وقال أنه سيقرأها وبردّ عليها ، فهي شيء لا يمكن لأيّ كلمات في لغتنا ، ولا في أيّ لغة ، أن تصفه بحقيقته الكاملة. لم تكن ثقة مزهرة ، ولا صاخبة ، وكانت بلا إشارات (كما أن المرض لم يكن ليسمح بها)؛ كانت استمتاعا بسيطا ، مهيبا ، عميقا ، مطلقا ، بالنصر ، قبل معرفة حُججي، كان لديه فعلا الورق والقلم والحبر إلى جوار فراشه. بعد ذلك بأيام قليلة تلقيتُ ردّه. لا أذكر ما إذا كان اشتمل على أيّ جديد أم لا؛ كان ما ازداد هو الحرارة ، وكانت النهاية كما هي: « الروس لن يدخلوا القسطنطينية! » رددت عليه ، ومن تلك اللحظة فصاعدا تواصيل ليعض الوقت

verted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version

سجال ملتهب لم يستسلم فيه أيّ منا ، دافع كل منا عن موكليه بقدوة وحرارة . كان ماندوكا أكثر منى إسهابا وفوريّة. بطبيعة الحال ، كان لدى ألف شيء آخر يلهيني – المدرسة ، التسليات ، الأسرة ، وصحتى المتينة ذاتها ، والتي كانت تدعوني إلى ممارسات أخرى. باستثناء عُرْض شبر من الشارع في أصائل أيام الأحد ، لم يكن لماندوكا سوى هذه الحرب ، التي كانت حديث المدينة والعالم – لكن لا أحد أتى لمناقشتها معه. المصادفة منحته خصما في شخصي. كان لديه ميل إلى الكتابة فألقى بنفسه في الجدال وكأنه علاج جديد وجذرى. الساعات الطويلة الحزينة صارت عندئذ قصيرة وسعيدة ، عيناه نسيتا كيف تبكيان إن كانتا بكتا حقا من قبل. أدركتُ هذا التبدّل فيه من سلوك أبيه وأمه.

« أنت لا تتصور كيف حاله منذ أخذت تكتب إليه تلك الأوراق ، يا سنيور » ، قال صاحب الدكان ذات يوم ، عند باب الشارع . « أصبح يتحد ويضحك دائما . بمجرد أن أبعث بكاتب الدكان ليأخذ إليك أوراقه ، يبدأ في السؤال عن الرد وما إذا كان سيتأخر في المجيء وما إذا كنت سأسأل عبدكم الصبي عندما يمر . وبينما ينتظر ، يعيد قراءة الصحف ويسجل ملاحظات . لكنه بالمقابل ، في الدقيقة التي يتلقي فيها أوراقك ، يتقض عليها ، ويقرأها ، ويبدأ في الحال في كتابة رد . هناك أوقات لا يأكل فيها ، أو يأكل القليل جدا . في الواقع ، أود أن أطلب شيئا واحدا منك ، أعنى ألا ترسل الأوراق إليه في وقت الإفطار أو الغداء ... » كنت أول من تعب . بدأت أتباطأ في ردودي إلى أن كففت في نهاية الأمر عن أي ردود على الإطلاق . ظل مثابرا مرتين أوثلاث مرات بعد صمتى ، لكن عندما لم يتلق أي خلاف من أي نوع فإنه بدوره ، إما من الضجر وإما لئلا يزعجني ، وضع حدًا لدفاعات . وأكد دفاعه الأخير ، مثل الضجر وإما لئلا يزعجني ، وضع حدًا لدفاعات . وأكد دفاعه الأخير ، مثل الخول ، مثل دفاعات كلها ، نفس النه عة الأبدية:

« الروس ان يدخلوا القسطنطينية! »

والواقع أنهم لم يدخلوا ، لا فى ذلك الوقت ، ولا فى وقت لاحق ، ولا حتى الآن. لكن هل ستكون النبوءة أبدية ؟ ألن ينجحوا فى الدخول ذات يوم ؟ مشكلة صعبة. ماندوكا ذاته ، ليدخل القبر ، قضى ثلاث سنوات فى التحلّل ، أكيد كذلك أن الطبيعة ، مثل التاريخ ، لا تمضى بلا اكتراث، مثل تركيا قاومت حياته. إذا كانت استسلمت أخيرا فذلك لأنه كان يفتقر إلى حليف مثل الأنجلوفرنسى – فالمرء لا يمكنه أن يعتبر كذلك مجرد التالف بين الطب والصيدلة. مات أخيرا ، كما تموت الدول، وفى حالتنا الخاصة ليست المسألة ما إذا كانت تركيا ستموت ، لأن الموت لا يبقى على أحد ، بل ما إذا كان الروس سيدخلون القسطنطينية ذات يوم: كانت تلك هى المسألة عند جارى المجذوم تحت لحافه المرقع ، يوم: كانت تلك هى المسألة عند جارى المجذوم تحت لحافه المرقع ، الحزين ، المزق ، القدر...

# ٩١- اكتشاف ينطوي على عزاء

من الجلى أن التأملات التى سجلتُها لتوى لم تجر فى ذلك الحين ، فى طريقى إلى المعهد الدينى ، بل الآن ، فى مكتبى فى إنچنيو نوڤو، فى ذلك الحين ، لم يَدُر فى ذهنى أى تأمل ، إلاّ إذا كان هذا: أننى جلبتُ العزاء ذات يوم لجارى ماندوكا ، واليوم ، عندما أنعم التفكير ، أجد أننى لم أجلب له العزاء فقط ، بل حتى السعادة ، وهذا الاكتشاف يعزينى؛ ومن الآن فصاعدا لن أنسى أبدا أننى منحت شهرين أو ثلاثة من السعادة لشخص بائس ، فجعلتُه ينسى ألمه وكل الباقى ، سيعنى هذا شيئا ما فى تصفية حسابات حياتى ، إذا كان هناك ، فى العالم الآخر ، جزاء أو آخر على المآثر غير المقصودة ، فسوف تعوض هذه المآثرة عن واحدة أو

اثنتين من خطاياى الكثيرة. فيما يخص ماندوكا ، لا أعتقد أنه ارتكب خطيئة بالتعبير عن رأى ضد روسيا ، لكن إذا كان ذلك خطيئة ، فهو ظل يكفّر أربعين سنة في المطهر ، عن السعادة التي نعم بها على مدى شهرين أو ثلاثة. ومن هذا سوف يستنتج (بعد فوات الأوان) أنه ربما كان من الأفضل أن يكتفى بالأنين المتواصل ، دون أن يعبر عن أي رأى على الإطلاق.

# ٩٢ – الشيطان ليس شديد السواد كما يرسمونه

دُفن ماندوكا بدونى، حدث هذا لكثيرين غيره دون أن أشعر بذلك كثيرا بطريقة أو أخرى ، لكن هذه الحالة أحزنتنى بوجه خاص السبب الذى سبق ذكره، كذلك أحسست بانقباض فى النفس عندما تذكّرت المناظرة الأولى فى حياتى ، السعادة التى كان يتلقّى بها أوراقى ويعتزم الردّ عليها – دون أخذ مُتعة العربة فى الاعتبار ... لكن سرعان ما أطفأ الزمن كل تلك التطلّعات والصبوات الحزينة، كما أن الأمر لم يقتصر عليه؛ أتى شخصان لعونه: كاپيتو، التى نام معى طيفها تلك الليلة ، وأخر سأحكى حكايته فى الفصل التالى، وستقتصر بقية هذا الفصل على أن أتضر ع – إذا كان لشخص ما أن يقرأ كتابى باهتمام أكثر إلى حدّ ما مما يدعو إليه ثمن النسخة – ألاّ يعجز عن استنتاج أن الشيطان ليس شديد السواد كما يرسمونه، أقصد ...

أقصد أن جارى فى شارع ماتاكاڤايوس ، بتخفيفه لألمه بالرأى المعادى للروس ، منح لحمه المهترىء تأمّلا روحيا جلب له العزاء. هناك ألوان أعظم من العزاء ، دون شك ، وأحد أروعها ألا يعانى المرء هذا المرض أو أيّ مرض غيره ، لكن الطبيعة سامية فى عليائها إلى حدّ أنها

تُسلّى نفسها بمثل هذه التناقضات ، ثم تتقدّم إلى الأكثر نتانة وبؤسا برهرة وربما على هذا النحوتكتسب الزهرة جمالها، ويدّعى البستانى الذي يعمل عندى أن البنفسيج ، ليكتسب عبيرا أقوى ، يحتاج إلى سماد الخنزير الم أستقص ، لكن لابد أن ذلك صحيح.

## ٩٣- صديق عوضاً عن صبي ميت

أما الشخص الآخر ذو القوة الماحقة فكان زميلي في الدراسة إسكوبار ، الذي أتى إلى ماتاكاڤايوس في ضنعي ذلك الأحد، هكذا عوض صديق عن صبى ميت ، وكان حميم الصداقة إلى حد أنه وقف لمدة خمس دقائق تقريبا ويدى في يده ، وكانه لم يرنى شهورا.

« هالاً تناولت الغداء معى ، يا إسكوبار؟ »

« ذلك ما جئت من أجله ».

شكرتُه أمى على الصداقة التى يكنّها لى ، وردّ بأدب شديد ، وإنْ بتردّد إلى حدّ ما ، كأنه افتقر إلى لسان طيّع. سبق لك أن علمت أن هذا لم يكن كذلك؛ كان لسانه يُطيعه – لكن الإنسان ليس دائما نفس الإنسان في كل اللحظات، كان ما قاله ، باختصار ، هو أنه يقدّرني لسجاياي الحميدة والتربية المهذّبة ، كانوا كلهم يحبّونني في المعهد الديني ، وأضاف أن الأمر لم يكن من المكن أن يكون إلاّ كذلك. أكدّ على التربية ، والقدوة الحسنة ، « الأم الحلوة والثمينة » التي منحتُها السماء لى ... كلّ هذا بصوت مبحوح ، مرتعش.

كانوا كلهم سعداء به، أما أنا فكنتُ سعيدا وكأن إسكوبار من اختراعى الخاص، أطلق چوزيه دياس تحية باستخدام اثنتين من صييغ التفضيل العُليا ، والخال كوزمه « مَرْسَيْن » ، ولم تجد ابنة العم چوستينا

شيئا تكتشف فيه عيبا - فيما بعد ، نعم ، فى الأحد الثانى أو الثالث ، أشارت إلى أن صديقى إسكوبار فضولى بعض الشيء وله عينا رجل شرطة لا يفوتهما شيء.

- « إنهما عيناه هي » ، شرحتُ أنا .
- « لا أقول أنهما عينا أيّ شخص آخر ».
- « إنهما عينان متأملتان » ، كان رأى الخال كوزمه.
- « لا شك في ذلك » ، قاطع چوزيه دياس ، « وإنْ كانت السنيورة دونا چوستينا قد تكون محقة جزئيا ، الحقيقة أن إحدى الصفتين لا تتعارض مع الأخرى ، والتأمل كثيرا ما يقترن بالفضول الطبيعي . هو يبدو محبًا للاستطلاع ، نعم ، هو يبدو كذلك ، لكن … »
  - « إنه يبدو لي صبيا جادا جدا » ، قالت أمي.
  - « بالضبط! » أعلن جوزيه دياس ، لكي لا يختلف معها ،

عندما قلت لإسكوبار رأى أمى فيه (دون أن أذكر رأى الآخرين ، طبعا) ، لاحظتُ أن ابتهاجه لم يعرف حدودا . شكرنى ، قائلا أنها رقيقة القلب للغاية ، وبدوره امتدح أمى – سيدة وقورة ، وممتازة ، وشابة ، شابة جدا جدا ... كم يمكن أن يكون عمرها ؟

« أوه ، فوق الأربعين » ، أجبتُ بإبهام ، مزهوًا .

« مستحيل! » صاح إسكوبار، « الأربعين! لا يبدو عليها حتى أنها في الثلاثين ، شابة جدا وجميلة. ولا عجب! كان لابد لك من أن تشبه شخصا ما بهاتين العينين اللتين وهبك الرب إياهما! إنهما مثل عينيها بالضبط. هل ترمّلتُ منذ سنين طويلة ؟ »

قلتُ له ما كنتُ أعرف عن حياتها وحياة أبى، أصغى إسكوبار بانتباه شديد ، ووجّه مزيدا من الأسئلة عن النواحى التى قفزتُ عليها أو تركتُها غامضة. عندما قلتُ أننى لا أذكر أيّ شيء عن الريف لأننى تركتُه وأنا صغير جدا ، حكى حادثتين أو ثلاثا من عامه الثالث كانتا لا تزالان حينين في ذاكرته. ثم أليس لدينا مشروع للعودة إلى الريف ؟

« لا ، لن نعود الآن مطلقا. انظر ، ذلك الرجل الملوّن هناك من الريف. توماس! »

« سٹیور! »

كُنّا في حديقة المطبخ ، وكان الزنجى ينهمك في عمله، أتى إلى حيث كُنّا وانتظر.

- « هو متزوّج » ، قلتُ لإسكوبار. « أين ماريا ؟ »
  - « تطحن الذرة ، نعم ، يا سنيور ».
  - « لا تزال تذكر المزرعة ، يا توماس ؟ »
    - « أذكر ، نعم ، يا سنيور ».
    - « طيب ، يمكنك أن تذهب »،

أشرتُ إلى آخر وآخر ثم آخر: « هذا پدرو، ذلك چوزيه ، ذلك الآخر دميان ... »

« كل حروف الهجاء » ، قاطع إسكوبار.

كانت ، في الواقع ، حروفا مختلفة ، ولم ألاحظ ذلك إلا في تلك اللحظة. أشرت إلى عبيد آخرين أيضا ، بعضهم بنفس الأسماء لكنها تتميّز بكُنية مأخوذة إما من مظهرهم مثل چوان الأصفر ، ماريا السمينة ، أو من بلدهم مثل يدرو بنجويلا\* ، أنطونيو موزامبيق ...

« وهل هم كلهم هنا في البيت ؟ » سأل.

« لا ، بعضهم فى الخارج يكسبون المال فى الشوارع ، وأخرون يستأجرهم الغير، لن يكون من المكن أن نحتفظ بهم كلهم فى البيت، ثم

<sup>\*</sup> بنجويلا Benguela مدينة في أنجولا ، على المحيط الأطلنطى - المترجم.

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن هؤلاء ليسوا كلّ من كانوا بالمزرعة. أغلبهم ظلّوا هناك ».

« ما يدهشنى هو أن دونا جلوريا استطاعت أن تألف الحياة فى بيت فى المدينة ، حيث كل شىء صغير وضيق للغاية؛ البيت الذى هناك فى الريف ريما كان واسعا جدا ».

« لا أعرف ، لكننى أتصور ذلك. ماما تملك بيوتا أخرى أوسع من هذا. لكنها تقول أنها ستموت هنا. البيوت الأخرى مؤجّرة. منها بيوت واسعة جدا ، مثل البيت الذى في شارع كيتاندا ... »

« أنا أعرف ذلك البيت؛ إنه رائع جدا ».

« تملك أيضا بيتا في ريوكومبريدو، في سيداده - نوڤا ، وبيتا في كاتّبته ... »

« لن ينقصها مأوى » ، أنهى كلامه بابتسامة ودودة.

سرنا ناحية الجزء الخلفى، عندما وصلنا إلى مكان الفسيل ، توقف لحظة وحدّق فى كتلة الحجر التى تنظف عليها الملابس ، وأبدى بعض الملاحظات بخصوص التنظيف؛ ثم مضينا. ماذا كانت الملاحظات لا أذكر الآن.أذكر فقط أننى وجدتُها بارعة فضحكت؛ وضحك هو أيضا، ابتهاجى أيقظ ابتهاجه ، وكانت السماء شديدة الزرقة ، والجو شديد الصفاء ، إلى حدّ أن الطبيعة ذاتها بدا أنها تضحك معنا، تلك هى الحال ، مع الساعات السعيدة لهذا العالم، لاحظ إسكوبار هذا التطابق للانسجام الداخلى مع الخارجى بكلمات رائعة مثيرة إلى حدّ أننى تأثّرت؛ ثم - بصدد الجمال المعنوى الذى يمتزج مع المادى - تكلّم مرة أخرى عن أمى ، ووصفها بأنها «ملاك مزدوج ».

## ٩٤- أفكار حسابية

لن أروى كل شيء ، سيكون ذلك أكثر مما ينبغى. لم يكن يعرف فقط كيف يمتدح ويفكر ، كان يعرف أيضا كيف يحسب بسرعة ودقة. كان أحد العقول الحسابية الهولزية (٢+٢ = ٤)،

لا يمكنك أن تتصور السهولة التى كان يجمع أو يضرب بها فى رأسه. القسمة ، التى كانت دائما إحدى أصعب العمليات بالنسبة لى ، كانت لا شىء تقريبا بالنسبة له. كان يغمض عينيه نصف إغماض ، يديرهما إلى أعلى ، يغمغم بأسماء الأرقام – ويعطيك النتيجة ! وهذا مع أعداد تصل إلى سبعة ، ثلاثة عشر ، عشرين، كانت موهبته فى ذلك فجعلته يعشق مجرد رموز المقادير ذاتها؛ وكان من رأيه أن الأرقام من صفر إلى تسعة هى ، لقلتها ، أروع بكثير من حروف الهجاء الستة والعشرين.

« هناك حروف عديمة الفائدة وحروف يمكن الاستغناء عنها » ، كان يقول. « أيّ وظيفة مستقلّة يؤديها d وd ؟ الواقع أن لهما نفس الصوت. نفس الشيء ينطبق على Po b وp. ونفس الشيء على S وC وS وp. ونفس الشيء على S وg وS وp. ونفس الشيء على S وg وS الشيء على الشيء على المخ. إنها تفاهات كتابية. ثم انظر إلى الأرقام الأساسية: ليس هناك رقمان يؤديان نفس الوظيفة: ٤ هو٤ ، و٧ هو٧. ثم تأمّل الجمال الذي يكون به ٤ و٧ هذا الشيء الذي يُرمز له ب١٠ . والآن ضاعف ١١ يكون لديك ٢٢ . اضربه في نفسه ، النتيجة ٤٨٤ ، وهكذا . لكن ضاعف ١١ يكون عند استعمال الصفر . قيمة الصفر في حد ذاته ، هي لا شيء؛ لكن ما وظيفة هذا الرمز السالب ؟ — المضاعفة ! ه بمفرده هو مجرد ٥؛ ضع » . « معه ، يكون لديك . . ٥ . وهكذا ، ما ليس له أيّ قيمة يصنع قيمة كبيرة ، وهذا شيء لا تقوم به الحروف المضعفة ،

لأن عبارة I approve ( أنا أوافق ) هي هي بحرف p واحد أو بحرفي p ...

لأننى تربيّتُ على حروف هجاء أجدادى ، آلمنى أن أسمع مثل تلك المهرطقات ، لكننى لم أغامر بتغنيدها. مع ذلك ، ذات يوم ، قدّمتُ كلمات دفاع قليلة ، ردّ عليها بأن ذلك تحامل ، وأضاف أن الأفكار الحسابية يمكن أن تتواصل إلى ما لا نهاية ، مع ميزة أنها أسهل في التناول. وعلى هذا النحوام أكن قادرا على أن أحلّ ، في نفس المكان والزمان ، مشكلة فلسفية أو لغوية ، بينما كان بإمكانه أن يحسب ، في غضون ثلاث دقائق ، أيّ مقادير.

« مثلا ... أعطنى حالة ، أعطنى مجموعة من الأعداد التى لا أعرفها ولا يمكننى أن أعرفها سلفا ... انظر ، أعطنى قائمة ببيوت والدتك وإيجار كل بيت ، فإذا لم أقل لك المبلغ الإجمالي في دقيقتين ، في دقيقة واحدة ، اشنقنى ! »

قبلتُ الرّهان ، وفي الأسبوع التالي ، أحضرتُ له ورقة عليها قائمة الإيجارات. أخذ إسكربار الورقة ، جرى بعينيه على الأرقام ليسجلها في ذاكرته ، وبينما كنتُ أنظر إلى ساعتى أدار ناظريه إلى أعلى ، وأرخى جفنيه ، وغمغم ... أوه ! الريح ليست أسرع ! قال وفعل؛ في غضون نصف دقيقة صاح بي:

« المبلغ الإجمالي هو١٠٧٠ ميلريس شهريا »،

ذُهلتُ، خُذُ في اعتبارك أنه كان هناك ما لا يقل عن تسعة بيوت وأن الإيجارات تنوّعت من بيت إلى آخر فتراوحت بين - ٧٠ ميلريس و١٨٠. كلّ ذلك الذي كان سيستغرق منى ثلاث أو أربع دقائق - بالقلم والورق - حسبه إسكوبار بلا اهتمام ، في رأسه.

نظر إلى بزهو وسألنى ما إذا كان الرقم صحيحا، فقط لأبرهن أنه

صحيح ، أخرجتُ من جيبى قصاصة ورق عليها المبلغ الإجمالي ، وأطلعتُه عليها؛ كان نفس الرقم بالضبط ، بدون خطأ واحد: ١٠٧٠.

« هذا يُثبت أن الأفكار الرياضية أبسط ، ولذلك أكثر طبيعية. الطبيعة بسيطة، الفن تقيل ».

كنتُ بالغ الحماس بشأن المقدرة آلذهنية لصديقى إلى درجة أننى لم أتمالك نفسى من معانقته. كان ذلك فى الفناء؛ لاحظ تلاميذ آخرون بالمعهد الدينى إسرافنا فى التعبير عن مشاعرنا؛ ولم يوافق عليه مدرس قسيس كان معهم.

« التواضع » ، قال لنا ، « لا يشجّع هذه البوادر المسرفة، يمكنكما إظهار الاحترام ليعضكما ، لكن باعتدال ».

قال لى إسكوبار معلقا أن الآخرين والقسيس تكلّموا بدافع الحسد واقترح أن نظلٌ متباعدين. قاطعتُه وقلتُ « لا » ، إن كان الحسد ، فإن وضعهم أسوأ كثيرا.

« سنن دُبهم! »

« لكن ... »

« لنكن أشد صداقة من أي وقت مضى ».

أمسك إسكوبار على نحو مختلس بيدى بقوة إلى حد أننى لا أزال أشعر بوخز فى أصابعى، هذا الوخز وهم ، بالتأكيد ، إنْ لم يكن نتيجة الساعات الطويلة التى ظللتُ أكتب فيها دون توقّف، لنضع القلم جانبا لحظات قليلة ...

أصبحت صداقة إسكوبار عظيمة ومثمرة؛ إلى حدّ أن چوزيه دياس فض أن يتلكأ وراءها . في نهاية ذلك الأسبوع ، قال لى ، في البيت:

« أصبح الآن من المؤكد أنك ستترك المعهد الديني قريبا »،

« ماذا ؟ »

« انتظر إلى الغد. يجب أن ألعب الورق؛ لقد أرسلوا في طلبى. فداً ، في حجرتك ، أو في الحديقة ، أو في الشارع في الطريق إلى لقداس ، ساحكي لك الحكاية. الفكرة سامية إلى حد أنها لن تكون في فير محلها في مذبح الكنيسة ذاته، غداً ، يا بنتينيو ».

« لكن هل هو مؤكد فعلا؟ »،

« مؤكّد تماما! »

فى اليوم التالى أفضى إلى بالسرّ، للوهلة الأولى ، انبهرت بالفكرة ، أعترف، كانت تحمل سمة مهابة وروحانية خاطبت نظرة تلميذ المعهد الدينى فيّ، كان شيئا لا يقل عن هذا: أمى ، فيما بدا له ، ندمت على ما فعلت وأرادت أن ترانى في عالم البشر ، لكنها أدركت أن القيد المعنوى لنذرها ربطها ربطا وثيقا، سيكون من الضرورى فسخُه: من أجل هذا هناك الكتاب المقدس الذي منح سلطة الإعفاء من تبعة للحواريين، وهكذا سنسافر هو وأنا إلى روما لنطلب الإعفاء من البابا ... كيف يبدو لى ذلك؟

« يبدولى على ما يرام » ، أجبتُ بعد ثوان قليلة من التفكير. « ربما كان ذلك مخرجا جيدا ».

« هو المخرج الوحيد ، يا بنتينيو، المخرج الوحيد ! سادهب في الحال ، اليوم ، وأتحدّث مع دونا جلوريا ، وأشرح لها الفكرة بأكملها ،

ويمكننا أن نسافر في غضون شهرين ، أو قبل ذلك ... »

« من الأفضل أن تكلّمها يوم الأحد القادم، دعنى أفكر جيدا أو "لا...»

« أوه ! بنتينيو! » قاطع التابع، « تُفكّر جيدا في ماذا ؟ ما تريده ... هل أقول لك ؟ ألن تغضب من صديقك العجوز دياس ؟ ما تريده هو أن تستشير شخصا بعينه ».

إذا شئنا الدقّة ، كانا شخصين ، كاپيتو وإسكوبار ، لكننى أنكرت تماما أننى أردت أن أستشير أحدا، ثم أيّ شخص ، رئيس المعهد الدينى؟ لم يكن من المحتمل أن أفضى إليه بمثل هذا الأمر. لا ، ليس رئيس المعهد الدينى ، ولا أحد المدرسين ، ولا أيّ شخص - وقت للتفكير فقط ، أسبوع ، يوم الأحد يمكننى أن أقول ردّى ، وكان بإمكانى أن أقول له في الحال أنها لا تبدو فكرة سيئاة.

« 5 2 »

« k ».

« إذن دعنا نحسم الأمر اليوم ».

« لا يسافر المرء إلى روما وهو يتقافز بلا مبالاة ».

« الذى يملك لسانا يسافر إلى روما ، واللسان في حالتنا هو النقود، حسنا ، يمكنك أن تتحمّل إنفاق شيء ما على نفسك ... ليس على أنا: بنطلونان ، وقميصان ، وخبزى اليومى ، هذا كل ما أحتاج إليه. ساكون مثل القديس بولس ، الذى عاش من تجارته فيما كان يطوف مبشرا بالكلمة المقدّسة. حسنا، أنا لن أذهب لأبشر بها بل لأبحث عنها. سنأخذ رسائل من السفير البابوى و الأسقف ، رسائل إلى سفيرنا، رسائل من الرهبان الكبوشيين ... والأسقف ، رسائل إلى سفيرنا، رسائل من الرهبان الكبوشيين ... أعرف جيدا الاعتراض الذى يمكن توجيهه إلى هذه الفكرة: سيقولون أننا يمكن أن نطلب الإعفاء من هنا. لكن بالإضافة إلى كل

erted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما يمكننى قوله ، يكفى أن نفكر مليًا فى أنه أكثر رزانة ولياقبة بكثير لذلك الشخص الذى هو نفسه موضوع الرعاية ، اللاوى المنفور به والذى يأتى ليتوسل الإعفاء من الرب بالنيابة عن أمه الأعظم حنانا والأعظم دماثة ، أن يدخل القاتيكان ، ويجثر عند قدمى البابا. تأملُ فى الصورة: أنت مُقبّلا قدم أمير الرسُّل؛ وقداستُه ، بابتسامة روحانية ، ينحنى ، ويستجوب ، ويسمع ، ويُعفى ، ويبارك الملائكة تطلّ ، والعذراء تُوصى ابنها الأقدس بأن تتحقق كل أمنياتك ، يا بنتينيو، وأن يكون كل ما تحبه أنت على الأرض محبوبا كذلك فى السماء ... »

لن أروى أكثر من ذلك لأن على أن أختم فصلى ، أما هو فلم يختم خطبته. خاطب كل مشاعرى ككاثوليكى وعاشق، رأيت روح أمى مرتاحا ، وقلب كاپيتو مبتهجا ، وكلاهما فى بيتنا ، وأنا معهما ، وهو معنا ، نفكر جميعا فى رحلة صغيرة إلى روما ... كنت أعرف من الناحية الجغرافية فقط أين هى ؛ ومن الناحية الروحية أيضا؛ لكن المسافة التى ربما فصلتها عن رغبة كاپيتو – ذلك ما لم أكن أعرف. تلك هى النقطة الجوهرية. إذا وجدتها كاپيتو بعيدة ، لن أسافر؛ لكن كان من الضرورى سماع رأيها ، وكذلك رأى إسكوبار ، الذى كان من المؤكد أنه سيقدم إلى النصيحة الجيدة.

#### ۹۳-بدیسل

أبلغت كاپيتو فكرة چوزيه دياس، أصغت بانتباه ، ثم انقلبت مزينة.

« ستذهب بعيدا. أوروبا ، فيما يُقال ، جميلة ، خاصةً إيطاليا. أليس من هناك تأتى مغنيات السموبرانو ؟ ستسمالني ، يا بنتينيو.

ثم أليست هناك طريقة أخرى ؟ دونا جلوريا تتحرّق شوقا لتجعلك تترك المعهد الديني ».

« نعم ، لكنها تعتبر أنها ملزمة بنذرها ».

لم يكن بوسع كاپيتو أن تفكر في أيّ خطة أخرى ولم يكن بوسعها أن تحمل نفسها على تبنّي هذه الخطة. في الوقت ذاته ، توسلت إلى ، إنْ أنا ذهبت إلى روما ، أن أحلف أننى سأعود بعد ستة أشهر.

« أحلف على ذلك »،

« بالرب؟ »

« بالرب ، بكل شيء. أحلف أننى سأعود في غضون ستة أشهر ».

« لكن إذا لم يكن البابا أعفاك بعد ؟ ».

« سأرسل كلمة بهذا المعنى »،

« وإذا كذبت ؟ »

هذه الكلمة جرحتنى جرحا عميقا ، وعجزت عن التفكير فى رد فى تلك اللحظة . حرائها كاپيتر إلى نكتة ، وضحكت ، ووصفتنى بالكلب الخبيث . ثم أعلنت تصديقها أننى سأفى بقسمى ؛ لكنها رغم ذلك لم تعطنى موافقتها: سترى ما إذا لم تكن هناك طريقة ما أخرى ، وأنا أيضا ينبغى أن أحاول التفكير فى شىء ما آخر.

عندما عدت ألى المعهد الديني ، قلت كل شيء لصديقي إسكوبار ، الذي سمعنى بانتباه مماثل وأخيرا بنفس حزن كاپيتو. عيناه ، اللتان لا تستقران عادة ، التهمتاني تقريبا بحدّتهما. فجأة ، رأيت وجه يُنيره ضوء باهر ، هو انعكاس لفكرة ، وسمعتُه يقول في سيل من الكلمات:

« لا ، يا بنتينيو ، ليس ذلك ضروريها . هنهاك شهه ، أفضل – لا ينبغى أن أقول أفضل ، لأن الأب المقدّس أعظم دائما من أيّ شيء أخر – لكن هناك شيئا سيحدث نفس الأثر »،

« ما هو؟ ».

« والدتك نذرت نذرًا للرب بأن تعطيه قسيسا ، أليس هذا صحيحا ؟ حسنا إذن ، دعها تعطيه قسيسا ، طالما كان غيرك. يمكنها بسهولة أن تأخذ صبيا ما يتيما ، وتجعله يُرْسَم قسيسا على نفقتها؛ يكون تم إعطاء قسيس ، دون كونك ... »

« فهمتُها ، فهمتُها ، إنه نفس الشيء! ».

« ألا تعتقد ذلك ؟ » وإصبل هو. « اسبألُ الأمين عن ذلك، سيقول لك ما إذا لم يكن نفس الشيء ، أو سائستشيره بنفسي إن شبئت؛ فإذا تردّد ، يمكننا أن نكلّم مولانا الأسقف ».

كنتُ أنعم التفكير: « نعم ، يبدو أن هذا هو الردّ. لأن النذر سيكون تمّ الوفاء به ، فعلا ، إذا تم تقديم قسيّس ».

لاحظ إسكوبار ، من الناحية الاقتصادية ، أن المسألة بسيطة: أمى ستنفق عليه نفس المبلغ الذي كانت ستنفقه على ، وأن يحتاج يتيم إلى رفاهيات كبرى ... وذكر مبلغ الإيجارات من البيوت ، ١٠٧٠ ميلريس ، فضلا عن العبيد ...

« هوالشيء الوحيد » ، قلتُ أنا .

« وسنترك المعهد الديني معا ».

« أنت أيضا ؟ »

« أنا أيضا، أعتزم أن أحسن لاتينيتى ثم أغادر، لن أزعج نفسى باللاهوت، حتى اللاتينية ليست ضرورية. فيم يفيد ، في التجسارة ؟ » قلتُ ضاحكا: « In hoc signo vinces »:

أحسستُ بالمرح والظرف. أوه ! كم يضفى الأمل البهجة على كل

<sup>\*</sup> باللاتينية في الأصل: « ستنتصر بهذه الراية » والمقصود:

<sup>«</sup> سنتغلّب على الصعاب » — المترجم.

شىء! ابتسم إسكوبار وكأنه استمتع بملاحظتى، ثم غرقنا كلانا فى حلم يقظتنا ، وأعيننا تحملق بعيدا. كانت عيناه لا تزالان كذلك عندما عدت أنا إلى الواقع ، ومرة أخرى شكرتُه على الخطة التى دبرها؛ لم يكن من المكن أن تكون هناك خطة أفضل، أصغى إسكوبار برضا.

« مرة أخرى » ، قال بوقار ، « يغنو الدين والحرية رفيقين مرحين ».

#### ٩٧ - فيك الحصار

تم كل شيء على هذه الأسس، ترددت أمى قليلا ، لكنها استسلمت أخيرا بعد أن قام الأب كابرال باستشارة الأسقف وعاد بكلمة « نعم » ، هذا يمكن عمله، تركت للعهد الديني في نهاية السنة.

كنتُ حينئذ أكثر قليلا من سبعة عشر عاما ... هنا بالضبط لابد أننا في منتصف كتابي تماما ، لكن قلة الخبرة جعلتني أتلكا وراء قلمي ، وأنا أصل تقريبا إلى نهاية مخزوني من الورق ، مع أن أفضل ما في القصة لم يُرو بعد ، والآن لم يعد هناك مخرج سوى جرها ورائي جرا بخطي واسعة ، فصلا على فصل ، باقل تصحيح ، وأقل تفكير ، واختصار كل شيء . وبالفعل ، هذه الصفحة ستقوم مقام شهور ، واختصار كل شيء . وبالفعل ، هذه الصفحة ستقوم مقام شهور ، وصفحات أخرى مقام سنين ، وهكذا سنصل إلى النهاية . إحدى التضحيات التي أقوم بها أمام هذه الضرورة الصارمة هي تحليل مشاعري في سن السابعة عشرة ، لا أدرى هل سبق لك أن كنت في السابعة عشرة ذات يوم ، إنْ كنت ، لابد أنك تدرك أنه عُمر يكون فيه نصف رجل ونصف طفل كُلاً واحداً محباً للاستطلاع . كنت كُلاً هو الانكثر حبًا للاستطلاع . كنت كُلاً هو الانكثر حبًا للاستطلاع . كنت كُلاً هو يكن

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليُعتبر مخطئا جدا، ماذا فعلت بى هذه الصفة بصيغة التفضيل العليا ، لا يمكننى أبدا أن أروى ذلك هنا دون أن أقع فى الخطأ سبق أن شجبته ؛ ومع ذلك فإن تحليل مشاعرى فى تلك الفترة يدخل فعلا فى خطتى. ورغم أننى ابن المعهد الدينى وابن أمى ، كنت بدأت أشعر فعلا تحت تحفظى العفيف بارتعاشات الوقاحة والجسارة ، نَبَعتا من الدم لكن أيضا من الفتيات اللائى ، سواء فى الشارع أو من نوافذهن ، لم يتركننى فى حالى، وَجَدْننى وسيما وقُلْنَ لى ذلك، وأرادت بعضهن أن يُعجبن بجمال طلعتى من مسافة أقرب ، والغرور بداية للفساد.

#### ۹۸- خمس سنوات

انتصر العقل؛ تقدّمتُ في المدرسة. مرّ عيد ميلادي الثامن عشر، وعيد ميلادي التاسع عشر، والعشرون، والحادي والعشرون، وفي الثانية والعشرين من عمري كنتُ حاملا ليسانس الحقوق.

كلّ شيء حولى تغيّر، أمي عقدت عزمها على أن تصبح عجوزا ؛ رغم ذلك ، أتت الشعرات البيضاء ضنينة ، قليلة وبينها مسافات؛ الكاب والفستان والحذاء البسيط الذي لا يُحدث ضوضاء ظلّت كما كانت في الأيام الخوالي. لم تعد تذهب وتجيء كثيرا جدا. الخال كوزمه عاني من قلبه ، وكان عليه أن يستريح، ابنة العم چوستينا صارت أكبر فحسب. چوزيه دياس أيضا ، لكنه لم يكن عجوزا جدا بحيث لا يقوم بمجاملة حضور تخرُجي ، والعودة هابطا من الجبل معي – مرحاً ومتحمسا كأنه هو حامل الليسانس. والدة كاپيتر كانت ماتت ؛ ووالدها كان تقاعد من نفس المنصب الذي سبق أن شغله في الفترة التي رغب فيها أن يأخذ إجازة من الحياة.

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إسكوبار كان يبدأ التجارة في البنّ ، بعد العمل أربع سنوات في واحدة من أفضل شركات ريو دي چانيرو. كانت ابنة العم چوستينا هي صاحبة رأى مفاده أنه داعبته فكرة دعوة أمي إلى زواج ثان. لكن سواء أكانت لديه أم لم تكن فكرة كهذه ، لا ينبغي أن ينسي المرء الفارق الكبير في العمر، ريما كان يفكر فقط في إشراكها في مشاريعه التجارية الأولى؛ والواقع أن أمي ، بناءً على طلبي ، قدّمت إليه بعض الأموال ، التي سندها حالما استطاع ، ليس بدون هذه السخرية: « دونا جلوريا فأرة جبانة ولا طموح لديها ».

لم يؤد الفراق إلى فتور صداقتنا. كان وسيطا في تبادل الرسائل بين كابيتو وبيني، منذ اللحظة التي رآها فيها ، شجّعني في حبّنا ، والعلاقات التجارية التي دخلها مع والد سانشا وتُقتْ تلك التي سبق أن أقامها مع كابيتو ، وجعلتُه يخدمنا كلينا كصديق. في البداية ، كان من الصعب بالنسبة لها أن تقبل به ، كانت تفضل چوزيه دياس ، لكن چوزيه دياس كان غير مقبول من جانبي بسبب بقية رهبة طفولية، انتصر دياس كان غير مقبول من جانبي بسبب بقية رهبة طفولية، انتصر إسكوبار؛ ورغم غيظها ، سلّمتْه كابيتو رسالتها الأولى ، التي كانت أم وجدّة بقية رسائلها، حتى بعد أن تزوّج لم يُوقف هذه الخدمة الكريمة ... نعم ، تزوّج – حزّد ممن ؟ تزوّج من سانشا الرقيقة ، صديقة كابيتو وكانت أختاً لها تقريبا ، كانت كذلك إلى حدّ أنه اعتبرها ذات مرة وهو يكتب إلى « أخت زوجته الصغيرة »، هكذا تتكوّن العواطف والروابط الأسرية ، المغامرات والكتسب.

## ٩٩-الابن صورة أبيسه

انفجرت أمى سعادة تقريبا عندما جئت إلى البيت حاملا ليسانس الحقوق. لا أزال إلى الآن أسمع صوت چوزيه دياس يذكرنا بإنجيل القديس يوحنا ، ويقول وهويرانا نتعانق ، «يا امرأة ، هوذا ابنك ! يا بنى ، هوذا أمك ! ».

ثم أمى ، بين دموعها: « أخى كوزمه ، هو صورة أبيه ، أليس كذلك؟ ».

« نعم ، هناك شيء ما ، العينان ، شكل الوجه. هو أبوه ، فقط عصرى أكثر قليلا » ، ختم ، مثل نكتة. « ثمّ قولى لى الآن ، يا أختى ، ألم يكن من الأفضل له ألا يحاول أن يصبح قسيسا ؟ هل يمكنك أن تتصورى أن هذا الشاب المتأنق يصلح قسيسا جيدا ؟ »

« كيف حال بديلي؟ »

« يتقدّم، سيرُسم قسيسا في السنة القادمة » ، ردّ الخال كوزمه « ينبغى أن تذهب وتراه وهم يرسمونه قسيسا، أنا أيضا ، إذا وافق < السنيور القلب >، سيكون شيئا طيبا بالنسبة لك أن تلتمس نفسك في روح الآخر ، كأنك أنت نفسك تتلقّى الرّسامة ».

« هكذا بالضبط! » صاحت أمى، « لكن انظر إليه نظرة متفحصة ، يا أخى كوزمه ، انظر لترى ما إذا لم يكن صورة المرحوم الغالى، انظر فى هذا الاتجاه ، يا بنتينيو، انظر إلى اعتقدت دائما أننى لاحظت تشابها ؛ هو الآن أكبر كثيرا، الشارب يفسده قليلا ... »

« نعم ، يا أختى جلوريا ، الشارب ، في الواقع ... لكنه شبيه به الغاية ».

قبَّلْتُني أمي بحنان لا أعرف كيف أصوغه في كلمات، الخال كوزمه

rerted by THI Combine - (no stamps are applied by registered version)

- لإدخال البهجة على نفسها - لقبنى به « الدكتور » ، چوزيه دياس أيضا ، وكل شخص حول البيت ، ابنة العم ، العبيد ، الزُّوَّار ، پادُوا ، ابنته ، وهي نفسها ، ظلّوا يرددون اللقب.

## ۱۰۰- « ستکون سعیدا ، یا بنتینیو! »

بعد أن أفرغت صندوق ملابسى ، فى حجرتى أنا ، وأخرجت شهادة الليسانس من حافظتها ، انطلقت خواطرى إلى السعادة والمجد. رأيت زواجى ومهنة لامعة ، بينما كان چوزيه دياس يساعدنى ، بحماس وفى صمت. هبطت جنيّة غير مرئية رويدا رويدا فى تلك الحجرة وقالت لى بصوت رقيق وحكيم فى أن معا ، « ستكون سعيدا ، يا بنتينيو؛ ستكون سعيدا قريبا ».

« ولماذا لا تكون سعيدا ؟ » سأل چوزيه دياس وهو يعتدل واقفا ويحملق فيّ.

- « أنتَ سمعت ؟ » سالتُه ، ناهضا أيضا من دهشتي.
  - « سمعتُ ماذا ؟ ه
  - « سمعت صوتا قال أنني سأكون سعيدا! »
    - « إنه ملاك! أنتُ نفسك الذي قلت ... »

حتى الآن يمكننى أن أحلف أن الصوت كان صوت جنية. من المحتمل أن الجنيات ، بعد طردهن خارج الحكايات والأشعار ، اتخذن متامهن فى قلوب الناس ويتكلّمن بوضوح من هناك فى الداخل. هذه الجنيّة ، مثلا – سمعتُها مرارا ، بوضوح وتمييز. لابد أنها ابنة عم الساحرات الاسكتلنديات: « ستكون ملكا؛ يا ماكبث ! » – « ستكون سعيدا ، يا بنتينيو ! » رغم كل شىء ، هى نفس النبوءة ، بذات

الإيقاع ، الذي هو كوني فخالد، عندما أفقت من دهشتي ، سمعت يقية

كلام چوزيه دياس ...
« ... ستكون سعيدا ، كما تستحقّ ، كما كنت تستحقّ تلك الشهادة مناك ، وهي ليست منة من أحد، والتفوق الذي حققته في كافة مقرّراتك دليل على ذلك. سبق أن قلت لك أنني سمعت بنفسي أسمى مدح من شفاه أساتذتك. إلى جانب هذا ، السعادة ليست المجد وحده ، هي أيضا شيء ما غير ذلك. أه ، لَمْ تُفْضِ بكل شيء لصديقك العجوز چوزيه دياس! العجوز البائس چوزيه دياس ألقي به جانبا مثل برتقالة ممصوصة ، هو لم يعد يصلح لشيء ؛ الآن جاء دور الأصدقاء الجدد ، آل إسكوبار ... لا أنكر أنه شاب ممتاز جدا ، ومثابر ، وزوج مثالي ؛ لكن رغم كل شيء الرجل العجوز يعرف كيف يحب أيضا ... »

« عمّ تتحدّث ؟ »

« ماذا يمكن أن يكون ؟ مَنْ الذى لا يعرف كل شيء عنه ؟ ... ألفة الجيرة تلك كان لابد أن تنتهى إلى هذا ، وهذا في الحقيقة نعمة من السماء ، لأنها ملاك ، الأمسلاك ... معذرة لصياغة الكلمة بالنّحت ، يا بنتينيو ، كانت وسيلة لإبراز كمال تلك السيدة الصغيرة. اعتقدت العكس تماما في الأيام الخوالي، حسبت الأساليب الصبيانية تعبيرات عن الشخصية ، ولم أر أن تلك البنت الصغيرة المشاكسة ذات العينين الحالمتين كانت الزهرة النزقة لثمرة حلوة وطيبة ... لماذا لم تقل لي أنا أيضا ما يعرفه الآخرون ، وهو هنا في البيت أكثر من مجرد تخمين ، وموافق عليه ؟ »

« هل ماما توافق فعلا ؟ »

« حقا ؟ تكلّمنا عن هذا وشرفتنى بسؤالى عن رأيى. اسالها عما قلتُه لها ، وبعبارات لا لبس فيها. اسالها فقط.. قلتُ لها أنه ليس بوسعها verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تتمنّى زوجة ابن أفضل منها — رقيقة ، عاقلة ، موهوبة ، صديقة الأسرتنا ... ربّة بيت ممتازة ، وهذا أقلّ من نصف مزاياها. بعد موت أمها ، تكفّلت بمسؤولية كل شيء. پادوا ، الآن بعد أن أحيل إلى المعاش ، لا يقوم إلّا بتلقى شيك المعاش وتسليمه لابنته. الابنة هى التى تقسم النقود ، تدفع الفواتير. تُمسك حساب المصاريف ، تعتنى بكل شيء ، الطعام ، الكساء ، النور — أنت نفسك رأيتها تقوم بكل هذا فى السنة الماضية. وفيما يخص جمالها أنت تعرف عنه أكثر من أيّ شخص ... »

« لكن ، هل استشارتك أمى ، حقا ، بخصوص زواجنا ؟ »

« فى الواقع ، لا. هى تكرّمتْ بسؤالى عما إذا كانت كاپيتو ستكون نوجة صالحة، كنتُ أنا الذى تكلّمتُ ، فى إجابتى ، عن نوجات الأبناء. ومنا جلوريا لم تعترض ، بل بدا أنها ابتسمتْ ».

« كلّ مرة كتبت فيها ماما إلى ذكرت كابيتو ».

« أنت تعرف كم تعشقان بعضهما ، وهذا هوالسبب في أن ابنة عمك تزداد وجوما وتجهمًا. ويبدو الآن أنها ستتزوج قريبا جدا ».

« ابنة العم چستينا ؟ »

« ألم تعرف ؟ من المحتمل أنه مجرد قيل وقال؛ لكن ، حسنا ، الدكتور چوان داكوستا فقد زوجته منذ أشهر قليلة ، ويُقال ( في الواقع لا أعرف أي شيء عن الموضوع – الأمين هو الذي أخبرني ) ، يُقال أن الاثنين نصف ميّالين إلى أن يضعا نهاية لترملهما فيما بينهما ، بالزواج، أغلب الظن أن الأمر بسيط ، لكنه ليس خارج حدود الإمكان ، رغم أنها كانت تقول دائما أن الدكتور جلد على عَظْم ... فقط – إذا كانت هي مقبرة – » علّق ضاحكا؛ ثمّ بجديّة ، « قلت ذلك كنكتة ... »

لم أسمع الباقى، سمعت فقط صبوت جنّيتى الداخلية ، التي ظلّت تردّد لى ، لكنْ الآن بلا كلمات: « ستكون سعيدا ، يا بنتينيو! » ثم قال لى

صوت كاپيتو نفس الشيء ، بكلمات مختلفة وكذلك أيضا إسكوبار؛ وأكدا كلاهما أخبار چوزيه دياس من ملاحظتهما الشخصية. وأخيرا أمى ، بعد ذلك بعدة أسابيع ، عندما ذهبت لأطلب إذنها بالزواج ، إلى جانب موافقتها ، أعطتنى النبوءة المماثلة ، باستثناء تعديل النص بما يتلاءم مع أم: «ستكون سعيدا ، يا بُنيً ! ».

#### ١٠١- في السمياء

لنكن سعداء مرة واحدة وإلى الأبد ، قبل أن ينتزع القارىء ، نصف الميت من الانتظار ، نفسه ويذهب للقيام بجولة النتزوج . كان ذلك في ١٨٦٥ ، ذات أصيل في مارس ، وتصادف أن السماء كانت تُمطر\*. عندما وصلنا إلى قمة تيچوكا ، عُشّ شهر عسلنا ، منعت السماء المطر وأشعلت النجوم ، ليس فقط تلك التي نعرفها من قبل بل أيضا نجوما لن يتم اكتشافها قبل عدة قرون من الآن. كانت مجاملة عظيمة ، ولم تكن الرحيدة القديس بطرس ، الذي يحمل مفاتيح السماء ، فتح لنا أبوابها ، وأدخلنا ، وبعد أن مسنّا بعصاه رتّل آيات قليلة من رسالته الأولى: « كذلكن أيتها النساء كُن خاضعات لرجالكن ... ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية أيتها النساء كُن خاضعات لرجالكن ... ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية الخفي ... كذلكم أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائي كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضا معكم نعمة النسائي كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضا معكم نعمة المياة ... » ثمّ أعطى إشارة للملائكة فرتلوا مقطعا من نشيد الأنشساد ،

<sup>\*</sup> في المعتقدات الشعبية بالبرازيل يعنى الزواج في يوم ماطر زواجا سعيدا (ملاحظة الطبعة الإنجليزية).

بتناغم كان من شأنه أن يدحض فرضية مغنّى التينور الإيطالى لو أن الأداء كان على الأرض؛ لكنه كان فى السماء. انسجمت الموسيقى مع النص المكتوب، وكأنهما تم إبداعهما معا على طريقة الأوبرا القاجنرية، ثم زُرنا بقعة من ذلك المكان الذى لا حدود له، لا تتزعج ، لا أعتزم وصفها؛ اللغة البشرية لا تملك صيغاً تليق بمهمة جليلة كهذه.

مع ذلك ، ربما كان كل هذا حلما: لا شيء أكثر طبيعية لتلميذ سابق في المعهد الديني من سماع اللاتينية والكتاب المقدس في كل مكان حوله، صحيح أن كاپيتو ، التي لم تعرف لا الكتاب المقدس ولا اللاتينية ، حفظت قليلا من الكلمات عن ظهر قلب ، كهذه على سبيل المثال: « جلست تحت ظلّه الذي تمنيتُه طويلا »، فيما يخص كلمات القديس بطرس ، قالت لي في اليوم التالي أنها معها من كل قلبها ، وأنني الثياب الوحيدة والزينة الوحيدة التي ستلبسها، وهو ما رددت عليه مسرعا بأن زوجتي ستكون لها دائما أفخر ثياب في هذا العالم.

## ١٠٢- الزوجسة

تخيّلُ ساعة حائط لها بندول واحد وبلا ميناء ، فلا ترى الساعات مرقّمة . سيدور البندول من ناحية إلى أخرى ، لكنْ لا علامة خارجية ستدلّ على سير الزمن . كان هذا هو الأسبوع الذى قضيناه على قمة تيجوكا .

من حين لآخر عُدنا إلى الماضي وتسلينا بتذكُّر محننا ومصائبنا ، لكن هذا أيضا كان وسيلة لئلاّ نخرج من أنفسنا. هكذا عشنا من جديد سنوات انتظارنا الطوال ، سنوات المراهقة ، « الوشاية » التى تظهر في الفصول الأولى ، وضحكنا من چوزيه دياس الذي دبر المكائد من أجل انفصالنا وانتهى إلى الفرح بزواجنا، مرة أو مرتين تكلمنا

عن النزول ، لكن الصباحات التي حديدة له كانت دائما ماطرة أو مشمسة ، وكنا ننتظر سماء ملبدة بالغيوم ، لم تكن لتجيء،

مع ذلك ، وجدت كاپيتو متلهفة إلى حد ما على الخروج. وافقت على البقاء ، لكنها ظلّت تتحدّث عن أبيها وعن أمى ، عن أنه ليست لديهما أخبار عنا ، عن كذا وكيت ، إلى أن تشاجرنا قليلا, سائتها ما إذا كانت ضجرت منى فعلا.

« ضجرتُ منك ؟ »

« يېدى دلك »،

« ألا بد أن تكون دائما طفلا؟ » سألت ، آخذة رأسى بين يديها ومقرّبة عينيها من عينى « هل انتظرت سنين طويلة جدا لأنقلب ضبجرة منك في غضون أسبوع ؟ لا ، يا بنتينيو ، أنا قلت هذا ، لأنه كذلك في الواقع ، أعتقد أنهما قد يكونان متلهّفين على رؤيتنا ويتخيّلان مرضاً ما أوغيره ، وأعترف ، من ناحيتى ، بأننى أود أن أرى بابا ».

« حسنا ، لنذهب عدا ».

« لا ، لابد أن يكون ذلك في يوم غائم » ، ردَّتْ بسرعة ضاحكة. أخذتُها بضحكتها ويكلمتها ، لكن تلهُّفها استمر ، ونزلنا في

الشمس،

الابتهاج الذى لبست به قبعتها الزوجية ، والهيئة الزوجية التى أعطتنى بها يدها لندخل العربة أو نخرج منها ، ودراعها لنمشى فى الشارع ، كل هذا أثبت لى أن سبب تلهف كاپيتو كان العرض الخارجى لوضعها الجديد، لم يكن كافيا أن تكون زوجة داخل أربعة جدران وقليل من الأشجار؛ كانت تحتاج إلى بقية العالم أيضا، وعندما وجدت نفسى هناك فى الأسفل ، أطأ الشوارع بقدمي معها ؛ متوقفا ، ناظرا ، متحدّثا ، أحسست بنفس الشيء، اخترعت جولات لكى يرانى الناس ،

ويستحسنونى ، ويحسدونى، فى الشارع ، أدار كثيرون رؤوسهم بفضول ، وتوقّف آخرون ، وربما سأل بعضهم ، « مَنْ هما ؟ » فيرد واحد من واسعى الاطلاع ، « ذلك هو د. سانتياجو، الذى تزوّج منذ أيام قلائل من السيدة الشابة ، دونا كاپيتولينا ، بعد غرام عنيف فى الصبا. وهما يعيشان فى جلوريا ، وتقيم الأسرتان فى ماتاكاڤايوس »، ثمّ

كلاهما معاً ، « يا له من مشهد! ».

## ١٠٣- السعادة روح لطيف

المشهد مبتذل؛ چوزیه دیاس عبر تعبیرا أفضل، کان هو الشخص الوحید من السهل فی الأسفل الذی زارنا علی قمة تیچوکا، حمل إلینا التهانی من الأسرة ، وکلمات من عنده هو کانت فی الحقیقة تُحفاً من الموسیقی، أنا لا أسجّلها هنا لکی أوفر الورق ، لکنها کانت ساحرة، ذات یوم قارننا بطائرین کبرا تحت إفریزین یبرزان متقاربین من نفس السقف، یمکن للمرء أن یتخیّل الباقی ، یجرب الطائران الأزغبان أجنحتهما ویحلّقان فی السماء ، وتتسع السماء لتضمّهما، لا أحد منا ضحك؛ كلانا أصغینا ، متأثرین ومقتنعین ، كل شیء امّدی من الذاكرة ، بدلك الأصیل فی ۱۸۵۸ ... السعادة روح لطیف .

## ١٠٤-الاهــرام

وزَّع چوزیه دیاس نفسه فی تلك الفترة بین أمی وبینی ، یتناول وجبات الغداء فی جلوریا ووجبات الإفطار فی ماتاكافایوس، مضى كل شىء على أحسن ما يرام، بعد سنتین من الزواج ، وفیما عدا إحباطنا

الشديد لأننا لم نُرزق طفلا ، مضى كل شيء على أحسن ما يرام. كنتُ فقدتُ حماى ، هذا صحيح ، وكان الخال كوزمه مريضا عاجزا ، لكن صحة أمى كانت جيدة ، وصحتنا ممتازة.

كنتُ محاميا لعدة عائلات واسعة الثراء ، وكانت القضايا تأتى إلينا ساهم إسكوبار مساهمة كبيرة في بداياتي في المحاكم. كان توسط لدى محام بارز لأعمل في مكتبه ، وكان رتب بعض التوكيلات لي ، كل هذا من تلقاء نفسه .

بالإضافة إلى ذلك ، كانت صداقتنا الأسرية موجودة سلفاً. حافظت سانشا وكاپيتو، بعد زواجهما ، على الصداقة التي بدأتاها في المدرسة؛ وإسكوبار وأنا ، على صداقتنا في المعهد الديني. كانا يقيمان في أنداراي ، وكانا يدعواننا دائما إلى هناك. ولأنه لم يكن بوسعنا أن نذهب كثيرا بالقدر الذي كنّا ثود ، كنّا أحيانا نذهب إلى هناك للغداء أيام الأحد ، أو كانا يتناولان الغداء معنا. الغداء لا يكاد يعبّر عن ذلك. كنّا دائما نذهب مبكّرا جدا ، بعد الإفطار مباشرة ، لنستمتع باليوم كاملا ، ولم نكن نفترق إلا في الساعة التاسعة ، أو العاشرة ، أو حتى الحادية عشرة ، حيث لا يبقى أي وقت، والأن عندما أفكر في تلك الأيام في أنداراي وجلوريا ، أشعر بأسف على أن الحياة وكل الأشياء الأخرى ليست في متانة الأهرام.

كان إسكوبار وزوجته سعيدين، كان لديهما ابنة صغيرة، في وقت لاحق ، سمعت بمغامرة للزوج ، علاقة غرامية عابرة من المسرح ، ممثلة أو راقصة ما ، لكن إنْ كان ذلك صحيحا ، فهي لم تؤد إلى فضيحة. كانت سانشا متواضعة ، وزوجها مثابرا في عمله، ذات يوم عندما عبرت عن حزني لإسكوبار على أننى محروم من ابن ، أجاب:

« لا تقلق يا رجل. سيرسلهم الرب عندما يشاء ، وإذا لم يرسل أيّ

طفل ، فذلك لأنه يريدهم لنفسه ، وسيكون من الأفضل أن يظلّوا في السماء».

« طفل ، طفل خاص بالمرء ، هو التكملة الطبيعية للحياة ».

« سيأتي عند الضرورة ».

لم يأت. طلبتُه كاپيتو في صلواتها، أكثر من مرة ضبطتُ نفسى أتلو صلوات وأطلبه. لم يعد الحال كما كان عندما كنت طفلا؛ الآن ، أدفع مقدَّما ، مثل إيجار البيت.

### ١٠٥- الذراعسان

مضى كل شىء ، بجانبه الأكبر ، على خير ما يرام، كانت كاپيتو تحبّ المزاح والتسلية، فى تلك الأيام الأولى ، عندما كنّا نخرج للقيام بجولة أو إلى المسرح كانت أشبه بطائر خارج قفصه، كانت تلبس بسحر وبساطة ، ورغم أنها كانت مغرمة بالمجوهرات مثل باقى الفتيات ، لم ترغب فى أن أشترى لها مجوهرات كثيرة أو غالية ، وذات يوم كانت قلقة بهذا الشأن إلى حدّ أننى وعدتُها بألا أشترى لها جوهرة واحدة بعد ذلك؛ لكنه لم يكن وعدا وفيت به,

كانت حياتنا هادئة تقريبا. عندما لم نكن مع الأسرة أو مع الأصدقاء، أو إذا لم نذهب إلى مسرحية ما أو حفلة خاصة ( وكان كلّ ذلك نادرا) ، كنّا نقضى ليالينا عند نافذتنا في جلوريا ، نراقب البحر والسماء، شبح الجبال والسنّفُن ، أو من يتنزّهون على الساحل الرملى. أحيانا ، كنتُ أروى لكابيتو تاريخ المدينة ، في أحيان أخرى كنتُ أعطيها لمحات عن علم الفلك ، لمحات هاو ، فيما كانت تُصغى ، منتبهة ومُحبة للاستطلاع ، لكنْ ليسَ كذلك دائماً إلى حدّ أن النعاس غلبها غير قليل. لم

تكن درست البيانو أبدا لكنها تعلّمت بعد زواجنا ، بسرعة بالغة إلى درجة أنها سرعان ما كانت تعزف في بيوت أصدقائنا. وفي جلوريا كان ذلك إحدى تسلياتنا. كانت تغنّى ، أيضا ، لكن ليس كثيرا وفي مناسبات نادرة ، لأنها لم تكن تملك صوتا. ذات يوم أدركت أن الأفضل ألا تُغنّى مطلقا ، وتخلّت عن الفناء. كانت تحبّ أن ترقص ، وكانت تزيّن نفسها بعناية وولّع عندما كانت تذهب إلى حفلة راقصة؛ كان ذراعاها ... ذراعاها يستحقان فقرة.

كانا جميلين ، وفي الليلة الأولى التي حضرت فيها حفلة راقصة بذراعيها عاربين ، لا أعتقد أنه كان لهما نظير في المدينة - ولا حتى ذراعاك ، يا سيدتي العزيزة ، فذراعاك لم يكونا في ذلك الزمن سوى ذراعي بنت صغيرة جدا ، إن كانا موجودين أصلا أنذاك ، لكن من المحتمل أنهما كانا لا يزالان في الرخام الذي تُحتا منه ، أو في يدى النحات الأسمى، كانا أجمل ذراعين ذلك المساء ، لا نظير لهما إلى حد أنهما ملاني بغرور يُصيب بالدُّوار. لم أكد أتحادث مع بقية الضيوف وفضلت أن أراقبهما وهما يتثنيان ويتلويان وسط أذرعة أخرى تطوق رد نجوتات أخرى. كان الأمر مختلفا في الحفلة الراقصة الثانية: في تلك المرة عندما رأيت أن الرجال لم يكفّوا عن الحملقة فيهما ، والتفتيش عنهما ، واستجدائهما تقريبا ، عندما رأيت الرجال يمسونهما برفق بأكمامهم السوداء ، كنت مغتاظا ومكتئبا. لم أحضر ثالثة ، وفي هذا حصلت على مساندة إسكوبار ، الذي أفضيت إليه باستيائي بصراحة.

« سانشينيا لن تذهب أيضا ، أو ستذهب بأكمام طويلة؛ يبدو لى الشيء الآخر غير لائق ».

« نعم ، لكن لا تقلُّ السبب؛ ستق ولان أننا من تلاميد المعهد

الديني كاپيتو وصفتْني بذلك فعلا ».

لم أستطع الامتناع عن أن أخبر كاپيتو ، مع ذلك ، بموافقة إسكوبار. ابتسمت وردّت بأن ذراعي سانشينيا ليسا جميلين؛ لكنها استسلمت بسرعة ، ولم تذهب إلى تلك الحفلة الراقصة. ذهبت إلى حفلات راقصة أخرى ، لكن دراعيها كانا نصف مكسويّن بقماش شفاف من نوع أو آخر ، لا كان يسترهما ولا كان يكشفهما تماما ، مثل سنندس كامونس\*.

## ١٠٦- عشرة جنيهات استرلينية

سبق أن قلتُ أنها مقتصدة أن ، إن كنتُ لم أقلْ ، اعتبرْ ذلك يُقال الآن. كانت تدّخر ليس النقود فقط بل أيضا الأشياء القديمة العديمة القيمة ، كتلك التى تُدّخر إكراما للتقاليد ، أن الذكرى ، أن الزمن القديم. كانت هناك بعض الأحذية ، على سبيل المثال ، وبعض الشباشب الصغيرة المسطّحة بلا كعب وذات الأشرطة التى تتلاقى فوق مشط القدم والرُّسغ الأخيرة التى كانت تلبسها قبل أن تلبس حذاء السيدة، أحضرتُها إلى البيت ، وكانت تُخرجها أحيانا من درج خزانة الملابس ، حيث كانت تحتفظ بها ، مع أشياء قديمة أخرى ، قائلةً أنها بقايا من الطفولة. أمى ، التى كانت لها نفس السمة ، أحبّتُ أن تسمعها تقول وتفعل ذلك.

فيما يتعلُّق باقتصادها المالي الخالص ، سأستشهد بحالة واحدة

<sup>\*</sup> لویس ده کامونس Luis de Camoes (۱۰۸۰ – ۱۰۸۰) شساعر برتغالی ولد فی لشبونی، تُعدّ قصیدته لوزیادس Lusiades (۱۰۷۲) التی یحکی فیها مغامرات الملاّح قاسکو ده جاما، مُبْرزا فیها الخوارق الاسطوریة ، الاثر الادبی الرئیسی فی الادب البرتغالی – المترجم (عن لاروس).

وهذه ستكفى، تصادف أن حدثت في مناسبة درس من دروس علم الفلك تلك في جلوريا, ينبغى أن أعترف بأننى حملتُها أحيانا على النعاس, وذات ليلة كانت مستغرقة تماما في التأمّل في البحر ، مما جعلني أغار.

- « أنت لا تُصغين إلى ».
  - « أنا ؟ أنا أصغي ».
  - « ماذا كنتُ أقول ؟ »
- « أنتَ ... كنتَ تتحدّث عن الشِّعْري اليمانية ».
- « الشُعْرَى اليمانية ، يا كاپيتو! مرَّتْ عشرون دقيقة منذ كنتُ أتحدّث عن الشُّعْرَى اليمانية ».
  - « كنتُ تتحدَّث عن ... عن المريخ » ، صحّحت مُسرعة ،

كان المريخ فعلا ، لكن كان من الواضح أنها النقطت صوت الكلمة فقط ، وليس معنى صرت جادًا؛ أحسست بحافز للنهوض ومفادرة الحجرة أدركت كاپيتو ذلك ، وصارت أرق وأعذب المخلوقات أمسكت يدى ، أقرت بأنها كانت تحسب ، أى ، تحسب بعض المبالغ من المال في محاولة لاكتشاف مبلغ ضئيل بعينه كان ناقصا . كانت مسألة تحويل من الورق إلى الذهب ، في البداية ظننت أنها خدعة لإعادتي إلى اعتدال مزاجى ، لكن في غضون ثوان قليلة كنت أنا أيضا أحسب ، لكن بالقلم والورق ، على ركبتي ، لأكتشف لها عجزها .

« لكن أيّ جنيهات هذه ؟ » سألت عندما انتهيت.

نظرت كاپيتو إلى وضحكت ، ثم ردّت بأن اللوم على إفشائها السرّ يقع على أنا، قامت ، ذهبت إلى حجرتها وعادت بعشرة جنيهات استرلينية فى يدها. كانت ما وفرّت من النقود التى أعطيها لها كلّ شهر للمصاريف.

- « کلّ هذا ؟ ».
- « ليس كثيرا ، مجرّد عشرة جنيهات، هذا ما استطاعت زوجتك البخيلة توفيره في شهور عديدة » ، ختمت وهي تُخشخش الذهب في بدها.
  - « مَنْ كان السيط ؟ ».
  - « صديقك إسكوبار ».
  - « كيف لم يقل لى أي شيء ؟ »،
    - « حدث هذا اليوم فحسب ».
      - « کان هنا ؟ »،
- « قبل عودتك إلى البيت بقليل، لم أذكر ذلك خشية أن تشك في شيءما ».

أردتُ أن أبدّد ضعف مقدار الذهب على هدية ما تذكارية ، لكن كابيتو أوقفتنى، على العكس ، سألتنى نصيحتى حول ما ينبغى أن نفعل بتلك الجنبهات،

- « هي لك » ، أجبتُ أنا .
- « لنا » ، صحّحتُ هي.
- « إذن تحتفظين بها ».

فى اليوم التالى ، ذهبتُ لأرى إسكوبار فى المخزن ، وضحكتُ على سرّهما – سرّه هو وكاپيتو. ابتسم إسكوبار وقال أنه كان على وشك الذهاب إلى مكتبى ليخبرنى، أخت الزوجة الصغيرة (استمر فى منح كاپيتو هذا الاسم) كانت كلّمتُه خلال زيارتنا الأخيرة لأندارائ ، وذكر السب فى السريّة.

« عندما قلتُ لسانشينيا » ، ختم كلامه ، « ذُهلَتْ ». < كيف يمكن الكاپيتو أن توفّر الآن وكلّ شيء غال جدا ؟ > < لا أعرف ، يا طفلتي؛ كلّ

ما أعرف أنها وفرَّتُ عشرة جنبهات >،

« لتنتظرُ وتُر ، ريما تعلّمتُ أن تفعلها أيضا ».

« لا ، لا أظنّ ذلك، سانشينيا ليست مسرفة ، لكنها ليست مقتصدة أيضا ؛ ما أعطيه لها يكفى ، لكن هذا كل ما هنالك ».

ثم أنا ، بعد عدَّة لحظات من التفكير: « كاييتو ملاك ».

أوما إسكوبار موافقا لكن بلا حماس كمن يأسف لأنه لا يستطيع أن يقول نفس الشيء عن زوجته. هذا ما كان سيبدو لك أيضا ، هذا أكيد إلى حدّ أن فضائل أوائسك القريبين منا تمالانا بنوع من الغرور ، أو العزاء.

## ١٠٧- الغيرة من البحر

لولا علم الفلك ، ما اكتشفتُ جنيهات كاپيتو العشرة بتلك السرعة. لكننى لا أعود إلى الموضوع لهذا السبب؛ أنا أفعل ذلك حتى لا تتصور أن كبريائى كمدرس هى التى جعلتنى أعانى من عدم انتباه كاپيتو فأصبحت أغار من البحر، لا ، يا صديقى، ينبغى أن أشرح لك أننى كنتُ أصاب كثيرا بنوبات الغيرة هذه ، راغبا فى أن أعرف ماذا عسى أن يكون داخل رأس زوجتى – وليس خارجه أو فوقه ، إنها حقيقة معروفة أن الخواطر المنطلقة الشخص قد تكون مُذنبة ، نصف مُذنبة ، ثلث ، خُمس ، عُشر مُذنبة ، مادام التدرُّج فيما يتعلق بالذنب بلا حدود. مجرّد تذكّر عينين يكفى لتركيز العينين الأخريين ، اللتين تتذكرانهما وتبتهجان ، فى يكفى لتركيز العينين الأخريين ، اللتين تتذكرانهما وتبتهجان ، فى مجرّد كلمة ، أو إيماءة ، أو تنهيدة ، أو إشارة مهما كانت خفيفة أو تافهة. مجرّد كلمة ، أو إيماءة ، أو مرأة مجهولة يمرّ الواحد منهما على ناصية يمكن لرجل مجهول أو امرأة مجهولة يمرّ الواحد منهما على ناصية

الشارع أن يجعلنا نضع الشّعرني اليمانية داخل المريخ ، وأنت تعرف ، أيها القارىء ، الاختلاف القائم بين هذا وذاك في البعد وفي الحجم ، لكن

استارع ال يجعنه تصلع السعرى اليفائية داخل المربح ، والمنا عمرت اليها القارىء ، الاختلاف القائم بين هذا وذاك في البعد وفي الحجم ، لكن علم الفلك ينطوى على هذه الالتباسات، هذا هو ما جعلني أغدو شاحبا ، وأريد الفرار من الحجرة ، لأعود يعلم الرب متى – ربما بعد ذلك بعشر دقائق سنكون هذا في حجرة الجلوس ، عند البيانو ، أو النافذة ، مُواصلا الدرس الذي قُطع:

« المريخ على بعد ... »

وقت قصير جدا ؟ نعم ، وقت قصير جدا ، عشر دقائق.

كانت نوبات غيرتى حادّة ، لكن قصيرة: في لحظة كان يمكننى أن أهدم كل شيء ، لكن في نفس اللحظة كان يمكننى أن أبنى من جديد السماء ، والأرض ، والنجوم.

الحقيقة أننى ازددت غراما بكاپيتو، إنْ كان ذلك ممكنا ، وازدادت هى رقة ، والجوشفافية ، والليالى نورا ، والربّ ربُوبيةً. وإذا شئنا الدقة ، لم تكن الجنيهات العشرة الاسترلينية هى التى قعلت هذا ، أو الولع بالاقتصاد الذى كشفته والذى كنت مدركا له ، بل الاحتياطات التى أخذتها كاپيتو بقصد أن تكشف لى ذات يوم عنايتها الفائقة اليومية. إسكوبار أيضا صار أعز على فعدت زياراتنا أكثر تواثرا ، وأحاديثنا أكثر ألفة،

#### ۱۰۸- طفیل

مع ذلك ، كلّ هذا لم يقتل لهفتى على طفل ، مهما كان غلاما حزينا بعض الشيء ، شاحبا وحزينا ، لكنْ طفلا ، طفلا من جسدى أنا . عندما كنّا نذهب إلى أندارائ و نرى الابنة الطفلة لإسكوبار وسانشا ،

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتى كان اسم دلعها كاپيتوزينيا ، لتمييزها من زوجتى ، ذلك أنهما كانا أعطياها نفس الاسم عند التعميد ، كنا نمتلى عسدا. كانت البنت الصغيرة مفعمة بالحيوية وفائقة الجمال ، ثرثارة وفضولية. كان أبواها ، مثل بقية الآباء ، يَرْفُون فكاهاتها وأقوالها الذكية ، وفي الليل عندما كنّا نعود إلى جلوريا ، كنّا نتحسّر في حسد ونتضرع في سرنّا إلى السماء أن تضع حدًا لذلك...

... مات حسدنا ، وقُلدت آمالنا ، ولم تكن ثمرتها سنتأخر طويلا عن المجىء إلى هذا العالم. لم يكن سقيما ولا قبيحا ، كذلك الطفل الذى صلّيتُ من أجله ، بل كان طفلا مفعما بالحيوية ، وقويًا ، وجميلا.

فيما يتعلّق بفرحى عندما ولد ... لا أدرى كيف أرويه. لم أحس أبدا بما يضارعه ، لا ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك أى فرح يضارعه ، ولا أى فرح يشبهه من قريب أو بعيد. كان دُوارا وجنونا. لم أغن في الشارع ، بسبب الخجل الطبيعي ، ولا في البيت ، حتى لا أزعج كاييتو النفساء. لا ولم أرتم على الأرض ، لأن هناك ربًا يراقب فوق الآباء الجدد. في الخارج ، عشت وعقلي على الطفل الصغير؛ في البيت ، وعيناي عليه – أراقبه ، أدهش به ، أسائله من أين جاء ، ولماذا كنت مستغرق الفكر فيه ، وبقية الهراء الفارغ ، بدون كلمات ، بل كنت أفكر أو أتخيل هاذيا في كل لحظة. وربما خسرت قضايا قليلة في المحاكم بسبب الإهمال. كانت كاييتو حانية نحوه ونحوى نحن الاثنين. كنّا نشبك أيدينا في بعضها ، وعندما كنا لا نحملق في ابننا ، كنّا نتحدّث عن نفسنا ، عن الرضاعة. عندما رأيت الساعة الأعظم سحرا وإبهاما هي ساعة الرضاعة. عندما رأيت ابني يرضع لبن أمه ، وكل وئام الطبيعة ذلك لتغذية وحياة مخلوق لم يكن من قبل شيئا ، لكن قدرنا أعلن أنه لابد أن يكون ، وجاء به إلى الوجود وفاؤنا وحبنا ، أحسست بشيء لا يمكنني التعبير وجاء به إلى الوجود وفاؤنا وحبنا ، أحسست بشيء لا يمكنني التعبير

عنه ، وإن أحاوله ؛ والواقع أننى لا أذكر ، بأيّ قدر من اليقين ، وأخاف أن يكون أيّ شيء قد أقوله غامضا.

اعفنى من سرد التفاصيل الدقيقة، لا حاجة إلى أن أحكى عن تفانى أمى ، وتفانى سانشا ، اللتين جاءا وقضا الأيام والليالي القليلة الأولى مع كاپيتو، حاولت أن أرفض العطف الكريم لسانشا. ردّت باننى لا علاقة لى بهذا: كانت كاپيتو، قبل أن تتزوج ، تأتى لرعايتها في شارع إنقاليدوس،

« ألا تذكر ، أنت جئت هناك لتراها ؟ »

« أَذْكُر؛ لَكنُّ إسكوبار ... »

« ساتى وأتغدى معكم وأعود ليلا إلى أنداراى . أسبوع واحد ، وينتهى كلّ شيء، من السهل أن نرى أنك أصبحت أباً بغلطة واحدة فقط تُقيد لحسابك ».

« وماذا عنك ؟ أين الثانية؟ »

هذه هى الطريقة التي اعتدنا أن نمزح بها فيما بيننا، واليوم ، منسحبا إلى داخل كازمورويتي ، لا أدرى ما إذا كان هذا النوع من اللغة لا يزال موجودا ، لكنه ينبغى. إسكوبار فعل ما قال: سيتغدى معنا ويعود إلى البيت ليلا. في المساء تقريبا سننزل إلى الشاطىء أو إلى المنتزه العام – هو مستغرقا في حساباته ، وأنا في أحلامي، رأيتُ ابني طبيبا ، محاميا ، رجل أعمال؛ ألحقتُه بجامعات وبنوك متباينة ، بل قبلت فرضية أن يكون شاعرا، وتم التشاور في احتمالات السياسة وكنت مستعداً للاعتقاد أنني أنجبت خطيبا ، وخطيبا عظيما.

«قد يحدث » ، علّق إسكوبار ، « لم يكن بمستطاع أحد أن يتخيّل إلى أيّ ذُرًى سيرتفع ديموستين ».

كثيرا ما انجاز إسكوبار إلى أحلامي الطفولية ؛ هو أيضا كان

verted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version

يستنطق المستقبل، كان هو الذي تكلّم عن إمكانية زواج الولد من ابنته. الصداقة موجودة حقا: كانت في يديّ وأنا أهزّ يدي إسكوبار عندما سمعتُه يقول هذا ، وكانت في الافتقار التام إلى كلمات والذي وقعت به المعاهدة على هذا النحو. جاءت الكلمات في وقت لاحق ، مندفعة بعد أن هذّ بها القلب ، الذي كان يدقّ بعنف. قبلتُ عرضه ... واقترحتُ أن نعمل من أجل هذه الغاية؛ بأن نربيهما بنفس الطريقة ومعاً ، في طفولة متآلفة ومثالية.

كانت فكرتى أنا أن يكون إسكوبار أب الطفل فى العماد؛ أم العماد كان ينبغى أن تكون وستكون أمى. لكن الجانب الأول من خطتى تغير من خلال تدخّل الخال كوزمه الذى قال للطفل ، عندما رآه ، ضمن كلمات تدليل أخرى:

« تعال ، خذ بركة من أبيك فى العماد ، أيها الوغد »، ثم مستديرا إلى ، « هذه منّة لن أرفضها؛ وينبغى أن يتمّ التعميد بسرعة ، قبل أن يقضى على المرض إلى الأبد ».

حكيتُ الحكاية بحدر لإسكوبار ، على أمل أن يفهم ويصفح، ضحك ولم يغضب، بل فعل أكثر ، طلب تناول إفطار التعميد بمنزله فى أنداراى – وكذلك كان، ظللتُ أوْجًل الاحتفال ، على أمل أن يستسلم الخال كوزمه لمرضه فى غضون ذلك ، لكن يبدو أن المرض كان مزعجا أكثر منه قاتلا. لم يكن هناك مناص من حمل الطفل إلى حوض التعميد ، حيث سمنًى باسم حزقيال: كان من اختيار إسكوبار وتمنيتُ أن نعوض بهذه الطريقة عن القرابة التي حُرمنا منها.

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

## ١٠٩- طفل وحيـد

عندما بدأ الفصل السابق ، لم يكن حزقيال ولد؛ وعندما انتهى كان مسيحيا وكاثوليكيا . وهذا الفصل مخصّص لتربية حزقيال الغالى حتى الخامسة من عمره ، طفلا جميلا مليئا بالحيوية ، بعينيه الصافيتين القلقتين في الواقع وكأنهما كانتا ترغبان في مغازلة كلّ بنات الحي ، أو كلّهن تقريبا .

والآن ، إذا أنت أخذت في اعتبارك أنه كان الطفل الوحيد ، وأنه لم يأت أي طفل آخر ، أكيد أو مشكوك فيه ، ميت أو حي ، كان واحدا ووحيدا ، يمكنك أن تتصور ألوان القلق التي سببها لنا ، والنوم الذي سرقه منا ، وألوان الدّعر التي أصابنا بها بالتّسنين ويقية الأزمات ، بأدنى ارتفاع في درجة الحرارة ، بكامل الحياة المألوفة للأطفال. مهما كان ما يحدث ، كنّا نطير للنجدة ، حسب الضرورة والإلحاح - الأمر الذي لا حاجة إلى التنويه به وإنْ كان هناك قُرّاء بُلهاء إلى حدّ أنهم لا يفهمون شيئا ما لم تَقُلُ لهم كل شيء - وما تمّ تأجيله، لننتقل إلى ما تمّ تأجيله،

#### ١١٠- سمات الطفولية

ما تم تأجيله سيلتهم فصولا كثيرة أخرى. هناك حَيوات تأخذ فصولا أقل ، ومع ذلك فهي كاملة ومنتهية.

فى الخامسة والسادسة من عمره ، بدا أن حزقيال لم يكذّب الأحلام التي كنتُ حلمتُها على الشاطىء في جلوريا، على العكس ، لمحت فيه كافة المهن المكنة من العواطلي إلى الرسول، العواطلي مستخدم هنا بالمعنى الجيّد، بمعنى شخص يفكر ويبقى صامتا؛ إنه ينسحب ، أحيانا ،

إلى داخل نفسه ، وكان بهذا يذكرنى بأمه منذ كانت صغيرة. ثم يغدو من جديد مهتاجا ويلح على إقناع البنات الجارات بأن الحلويات التى كنت أحملها له حلويات حقيقية. لم يكن يفعل ذلك قبل أن يكون حشا بطنه بها ، لكن الرسل أيضا لا يحملون إلى الخارج الكلمة الطيبة قبل أن يكونوا ملأوا بها بكاملها قلبهم هم. كان من رأى إسكوبار ، رجل الأعمال الممتاز ، أن السبب الرئيسى وراء هذه النزعة ربما كائت الرغبة في أن يدعو البنات الجارات ، بصورة ضمنية ، إلى رسالة مسيحية مماثلة عندما يحمل إليهن آباؤهن حلويات؛ وضحك من سخريته هو وأعلن أنه سيجعله شريكه عندما يكبر.

أحبً حزقيال الموسيقى حُبًا لا يقل عن حُبّه للحلويات ، وطلبتُ من كاپيتو أن تنقر له بأصابعها على البيانو أغنية بائع الكوكادا (جوز الهند) المتجول الزنجى في ماتاكاڤايوس ...

« لا أذكرها »،

« لا تقولى هذا ! لا تذكرين ذلك الرجل الملوّن الذي كان يطوف لبيع المحلويات ، في الأصائل ... »

« أذكر رجلا ملونا اعتاد أن يبيع الحلويات ، لكننى لا أتذكّر اللحن ».

« ولا الكلمات؟ ».

« ولا الكلمات ».

سيدتى القارئة ، التى ستكون لا تزال تتذكّر الكلمات ، بافتراض أنها قرأتنى بانتباه ، سيدهشها هذا النسيان ، قبل كل شيء لأن تلك الكلمات ستذكرها بأصوات طفولتها ومراهقتها هى؛ ربما كانت نسيت كلمة أو كلمتين ، لكن لا يبقى كل شيء في رأس المرء. ذلك ما قالته كاپيتو في ردّها ، وعجزتُ عن الردّ عليها. لكننى فعلتُ شيئًا آخر لم تتوقّعه هى.

جريت إلى مجموعة أوراقى القديمة. عندماكنت طالبا في سان باولو، كنت طلبت من مدرس موسيقى أن يدون لى لحن أغنية البائع المتجول تدوينا موسيقيا. كان سعيدا بأن يفعل هذا (كل ما كان على أن أفعل هو أن أدندن له بها من الذاكرة) ، واحتفظت بقصاصة الورق الصغيرة. ذهبت أبحث عنها. في غضون دقائق قليلة ، قاطعت أغنية راقصة كانت تعزفها بقطعة الورق الصغيرة، شرحت لها؛ وراجعت العلامات الموسيقية الست عشرة على البيانو.

كان الله نكهة خاصة ، وساحرة تقريبا ، بالنسبة لكاپيتو. روت لابنها قصة أغنية البائع المتجول ثم غنتها وعزفتها مرارا وتكرارا، استغل حزقيال الموسيقى أحسن استغلال طالبا منى أن أدحض النص فأعطيه بعض النقود.

كان ينهمك في لعب أدوار الدكتور ، والجندى ، والممثل ، والراقص، لم أعطه خُطباً أبدا؛ بل خيولا خشبية وسيفا كان يتدلّى إلى جانبه وكان يناسبه، لن أتكلّم عن الكتائب التي كانت تمرّ في الشارع والتي كان يُسرع ليراها؛ كل الأطفال يفعلون ذلك. لكن ليس لكل الأطفال عيون كعينيه، لم أر في طفل آخر الاهتياج الفرح الذي كان يراقب به عبور القوات ويسمع القرع على الطبول.

« انظر ، بابا ! انظر ! ».

« أنا أنظر ، يا بنيّ ! ».

« انظر إلى القائد! انظر إلى حصان القائد! انظر إلى الجنود! ».

ذات يوم استيقظ وهو يعزف البوق بأصابعه على الهواء، أعطيتُه بوقا للّعب، أحضرتُ له جنودا من الرصاص ، صنورا للمعارك كان ينحنى عليها ساعات بلا انقطاع ، طالبا منّى أن أشرح قطعة مدفعية ، أو جنديًا

ساقطا ، أو جنديًا بسيفه مرفوعا ، وكان كل حبيّه لذلك الذي بالسيف المرفوع. ذات يوم (يا له من عُمر بريء!) سألنى بتلهّف:

« لكن ، بابا ، لماذا لا يُنزل سيفه ويحسم به المعركة »،

« يا يني ، لأنه مرسوم بالحقر »،

« لكن لماذا رسم تفسه ؟ ».

ضحكتُ للخطأ وأوضحتُ أن الجندى ليس هو الذى رسم نفسه على الورق ، بل الحفّار ، وكان على أن أشرح أيضا ما هو الحفّار وما هو الحفر - حُبّ استطلاع كاييتو ، باختصار.

تلك كانت السمات الرئيسية للطفولة، سمة أخرى ونُنهى الفصل، ذات يوم ، فى منزل إسكوبار ، فوجىء بقط بين أسنانه فأر، لم يُحرّد القط فريسته لكنه لم يعرف أيضا إلى أين يجرى، لم يُصدر حزقيال صوتا، عندما رأيناه هكذا ، كلّه انتباه وتركيز ، نادينا عليه وسألناه عما هناك. أشار إلينا إشارة لنلزم الهدوء. خمّن إسكوبار ، « أراهن أنه القط وقد اصطاد فأرا. لا أستطيع أن أتخلّص من الفئران فى هذا المكان؛ إنها الشيطان ذاته، سارى ».

أرادت كاپيتو أيضا أن ترى ماذا كان الطفل يفعل. ذهبتُ معهما، في الواقع ، كانت حادثة قط وفأر مألوفة ، لا أهمية لها أو سحر. كان الظرف الغريب الوحيد أن الفأر كان حياً ، يقاوم ، وابنى الصغير مسلوب العقل. لكن اللحظة كانت قصيرة، بمجرّد أن رأى القط أشخاصا أكثر ، تهيّأ للجرى. الطفل ، وعيناه مثبتّان عليه ، أوما إلينا مرة أخرى طالبا الصمت ، ولم يكن للصمت أن يكون أكبر. كنتُ أوشك أن أقول أنه كان دينيًا؛ شطبتُ الكلمة ، لكننى أكتبها هنا مرة أخرى ، ليس فقط لأعبر عن شمول الصمت بل أيضا لأنه كان هناك في سلوك القط والفأر شيء قريب إلى الطقس. كانت الأصوات الوحيدة هي الصوصوات الأخيرة للفأر ،

والتى كانت خافتة؛ كانت أرجله تتحرك بصعوبة ، وبضعف. مشمئزًا بعض الشيء ، صفّقت بيدى لأجعل القط يفر هاربا ، وفرّ . لم يجد الآخران وقتا لإيقافي، وفرّع حزقيال،

- « أوه ، بايا! ».
- « انتهى! الآن تم أكل الفأر ».
- « نعم ، لكننى كنت أريد أن أراه ».
- ضحك الآخران، أنا أيضا وجدتُ ذلك مضحكا.

# ١١١- مروئ بسرعة

وجدتُه مضحكا ، ولا أزال أجده كذلك ، رغم الزمن الذي مرّ ، والأحداث التي وقعت ، ونوع من التعاطف الذي أحس به نحو الفأر؛ كان ذلك مضحكا . لا يُشعرني بأي ندم أن أقول هذا . وأولئك الذين يحبون الطبيعة كما ينبغي لها أن تُحب ، بلا جُحود مُغرض أو استثناءات ظالمة ، لا يجدون فيها أي شيء دني ، أنا أحب الفأر؛ أنا لا أكره القط . بل تراودني فكرة جعلهما يعيشان معا ؛ لكنني أدرك أنهما متنافران والواقع أن أحدهما يقرض كتبي ، والآخر يقضم جبني؛ لكن هذا شيء تافه أصفح عنهما عليه ؛ سبق لي أن صفحت عن كلب سلبني الهدوء في ظروف أسوأ وسأروى الحادث بسرعة .

كان ذلك عندما ولد حزقيال، كانت أمه محمومة ، وكانت سانشا تسهر عليها ، ونبحت ثلاثة كلاب في الشارع طوال الليل، حاولت أن أجد الضابط في طريقه المألوف وكان ذلك وكأنني كنت أحاول العثور على القارىء ، الذي لم يعرف بذلك إلا الأن فقط، عندئذ عقدت العزم على قتلها. اشتريت سُمًا ، وأعدت لي ثلاث كرات من اللحم، وحشوت فيها

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقار بنفسى، خرجتُ إلى الليل، كانت الساعة الواحدة ؛ لا المريضة ولا ممرضتها استطاعت النوم بسبب الصخب المصمّ للكلاب، عندما رأتنى الكلاب فرّت ؛ اثنان ذهبا في اتجاه شاطىء فلامنجو، ويقى واحد على مسافة قصيرة ، كأنه ينتظر، اتّجهتُ إليه ، وأنا أصفّر وأفرقع أصابعى. كان الشيطان لا يزال ينبح ، لكنه واثقا في إشارات صداقتى نبح أقلّ فأقلٌ ، إلى أن توقّف تماما، عندما تقدمتُ ، أتى إلى ، ببطء ، يهزّ ذيله ، وهذه طريقة الكلب في الابتسام، كنتُ أخرجتُ فعلا كُرات اللحم وكنتُ أوشك على إلقاء إحداها إليه ، عندما شلّت تلك الابتسامة الخاصة ، بادرة التحبّب أو الثقة ، أو كائنا ما تكون ، إرادتي، وقفتُ هناك ، وقد مسنّتي الشفقة على نحو ما ، وأعدتُ كُرات اللحم إلى جيبي، ربما ظنّ القارىء أن رائحة اللحم هي التي هدّاتُ الكلب، وأنا لا أقول أنها لم تكن. وأعتقد أنه لم يكن راغبا في أن يعزو الغدر إلى بادرتي ، ولهذا وضع نفسه بين يديّ. لم يكن راغبا في أن يعزو الغدر إلى بادرتي ، ولهذا وضع نفسه بين يديّ.

#### ١١٢- حزقيال يقلد الناس

لم يكن حزقيال ليفعل هذا، لم يكن ليعد كُرات اللحم المسعومة ، فيما أعتقد ، لكنه لم يكن ليرفضها كذلك، ما كان سيفعله ، دون شك ، هو أن يجرى وراء الكلاب بسيل من الحجارة إلى أقصى مسافة يمكن أن تحمله إليها ساقاه؛ وإنْ كانت لديه عصا كان سيستخدم العصا، وكانت كاييتو يجن جنونها وهي ترقب هذا المحارب المنتظر.

« هو لا يُشبهنا ، نحن الذين نحبّ الهدوء » ، قالت لى ذات يوم ، « لكن بابا كان هكذا وهو صبى، هذا ما اعتادت ماما قوله لى ».

« نعم ، الولد ليس خواً فا » ، أجبت ، « ولم أجد فيه سوى عيب

واحد صغير: يحبُّ أن يقلد الناس ».

« يقلّد ؟ بأيّ طريقة ؟ ».

« يقلّد حركاتهم ، أساليبهم ، أوضاعهم. يقلّد ابنة العم چوستينا ، يقلّد چوزيه دياس؛ بل لاحظتُ أن له طريقة في تحريك قدميه مثل إسكوبار ، والطريقة التي يستعمل بها عينيه ... »

نظرت إلى كاپيتو باهتمام شديد ، وأخيرا قالت أننا ينبغى أن نقومه، للمرة الأولى ، أدركت أنها عادة سيئة فى الولد ، لكن بدا لها أنه لم يكن سوى تقليد من أجل التقليد ، كما يفعل كثير من الأشخاص الذين يتبدّون أساليب الآخرين ؛ لكن حتى لا يذهب إلى حد ابعد ...

« لا ينبغي أن نجرح مشاعره أيضا. لا يزال هناك وقت لتقويمه »،

« نعم ، سارى. لكن ألم تفعل ذلك أنت أيضا عندما كنت تغضب من شخص ما ».

« عندما كنتُ أغضب ، أعترف - انتقام الطفل ».

« نعم ، لكنني لا أحبّ تقليد الناس في أسرتي ».

« وفي تلك الأيام أكنت تحبّينني ؟ » سالتُ ، وأنا أربّت على خدّها .

كان ردّ كاپيتو ابتسامة ساخرة حلوة ، واحدة من تلك الابتسامات التى لا يمكن وصفها على الإطلاق ، ونادرا ما تُرسم، ثمّ مدّت دراعيها والقتهما على كتفيّ؛ كانا مليئين رقة إلى حدّ أنهما كانا يبدوان (صورة قديمة !) عقدا من الزهر، فعلت نفس الشيء بذراعيّ ، وأسفت على أنه لم يكن هناك نحّات بالقرب منا لينقل تلك الوقفة إلى الرخام. وحده الفنان كان سيحقّق المجد بذلك ، هذا أكيد، عندما يخرج تمثال حسنا أو مجموعة من التماثيل ، لا أحد يهتم بالموديل ، بل فقط بالعمل، العمل هو الذي يبقى، لا يهم ؛ سنعلم أننا الأصل.

## ١١٣- دعوى مطالب الطرف الثالث

الآن وأنا أتكلّم عن هذا ، ربما سالتنى ما إذا كنتُ ، أنا الذى كنتُ غيورا للغاية عليها ، لم أظلّ غيورا رغم الطفل ومرّ السنين. نعم ، يا سيدى ، ظللتُ – إلى حدّ أن أدنى بادرة عذبتنى ، كلمة عارضة ، الإلحاح على طلب بسيط؛ فى أحيان كثيرة ، كانت اللامبالاة وحدها كافية. غيورا من كل شيء وكل شخص، جار ، رفيق رقص فى القالس ، أيّ رجل ، شاب أو عجوز ، ملأنى فزعا وارتيابا لا شك فى أن كاپيتو كانت تحبّ أن تُرى ، وأنسب وسيلة لتلك الغاية (أخبرتنى سيدة ذات مرة) هى أن تُرى ، ولا رؤية دون إظهار أننا نرى.

السيدة التى قالت لى هذا كانت ، فيما أعتقد ، مُولَعة بى ، وربما لأنها لم تكتشف فى عاطفة متبادلة ، فسرت بذلك جرأة عينيها، عيون أخرى أيضا بحثت عنى ، غير كثيرة ، ولن أقول عنها شيئا؛ قديما ، اعترفت فى البداية أنه لابد أن تكون لى مغامرات فى المستقبل – لكنها كانت إلى ذلك الحين ، لا تزال فى المستقبل. فى تلك الأيام ، رغم كل النساء الجميلات اللائى قابلتُهن ، لم يكن لواحدة أن تحظى بأتفه جزء من الحب الذى كنت أكنه لكاپيتو، ولم أحب أمى أنا نصف حبى لها. كانت كاپيتو كل شىء وأكثر من كل شىء؛ لم ألتقط نفسا ، حتى وأنا أعمل ، لدون أن أفكر فيها. كنا نذهب إلى المسرح ، أذكر مرتين فقط ذهبت فيهما بدونها ، حفلة تمثيلية خيرية وأول عرض لأوبرا ، لم تحضره لأنها أحست بأنها مريضة ، رغم أنها ألحت على ذهابى. كأن أوان إرسال التذاكر إلى إسكوبار فات. ذهبت ، لكننى عدت إلى البيت بعد نهاية الفصل الأول.

« أردتُ أن أتحدّث معك » ، قال،

شرحت له أننى كنت دهبت إلى المسرح لكننى عدت لأننى قلقت على كاييتو التي كانت أحسن بأنها مريضة.

« مريضة بماذا ؟ » سأل إسكوبار،

« كانت تشكو من رأسها ومعدتها ».

« سأنصرف إذن، جئتُ بشأن موضوع المطالب »،

كانت دعوى مطالب طرف ثالث. شىء ما هام كان ظهر ، ولأنه تغدّى فى المدينة لم يشأ أن يعود إلى بيته دون أن يخبرنى به ، لكنه الآن سيخبرنى فى وقت آخر.

« لا ، لنتحادث عنها، هيّا نصعد، ربما كانت الآن أفضل، إذا كانت أسوأ ، يمكنك أن تنصرف ».

كانت كابيت أفضل بل كانت تحسّ أنها ممتازة، اعترفت لى بأنها لم تكن تعانى إلا من صداع خفيف ، لكنها بالغت فى ألمها حتّى أخرج وأستمتع لم تتكلّم بابتهاج ، الأمر الذى جعلنى أرتاب فى أنها تكذب حتى لا تزعجنى ، لكنها حلفت أن ذلك صحيح تماما ، ابتسم إسكربار وقال:

« أخت زوجتى الصغيرة مريضة مثلك أو مثلى، لنعد إلى مطالبنا ».

## ۱۱۶- وفیه یتم شرح ما تم شرحه

قبل أن نعود إلى المطالب ، دعنا نشرح نقطة سبق فعلا شرحها ، وإنْ لم يكن شرحا كاملا، سبق لك أن رأيت كيف أننى طلبت (الفصل ١١٠) من مدرس موسيقى في سان باولو أن يُدون لي لحن أغنية بائع ماتاكا فايوس المتجوّل، المسألة بسيطة في حد ذاتها ولا تستحق فصلا ، ناهيك بفصلين. لكن هناك مسائل كهذه تقدّم دروسا مشوقة ، إن لم تكن مقبولة. لتشرح ما تم شرحه.

أقسمنا كاپيتو وأنا ألاً ننسى أبدا أغنية البائع المتجوّل تلك. كان ذلك فى لحظة حبّ شديد. الكاتب الإلهى يعرف الأشياء التى يتمّ القسم عليها فى لحظات كتلك – هو الذى يسجّلها فى الكتب الأبدية ».

« هل تُقسمين ؟ ».

« أقسم على ذلك » ، قالت ، وهي تمدُّ ذراعها على نحو فاجع،

استغللت البادرة افضل استغلال بتقبيل يدها؛ كنت لا أزال في المعهد الديني، عندما ذهبت إلى سان باولو وحاولت أن أتذكر اللحن ذات يوم ، وجدت أنني كنت بدأت أنساه تماما، نجحت في تذكره وأسرعت إلى المدرس ، المذي تكرم بتدوينه على قصاصة من الورق، فعلت هذا حتى لا أخون قسمى، لكن هل ستصدقني إذا قلت أنني ، عندما أسرعت إلى أوراقي القديمة ، في تلك الليلة في جلوريا ، كنت لم أعد أتذكر أنا أيضا اللحن ولا النص ؟ تظاهرت بأنني مخلص لقسمى ، وكانت تلك خطيئتي.

حقاً ، لا يعرف أحد بصورة محدّدة ما إذا كان سيفى أم لا بقسم، ذلك متروك للمستقبل! لهذا السبب يُعدّ دستورنا السياسى ، فى إحلاله مجرد التأكيد محل القسم ، أخلاقيًا على نحو عميق. لقد وضع حدّا لخطيئة رهيبة، أنْ ينقض المرء عهده يظلّ عملا غير مخلص ، لكن أيّ شخص يخاف الرب أكثر من الناس ، لا يجد بأسا فى الكذب نادرا ، مدركا أن ذلك لن يضع روحه فى المطهر، لا تخلط بين المطهر والجحيم ، الذي هو هلاك أبديّ، المطهر مكتب رهنيات يُقرض على كافة الفضائل ، مقابل فائدة مرتفعة وأجل قصير، لكن الأجل يمكن تجديده إلى أن تعوض فضيلة متوسطة الأهمية أو فضيلتان ، ذات يوم ، عن كافة خطايا المرء الكبيرة والصغيرة.

## ١١٥- شكوك فوق شكوك

لنَعُدُ الآن إلى المطالب ... ولماذا ينبغى أن نعود إلى المطالب؟ يعلم الله كم هو مزعج أن تُرفع بها دعوى ، ناهيك بروايتها، فيما يتعلّق بالظرف الجديد الذي جاء إسكوبار بنبا عنه ، لن أقول ما قلته له في حينه: هو لا يساوى شيئا,

- « لا شے ہے؟ »،
- « لا شيء تقريبا ».
- « إذن يساوى شيئا ».
- « كشىء يعزّن موقفنا ، يساوى أقلّ من الشاى الذى ستشربه الآن
  - « الوقت متأخر جدا على الشاي »،
    - « سنشريه بسرعة »،

شربناه بسرعة. في غضون ذلك نظر إلى إسكوبار بارتياب ، وكأنه اعتقد أننى رفضت المطلب الإضافي بقصد التهرب من إحالته إلى القضاء؛ لكن هذا الارتياب كان يتعارض مع صداقتنا.

عندما انصرف ، ذكرتُ هذه الشكوك لكاپيتو، بدّدتْها تماما بذلك الفن البارع الذي امتلكتُه: لباقة ، كياسة هي سيدتها ، قادرة على تبديد أحزان أوليمبيو\*.

« لابد أنه موضوع دعوى المطالب » ، أنهت حديثها ، « وإذا كان جاء قاطعا كل هذا الطريق إلى هنا في هذه الساعة ، فهذا يعنى أنه متأثّر بشدة بالقضية ».

<sup>\*</sup> أوليمبيو: اسم شعرى لڤيكتور هيجو في قصائده « حزن أوليمبيو » Tristesse d'Olympio – المترجم.

« أنت على حقّ »،

أفضت كلمة إلى أخرى ، وتكلّمت أنا عن شكوك أخرى. كنت ينبوعا من الشكوك ؛ كانت تنق داخلى مثل ضفادع حقيقية ، إلى أن سرقت نومى أحيانا، قلت لها أننى بدأت أعتبر أمى فاترة وغير ودودة إزاها بعض الشيء. لكن الفن البارع لكاييتو كان ندًا لهذا أيضا.

« سبق أن قلتُ لك ما السبب: أسلوب الحماة، أمك الصغيرة غيورة، بمجرّد أن تُزايلها الغيرة ويُعاودها الاشتياق ، ستعود كما كانت، عندما تفتقد حفدها... »

« لكننى لاحظتُ أنها فاترة مع حزقيال أيضا، عندما أحضره لرؤيتها ، لا تلقاه بنفس التلهّف الذي كانت تلقاه به من قبل » ،

« مَنْ يدرى ، ربما لم تكن على ما يرام ».

« هل سنتغدّى معها غدا ؟ »،

« لنفعلُ ... لا ... نعم ، لنفعلُ ».

تغدينا مع أمى العجوز. كان بإمكانك أن تصفها بذلك فى ذلك الحين ، رغم أن خصلات شعرها لم تكن كلها بيضاء ولا بيضاء تماما ، وكان وجهها ناضرا بعض الشيء: كان نوعا من شباب الخمسين أو القدم المترف ، اختر ما شئت ... لكن لا سوداوية إطلاقا ! لن أشير إلى اغروراق عينيها عندما أتينا وعندما انصرفنا لم يكن لديها ما تقول ومع ذلك لم تكن مختلفة عن المعتاد . تكلم چوزيه دياس عن الزواج ومحاسنه ، عن أوروبا وعن الهوميوباثيا ؛ والخال كوزمه عن أوجاعه وألامه ؛ وابنة العم چوستينا عن الجيران ، أو عن چوزيه دياس عندما كان خارج الحجرة .

عندما انصرفنا عائدين إلى البيت ، وكان الليل حلّ ، سرنا على الأقدام ، ونحن نناقش شكوكى. مرة أخرى نصحت كاپيتو بأن نصبر، كلّ

الحموات يبدأن كذلك؛ ثم يأتى يوم ويتغيّرن. بينما كانت تتكلم ، ازدادت رقتها من جديد. منذ ذلك الوقت فصاعدا ازدادت لطفا معى، لم تنتظرنى على النافذة ، حتى لا تثير غيرتى ، لكن عندما كنت أضع قدمى على الدرّج ، هناك فى أعلى السلّم ، عبر الحاجز الحديدى للبوابة ، كنت أرى الوجه الجميل لعروسى الحبيبة ، مبتسما مثلما كانت طفولتنا بأسرها. كان حزقيال ينتظر معها أحيانا. كنّا عودناه على رؤية قبلة صباحنا وقبلة مسائنا ، وكان يغطى وجهى بقبلاته الصغيرة.

## ١١٦- ابن الإنسيان

استطلعتُ رأى چوزيه دياس فى تغيَّر سلوك أمى، اندهش، لم يكن هناك أىّ شىء ، لم يكن من الممكن أن يكون هناك أىّ شىء - وإلاّ لما ظلَّ يسمع كل هذا المديح الذى لا ينقطع « لكاپيتو الجميلة والفاضلة ».

« الآن ، عندما أسمع هذا ، أنضم أنا أيضا إلى الجوقة ؛ لكننى كنتُ فى البداية الأكثر مهانة. بالنسبة لشخص ، مثلى ، رفض من قبلُ أن يقبل بهذا الزواج ، كان من الصعوبة بمكان أن أقر بأنها كانت نعمة حقيقية من السماء. يا لها من سيدة فاضلة هذه التى صارت إليها تلك الطفلة العابثة من ماتاكاڤايوس ! كان أبوها هو الذى فرق بيننا لبعض الوقت ، قبل أن نعرف بعضنا ، لكن كل شيء انتهى إلى ما يرام، صحيح حقا ، عندما تمتدح دوناجلوريا زوجة ابنها وأختها ... »

- « ماما ؟ »،
- « أي نعم ! ».
- « لكن لماذا لم تزرنا كل هذا الوقت ؟ ».
- « أعتقد أنها تتألم من الروماتيزم في الآونة الأخيرة. كانت هذه

السنة باردة جدا ... فكر فقط في مدى بؤسها - هي التي اعتادت أن

السنة باردة جدا ... فكر فقط فى مدى بؤسها - هى التى اعتادت ان تذهب وتجىء طوال اليوم ، والتى تجد نفسها الآن مُجبرة على أن تبقى هادئة ، إلى جانب أخيها الذى له بلواه أيضا ... »

أردتُ أن ألاحظ أن هذا السبب يفسر انقطاع الزيارات ، وليس الفتور عندما نذهب إلى ماتاكاڤايوس؛ لكننى لم أدفع ألفتى مع تابعنا إلى ذلك المدى. طلب چوزيه دياس أن يرى « نبيّنا الصغير » (هكذا كان يسمى حزقيال) واهتم به اهتماما شديدا كالمعتاد. تكلم هذه المرة بأسلوب الكتاب المقدس (كان تصفّح سفر حزقيال في الليلة السابقة كما علمت في وقت لاحق) ، وظل يسائه ، « كيف الحال ، يا ابن الإنسان ؟ » « قُلْ لي ، يا ابن الإنسان ؟ » « تُريد حلوى ، يا ابن الإنسان ؟ » « قُلْ

« ما حكاية ابن الإنسان هذه ؟ » سألتُ كاييتو بحدّة،

« هي طريقة الكلام في الكتاب المقدّس ».

« حسنا ، أنا لا أحبِّها » ، ردَّتْ.

« أنت على حقّ » ، وافق التابع. « أنت لا تتصورين كم يمتلى » الكتاب المقدّس بالتعبيرات الفظّة وغير المهذّبة، كنّتُ أتكلم بتلك الطريقة من باب التغيير ... كيف حالك ، يا ملاكى الصغير ؟ يا ملاكى ، كيف أمشى أنا في الشارع؟ ».

« لا » ، قاطعت كاپيتى ، « أنا أحاول حمله على الإقلاع عن عادة تقليد الناس هذه ».

« لكنه مسلُّ جدًا؛ عندما يُحاكى حركاتى ، يبدو وكأنه أنا نفسى بحجم مصغر، فى يوم من الأيام حدث أن قلّد إحدى حركات دونا جلوريا بكل إتقان إلى حدَّ أنها أعطته قبلة مقابل ذلك، تعالَ ، كيف أمشى ؟ ».

« لا ، يا حزقيال » ، قلتُ أنا ، « ماما قالت < لا > ».

أنا أيضا كنتُ أجدها عادة غير سارّة، بعض الحركات كانت

تتحول إلى عادات له ، مثل حركات يدى وقدمى إسكوبار تلك. ومنذ عهد قريب كان التقـط حتى نفس طريقة إدارة رأسه عندما كان يتحدّث ، وطريقة جعله يسقط عندما كان يضحك. كاپيتو وبّخت لكن الطفل كان عابثا كالشيطان ؛ ولم نكد نبدأ الحديث في شيء آخر ، حتى قفز إلى وسط الحجرة ، وهو يصيح بجوزيه دياس:

« أنتَ تمشى هكذا ، يا سنيور ».

لم نتمالك أنفسنا من الضحك ، وأنا أكثر من الجميع. وكان أول شخص توقف عن الضحك ، ووبّخه ، واستدعاه إليه ، هو كابيتو.

« لن أسمح بذلك ، هل تسمع؟ ».

## ١١٧- أصدقاء وجيران

فى تلك الفترة كان إسكوبار غادر أنداراى فعلا واشترى بيتا فى فلامنجو، وهو بيت رأيتُه لا يزال هناك، منذ أيام قليلة، عندما أحسست بدافع إلى أن أختبر ما إذا كانت الأحاسيس القديمة ماتت أو أنها نائمة لا غير، لا يمكننى أن أعرف تماما لأن النوم، عندما يكون ثقيلا، يمزج الحى مع الميت، فيما عدا أن الحى يتنفس، كنتُ أتنفس ، لكن ( ربما بسبب البحر ) بشىء من الصعوبة، أخيرا واصلتُ السير، وأشعلتُ سيجارًا، ووجدتُ نفسى فى كاتيته ؛ كنتُ وصلتُ إلى شارع پرنسيزا، وهو شارع قديم ... أيتها الشوارع القديمة ! أيتها البيوت القديمة ! أيتها الأرجُل القديمة ! كنا كلنا قدماء، ولا حاجة إلى أن أقول ، بأسوأ معنى؛ أي حدماء وانتهى أمرنا.

رغم أن البيت قديم ، لا شيء تغير. لا أعرف إلا أنه لا يزال يحمل نفس الرقم، أن أقول ما هو الرقم ما دمتُ لا أريدك أن تذهب إلى هناك

وتستكشف القصة. ليس معنى ذلك أن إسكوبار لا يزال يحيا هناك ، أو حتى يحيا، مات بعد ذلك بوقت قصير ، بطريقة سأصفها، عندما كان لا يزال حيا ، كان لنا ، لأننا كنا قريبين جدا ، بيت واحد ، إن جاز القول؛ عشت في بيته وهو في بيتى ، وكان شريط الشاطىء بين جلوريا وفلامنجو أشبه بحق خصوصى في الطريق، جعلني ذلك أفكر في بيتني ماتاكاڤايوس ، بحائط بينهما.

مؤرّخ ، كان يكتب بلغتنا ، أعتقد أنه جوان ده باروس ، يضع في فم ملك بربرى ما كلمات نبيلة ، نُطق بها في وقت كان البرتغاليون يعتزمون فيه إقامة حصن مجاور، قال الملك أن الأصدقاء الجيِّدين ينبغي أن يظلُّوا متباعدين ، لا قريبين ، حتى لا يثوروا ضدّ بعضهم ، مثل مياه البحر التي كانت تتكسّر بعنف على الجرف الصخرى الذي كان يُرى من حيث كانوا. ليصفح عنى طيف الكاتب المتوفّى إذا ارتبت في أن الملك قال أيّ شيء من هذا القبيل ، أو حتى صدق هذا القول. من المحتمل أن الكاتب نفسه اخترع هذا الكلام ليزيّن به نصبه ، وكان محقًا تماما ، لأنه كلام جميل ، حقًا جميل، وأنا أعتقد أن البحر كان يتكسَّر فعلا على الصخور ، كما كانت عادته ، منذ يوليسيس وحتى قبله، لكن فيما يتعلق بصدق المقارنة ، لا ، أنا لا أعتقد ذلك. طبعا هناك أعداء متجاورون ، لكن هناك أيضا أصدقاء ، قريبون في المكان وكذلك في قلوب كل منهم الآخر. نسى الكاتب ( إلا ، بالطبع ، إنَّ كان أتى بعده ) المثل القائل ، « البعيد عن العين ، بعيد عن القلب »، لم يكن لقلوينا أن تكون أقرب إلى يعضها مما كانت. عاشت زوجتانا ، كل واحدة في بيت الأخرى. كنَّا نقضي أمسياتنا هنا أو هناك ، نتحادث ، أو نلعب الورق ، أو نحملق في البحر. وكان الصغيران يقضيان نهارهما ، تارة في فلامنجو، وتارة في جلوريا،

عندما حدث أن قلتُ أن ما جرى بين كاپيتو وبيني قد يجرى أيضا

بينهما ، كان الآخرون جميعا يعتقدون ذلك أيضًا ، وأضافت سانشا أنهما كانا يتزايدان تشابها أيضًا. فُسرّتُ:

« لا ، ذلك لأن حزقيال يقلّد حركات الآخرين ».

وافقنى إسكوبار ، وأشار إلى أن الأطفال الذين يكونون معا دائما ينتهون أحيانا إلى أن يتشابهوا ، أومأتُ موافقا ، كما كنت أفعل عادة في الأمور التي لا رأى لى فيها بطريقة أو أخرى . كان أي شيء ممكنا . كانا دون شك يُحبّان بعضهما للغاية ، وكان من الممكن أن ينتهى الأمر إلى الزواج ، لكنه لم ينته إلى الزواج ،

#### ١١٨- يدُ سانشيا

كل شيء يصل إلى نهاية ، أيها القارىء، إنها بديهية قديمة يمكن أن يُضاف إليها أنه ليس كل شيء يدوم ، يدوم طويلا. هذا الجانب الأخير لا يتم التسليم به بسهولة ؛ على العكس من ذلك فإن فكرة أن قصراً من الهواء يدوم أطول من ذات الهواء الذي بني منه من الصعب انتزاعها من رأس شخص ، وهذا من حُسن الحظ ؛ وإلا فريما فقدت عادة إقامة تلك الماني الخالدة تقريبا.

كان قصرنا صلبا ، لكن فى أحد الآحاد ... فى الليلة السابقة ، كنّا قضينا المساء فى فلامنجو ، ليس فقط الأسرتان الحميمتان اللـتان لا تنفصلان ، بل أيضا التابع وابنة العم چوستينا. فى تلك الليلة ، بينما وقفنا نتحادث عند النافذة ، قال لى إسكوبار أننا ينبغى أن نعود ونتغدى هناك فى اليوم التالى؛ وأن من الضرورى أن نناقش مشروعا عائليا ، مشروعا من أحلنا نحن الأربعة.

« من أجلنا نحن الأربعة ؟ رقصة كادريل ؟ »،

« لا. لن تخمَّن أبدا ما هو، وأنا لن أقول لك، تعالوا غدا ».

لم تتركنا عينا سانشا أثناء حديثنا عند تجويف النافذة. عندما ابتعد زوجها ، أتت إلى سائتنى عم كنا نتحدث قلت لها ، « حول مشروع من أجل شيء ما لكننى لا أعرف ما هو ». طلبت منى ألا أقول شيئا ، ثم أفضت إلى بالموضوع: رحلة إلى أوروبا بعد سنتين، قالت لى هذا وظهرها إلى الحجرة ، بتلهّف تقريبا. كانت الأمواج تتكسر بعنف على طول الساحل؛ ثم تنحسر بغعل التيار تحت سطح البحر،

« نسافر كلّنا ؟ » سألتُ أخيرا.

« نعم ، كلّنا ».

رفعت سانشا رأسها ونظرت إلى بفرح شديد إلى حد أننى وددت ، لانها كانت الصديقة الحميمة لكاپيتو ، لو قبلتها على جبينها غير أن عينى سانشا لم تكونا تطلبان صراحة أخوية - كانتا تبدوان مثيرتين وملحّتين ، كانتا تقولان شيئا ما مختلفا تماما ، وسرعان ما تحركت مبتعدة عن النافذة ، حيث بقيت أنا أنظر متأمّلا نحو البحر، وكان الليل صافيا ،

من زاويتى ، فتشت عن عينى سانشا ، قُرْبَ البيانو: التقت عيناى بعينيها فى الطريق. ظلّت عيوننا واقفة ، وظلّت تُواجه بعضها ، زوج منها ينتظر الزوج الآخر ليمر ، لكن لم يمر أى منهما ، تماما كما يحدث على ممر ضيق عندما يتلاقى مسافران عنيدان، احتفظ الحذر بنا متباعدين ؛ وعُدت أنا إلى المشهد فيما وراء النافذة. بدأت أحفر فى أعماق ذاكرتى، هل حدث فى يوم ما أن نظرت إليها بتعبير كهذا ؟ لم أكن واثقا. كنت واثقا فى شيء واحد فقط ، فى أننى ذات يوم فكرت فيها كما يفكر المرء فى مجهولة جميلة تمر ؛ لكن لنفترض أنها خمنت ... ربما تجلّت مجرد الفكرة من خلالى ، فتحاشتني عندئذ ، مغتاظة أو خجلانة ، والآن إلحاح

لا يُقاوَم ... لا يُقاوَم: كانت هذه الكلمة أشبه بالبّركة التي يمنحها الكاهن في قدّاس ، والتي يتلقّاها ويردّدها كلّ شخص في سرّه.

« غدا ، سيكون البحر تحدياً » ، كان ذلك صوت إسكوبار ، الذي كان يقف إلى جانبي،

« تنوى أن تسبح في ذلك البحر غدا ؟ ».

« نزلت البحر فيما هو أسوأ ، أسوأ كثيرا، لا يمكنك أن تتصوّر كيف يكون بحر متوحّش للغاية، لابد للمرء أن يسبح جيدا ، كما أسبح أنا ، وأن تكون لديه هاتان الرئتان »، قال وهو يدق على صدره ، « وهذان الذراعان، جُسنُهما ».

جسستهما ، وكأننى أجس دراعي سانشا. يؤلنى أن أدلى بهذا الاعتراف ، لكننى لا أستطيع أن أكتمه ؛ ذلك سيعنى تشويش الحقيقة. لم تكن لدى هذه الفكرة وحدها – بل أيضا ، وأنا أجس دراعيه ، وجدتُهما أغلظ وأقوى من دراعي أنا ، وحسدتُهما؛ إلى جانب أنهما كانا قادرين على أن يسبحا.

بينما كنّا ننصرف ، تكلّمت عيناى مرة أخرى مع سيّدة البيت. يدها ضغطت على يدى ، وتريّثت هناك أطول من المعتاد.

كان التواضع يقتضى آنذاك ، كما يقتضى الآن ، أن أرى فى بادرة سانشا استحسانا لمشروع زوجها وسعادة به، لابد أنها كانت كذلك ، لكن تيارا غريبا مر عبر كل جسدى أرغمنى على رفض هذا الاستنتاج الذى كتبتُه لتوى. ولا أزال أحس بأصابع سانشا تضغط على أصابعى ، وبأصابعى على أصابعها. كانت لحظة من الجنون والخطيئة. مررت بسرعة ، وعندما أدنيت ساعة العمر والحياة من أذنى ، لم أسمع سوى دقائق الفضيلة والرشد تُتكتك مبتعدة.

« ... سيّدة جميلة جدا » ، كانت الكلمات الختامية في الخطبة التي

كان يُلقيها جوزيه دياس.

« جميلة جدا! » كرّرتُ بعاطفة ، ثم خفّفتُ في الحال ، وصحّحتُ نفسي: « حقّا ، أمسية جميلة! ».

« كما ينبغى لكل أمسيات ذلك البيت أن تكون » ، واصل التأبع. « في الخارج هنا ، لا ؛ في الخارج هنا البحر غاضب، أصنع ».

سمعنا هدير البحر – كما سمعناه من البيت – وكان انحسار التيار السفلى قويًا ، وعلى مبعدة كان بوسعنا أن نرى الأمواج تثور في ارتفاعات ضخمة. كاپيتو وابنة العم چوستينا ، اللتان سارتا أمامنا ، انتظرتانا عند أحد منعطفات الساحل ، وواصلنا السير معا نحن الأربعة ، ونحن نتحادث لكنني لم أكن في حالة ملائمة للحديث لم يكن هناك نسيان ليد سانشا ، ولا للنظرات التي كنا تقايضناها ، تارة أقرأ فيها شيئا ، وتارة أخرى شيئا آخر ، كانت ثواني الشيطان قد أقحمت في دقائق الله ، وهكذا كانت الساعة تشير على التناوب إلى هلاكى وخلاصى وحريه دياس استودعنا الله على بابنا ، وكانت ابنة العم چوستينا ستقضى الليلة معنا وترحل في اليوم التالى بعد الإفطى الوقداس استودة مكتبتي ، حيث بقيت أطول من المعتاد .

صورة إسكوبار ، التى احتفظتُ بها هناك ، إلى جانب صورة أمى ، كلّمتنى وكأنها هو بلحمه وشحمه ، كافحتُ بإخلاص ضد النزوات التى جئتُ بها معى من فلامنجو ؛ وطرحتُ بعيدا عنّى طيف زوجة صديقى ، ووصفتُ نفسى بالغدر ، فضلا عن ذلك ، من ذا الذى يمكن أن يقول أنه كانت هناك نية من هذا النوع في بادرة وداعها وفي البوادر السابقة ؟ كان من المكن إرجاعها جميعا إلى اهتمامها برحلتنا . كانت سانشا وكابيتو صديقيتين حميمتين بحيث يكون سفرهما معا سعادة مُضافة بالنسبة إليهما . حتى إذا كان هناك غرض جنسى ما ، كيف

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمكننى أن أكون واثقا من أنه كان شيئا أكثر بأى حال من لحظة حسيّة خاطفة ، محكوم عليها بأن تموت مع الليل والنوم ؟ هناك وخزات ندم تنشأ من خطيئة ليست أكبر وذات أمد ليس أطول، تشبّثت بشدّة بهذا الافتراض ، وبهذا عقدت سلاما مع يد سانشا ، التي أحسست بها من الذاكرة بين يدى ، دافئة ومتريّئة ، مشبوكة وشابكة ...

بكل إخلاص ، كنتُ غير مرتاح ، واقعا في فخ بين صديق وغواية ، ربما كان الجبن أيضا صلة بالأزمة . نحن لا ندين السماء وحدها بفضائلنا ، بل الجبن أيضا صلة بالأزمة بالحظ سلكن الحظ مصادفة خالصة ؛ وأفضل ينبوع الفضيلة هو السماء . مع ذلك ، مادام الجبن يأتى من السماء ، والسماء تمنحنا طبيعتنا الخلقية ، فالفضيلة التي هي ابنة الجبن هي ، إنْ تكلّمنا من ناحية الأنساب ، من نفس السلالة السماوية . تلك هي الطريقة التي كنت سأفكر بها ، لو استطعت ؛ لكنني في البداية كنتُ أهذى دون تفكير . لم يكن الهوى أو الحب . أكان النزوة أم ماذا ؟ بعد عشرين دقيقة كان لا شيء ، لا شيء مطلقا . صورة إسكوبار بدا أنها تكلّمني ؛ رأيتُ سلوكه الصريح والبسيط ، وهزرْتُ رأسي ، بدا أنها تكلّمني ؛ رأيتُ سلوكه الصريح والبسيط ، وهزرْتُ رأسي ، وخرجتُ لأذهب إلى الفراش .

## ١١٩- لا تفعلي ذلك، يا عزيزتي!

السيدة القارئة ، التى هى صديقتى والتى فتحت هذا الكتاب بفكرة الاستجمام بين كافاتينا الأمس وفالس اليوم ، ستود أن تغلقه مُسرعة إذ تُدرك الآن أننا نصوم حول هاوية ... لا تفعلى ذلك يا عزيزتى؛ سأنعطف.

## ١٢٠- أوراق قانونيسة

استيقظتُ في اليوم التالى متخلّصا من فظائع الليل، اعتبرتُها هلوسات ، وشريتُ القهوة ، وتصفحتُ الصّحُف ، وبدأتُ أدرس بعض الأوراق القانونية – إحدى قضاياى، انصرفتْ كاپيتو وابنة العم چوستينا إلى قدّاس الساعة التاسعة في لاپا، اختفى طيف سانشا تماما وسط دعاوى الطرف المضاد ، التي كنتُ أطلع عليها في الوثائق ، وكانت دعاوى زائفة ، غير مقبولة ، بلا سند من القانون أو العرف، ورأيتُ أنه سيكون من السهل كسب القضية ؛ وراجعتُ دايوس ، پيريرا إه سوزا ...

مرة واحدة فقط تطلّعت بسرعة إلى صورة إسكوبار. كانت صورة فوتوغرافية جميلة ، التُقطت في السنة السابقة. كان واقفا مُزرّر الردنجوت ، يده اليسرى على ظهر كرسى ، واليد اليمنى على صدره ، يحدّق بعيدا إلى يسار المُشاهد. كانت ذات أناقة وبساطة. الإطار كنت اضطررت إلى طلب أن يُصنع بحيث لا يغطني الإهداء الذي كان مكتوبا في الأسفل ، وليس على الظهر: « إلى عزيزى بنتينيو – المخلص له إسكوبار ٢٠-٤-٧٠ ». هذه الكلمات عزّزت أفكارى في ذلبك الصباح وصدت ذكريات المساء السابق. في تلك الأيام كان نظرى جيدا ؛ كان بإمكاني أن أقرأ الإهداء من حيث كنت جالسا، وعُدت إلى أوراقي القانونية.

## ١٢١ - الكارثـــة

وأنا منهمك فى ذلك سمعتُ وقع أقدام عجلى على السلاله ، والجرس يدق ، ثم شخصا ما يصفق بيديه ، وطرقا على البوابة ذات الحاجز الحديدى - أصوات ، والكل يُسرعون للردّ. كان عبدًا من بيت سانشا استدعاني:

« للذهاب هذاك ... السنيون يسبح ، السنيون يموت »،

ذلك كل ما قال ، أو أننى لم أسمع الباقى، لبست ، وتركت رسالة لكاييتو ، وأسرعت إلى فلامنجو.

وأنا أجرى ، حدستُ الحقيقة. كان إسكوبار ذهب من أجل سباحته المعتادة ، وغامر إلى مدى أبعد من المعتاد رغم الأمواج الثائرة ، فغلبتُه الأمواج وغرق، وعجزتُ قوارب الإنقاذ عن أن تقوم بأكثر من العودة بجثّته.

## ١٢٢- الجنبازة

الأرملة ... سأعفيك من دموع الأرملة ، ودموعى ، ودموع الآخرين، انصرفت حوالى الحادية عشرة، كانت كاپيتو وابنة العم چوستينا فى انتظارى ، الأولى بنظرة كئيبة بليدة ، والأخرى أكثر قليلا من أن تكون منزعجة.

« اذهبى لتكونى بصحبة سانشينيا، سأرتب للجنازة ».

كان ذلك ما فعلناه، قرّرتُ أنا أن تكون الجنازة ذات أبهة ومهابة، كان هناك عدد ضخم من الحاضرين من أصدقائه - الشاطىء، الشوارع، ميدان جلوريا، كانت كلها تغصّ بالعربات، كثير منها خاصنة،

erted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأن البيت لم يكن واسعا ، لم يتسع للجميع ؛ وقف كثيرون على الشاطىء يتناقشون الحادث ، يُشيرون إلى المكان الذى لقى فيه إسكوبار حتفه ، يُصغون إلى حكاية كيف تم المجىء بالجثة. كما سمعهم چوزيه دياس يتكلمون عن الشئون التجارية للراحل ، ويُدلون باراء مختلفة حول قيمة ضيعته ، رغم اتفاقهم على أن ديونه قليلة. امتدحوا امتياز شخصية إسكوبار. ناقش شخص أو شخصان المجلس الاستشارى الجديد لولاية ريوبرانكو: كان ذلك في مارس ١٨٧١. لم أنْس أبدا الشهر أو السنة.

لماً كنتُ قررتُ أن ألقى خطبة على المقبرة ، كتبتُ سطورا قليلة في البيت ، وأطلعتُ عليها چوزيه دياس ، الذي رأى أنها جديرة حقيقة بالرجل المتوفى وبي. طلب منى الورقة ، وقرأ الخطبة بصوت مرتفع ، بتمهّل ، وهو يزن الكلمات ، وأعاد تأكيد حكمه الأول. نشر الخبر في أنحاء فلامنجو، وأتى إلى عديد من المعارف وسالوا:

« إذن سنسمع منك ؟ ».

« کلمتین ».

كانت الكلمات أكثر قليلا، كنت كتبتها لأننى خشيت أن تمنع مشاعرى الارتجال، فى العربة الخفيفة التى تجوّلت فيها ساعتين ، لم أقم بشىء سوى تذكّر أيام المعهد الدينى ، ألفتى الحميمة مع إسكوبار ، تعاطفنا ، صداقتنا ، وهى تبدأ ، وهى تتواصل ، فلا يعترضها شىء أبدا ، إلى أن فرقت ضربة قدر إلى الأبد مخلوقين كانا تواعدا على البقاء متآلفين زمنا طويلا من حين لآخر كنت أمسح دموعى، كان السائق غامر بسؤالين أو ثلاثة بخصوص حالتى المعنوية ، ولما لم يخرج منى بشىء واصل القيام بوظيفته . وعندما عدت إلى البيت ، كنت وضعت تلك المشاعر على الورق ؛ وكانت هذه خطبتى،

erted by 11ff Combine - (no stamps are applied by registered version)

#### 

أخيرا جاءت الساعة التي نستودع فيها الله الروح - والفراق أرادت سانشا أن تودع زوجها وداعا أخيرا ، وملأنا جميعا يأس تلك المحاولة بالحزن والرثاء، بكي كثير من الرجال ؛ وكل النساء، وحدها كابيتو ، التي كانت تشد من أزر الأرملة ، بدت قادرة على ضبط نفسها، وبينما كانت تُواسى الأخرى ، حاولت أن تسحبها بعيدا. كان الاضطراب شاملا، وسط كل هذا ، حملقت كابيتو لثوان قليلة في الجثة ، حملقت بتركيز شديد ، بتركيز مشبوب العاطفة ، فلا عجب أن طفرت دموع من عينيها ، دموع قليلة هادئة ...

انقطعت دموعى أنا فى الحال، وقفت أنظر إلى دموعها؛ مسحتها على عجل ، وهى تُلقى نظرة مختلسة على الناس فى الحجرة، ضاعفت عناقها لصديقتها ، وحاولت أن تأخذها بعيدا ، لكن بدا أن الجثة قيدتها هى أيضا كانت هناك لحظة تفرست فيها عينا كابيتو فى الميت تماما كما فعلت عينا الأرملة ، وإن بدون بكائها أو أي كلمات مصاحبة ، لكنهما كانتا كبيرتين وواسعتين مثل موجة تعلو وتهبط فى البحر من ورائها ، وكأنها هى أيضا أرادت أن تبتلع السابح ذلك الصباح.

#### ١٧٤- الخطيسة

« هيًا ، جاء الوقت ... » كان ذلك چوزيه دياس يحتّنى على إغلاق التابوت. أغلقناه ، وأمسكتُ أنا بأحد المقابض؛ وعندئذ بدأ الاضطراب الأخير. وأصدتُقك القول ، عندما وصلتُ إلى الباب ، ورأيتُ أشعة الشمس الساطعة ، وكلّ الناس والعربات ، والرؤوس العارية ، أحسستُ بواحدة من

نزواتى تلك التى لا تصل أبدا إلى التنفيذ: أن ألقى بالصندوق ، والجثة ، وكل شيء ، إلى الشارع. في العربة طلبت من چوزيه دياس أن يمسك لسانه. في الجبّانة كان على أن أكرّر طقس البيت ، وأفك الأربطة ، وأساعد في حمل التابوت إلى القبر. يمكنك أن تتصور كم كلّفني هذا . بعد أن تم إنزال الجثة في القبر ، جيء بالجير والجاروف، لابد أنك تعرف كل شيء عن هذا ، لكن ما لا تعرفه ، ولا أحد من أصدقائك يمكنه أن يعرفه ، أيها القارىء ، ولا أي شخص سواى أنا ، هو الحالة التي كنت فيها عندما رأيت كل تلك العيون على ، والأقدام الساكنة ، والآذان المنتبهة ، وبعد انقضاء عدة ثوان من الصمت الكلّي ، سمعت همسة مبهمة ، وأصواتا مستفسرة ، ولا حظت نظرات ، فيما قال شخص ما ، چوزيه وإصواتا مستفسرة ، ولا حظت نظرات ، فيما قال شخص ما ، چوزيه دياس ، في أذني:

« هيا ، تكلّم ».

إنها الخطبة، كانوا ينتظرون الخطبة، كانت من حقّهم؛ كان سبق إعلانها، بطريقة آلية ، وضعت يدى في جيبى ، وأخرجت الورقة ، وقرأت بتدفّق مجنون – ليس كلها ، ولا بلا تلعثم ، ولا بوضوح ؛ بدا أن صوتى يدخل بدلا من أن يخرج ، وارتجفت يداى، لم يكن الانفعال الجديد وحده هو الذى أدى إلى ذلك ، بل النص ذاته ، وذكريات صديقى ، والصب والحزن المعترف بهما ، وامتداح شخصه وكفاته ؛ كل هذا الذى كنت مرغما على قوله ولم أنطق به إلا بكل صعوبة، في الوقت ذاته ، خائفا من أن يخمّنوا الحقيقة ، جاهدت لأخفيها، أعتقد أن قليلين سمعوني ، لكن الموقف العلم كان موقف الفهم والاستحسان، والأيدى التى مُدّت إلى لأصافحها قدّمت بمودة، قال بعضهم ، « عظيم جدا ! أحسنت ! رائع ! » لأصافحها قدّمت بمودة، قال بعضهم ، « عظيم جدا ! أحسنت ! رائع ! » شخص ، بدا أن مراسل صحفى ، إذنا بنشر المخطوطة. ولابعد أن تشوّشى الشديد هو الذى جعلنى أرفض مثل هذا المطلب البسيط.

#### ١٢٥- مقارنسة

اعتبر پريام نفسه أتعس البشر لأنه قبل يد ذلك الذى ذبح ابنه، هوميروس هو الذى يروى القصة ، وهو مؤلّف جيّد رغم أنه يتكلّم نظماً لكن ذلك سُرُوداً دقيقة نظما ، حتى بالنظم الردىء. قارنْ موقف پريام بموقفى، امتدحت لتوّى الرجل الذى تلقّى ، وإنْ كان ميّتا ، تحديق تلكما العينين ... كان من المستحيل لهوميروس ما ألاّ يستخلص مشهدا أكثر تأثيرا بكثير من موقفى ، أو على الأقل مشهدا جيدا بنفس القدر. ولا تقل لى أننا نفتقر إلى هوميروسات للسبب المشار إليه عند كامونس. لا ، يا سينور ، نحن نفتقر إليهم ، هذا صحيح ، لكن ذلك لأن الپريامات يُخفون أنفسهم في خمول الذكر والصمت، ودموعهم ، إذا ذرفوها ، تُمستح خلف الأبواب حتى تبدو وجوههم مشرقة ونظيفة، حديثهم من البهجة أكثر منه مسن الكابة ، ويمضى كل شيء وكأن أخيل لم ينبح هكتور.

#### ١٢٦- تا متسل

على مسافة بسيطة من الجبّانة ، مزّقتُ الخطبة وألقيتُ بقطع الورق من نافذة العربة ، رغم محاولات چوزيه دياس لمنعى،

« ليست جيدة » ، قلتُ له ، « وبينما كان يمكن أن يُغرينى أن أدع شخصا ما ينشرها ، قُضى عليها الآن مرة وإلى الأبد، ليست جيدة ، وهى لا تساوى شيئا ».

أثبت چوزيه دياس بإسهاب شديد أن العكس هو الصحيح. ثم

امتدح الجنازة ، وكخاتمة ألقى مديحا عن المتوفّى: شخصية عظيمة ، عقل نشط ، قلب نزيه ، صديق ، صديق جيد ، جدير بالزوجة المحبّة جدا التى وهبها الرب إباه ...

عند هذه النقطة من الخطبة ، تركتُه يواصل محدثًا نفسه ، و دأت أتأمل. كانت تأملاتي قاتمة ومشوَّشة فعجزتُ عن أن أجد طريقي بينها . في كاتيته أوقفتُ العربة ، وطلبتُ من چوزيه دياس أن يذهب إلى السيدتين في فلامنجو فيأخذهما إلى البيت ؛ وسأواصل سيرا على الأقدام.

« لكن ... »

« أريد القيام بزيارة ».

كان السبب وراء ذلك أن أكمل تأملى وأتّخذ قراراً ما سيكون ملائما للحظة. مضت العربة أسرع من رجلى ؛ الأخيرتان قد تتمهّلان أولا ، تُخفقان الخطو ، تتوقفان ، تُقفلان راجعتين على الطريق ، وتتركان رأسى يتأمل كما يشاء. سبق أن قارنت بادرة سانشا في المساء السابق بيأسها في ذلك اليوم ؛ كانا على طرفي نقيض. كانت حقا أكثر أرملة بيأسها في ذلك اليوم ؛ كانا على طرفي نقيض. كانت حقا أكثر أرملة إخلاصا. هكذا تلاشي تماما الوهم الذي خلقته بغروري. ألا يمكن أن يكون نفس الشيء في حالة كابيتو ؟ حاولت أن أعيد بناء المشهد: عيناها ، الوضع الذي فاجأتها فيه ، تجمع الناس الذي كان من شأنه بطبيعة الحال أن يُرغمها على الإخفاء إنْ كان هناك ما تُخفيه، ما يظهر بطبيعة الحال أن يُرغمها على الإخفاء إنْ كان هناك ما تُخفيه، ما يظهر الأفكار والأحاسيس ، نتيجة لارتجاج العربة ومقاطعات چوزيه دياس. أما الآن ففكرت وتذكرت ، بوضوح وجيّدا . واستنتجت في قرارة نفسي أن نزوتي القديمة لا تزال تُعتم رؤيتي وتُضللني كما كان الحال دائما .

عندما وصلت إلى هذا الاستنتاج ، وصلت أيضا إلى باب بيتى ، الكننى استدرت وعدت أدراجي إلى شارع كاتيته. هل كان ما وراء ذلك

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

الشكوك التى أقلقتنى أم الحاجة التى أحسست بها إلى إقلاق كاپيتى بغيابى الممتد ؟ لنقل أنه كلا السببين. ظللت أمشى فترة غير قصيرة ، إلى أن أحسست بأننى أهدأ ، وعندئذ انطلقت إلى البيت. كانت الساعة فى أحد المخابز تدق الثامنة.

#### ١٢٧- الحسلاق

بالقرب من بيتى كان هناك حلاق يعرفنى شكلا. كان يُحبّ العزف على الكمان ، ولم يكن عزفه سيئا كما كان يمكنه أن يكون. عندما مررت كان يعزف قطعة أو أخرى. وقفت على الرصيف لأستمع (أيّ شيء يصلح كمبرّ لقلب مكروب). رأنى ومضىي يعزف. لم يتقدّم لخدمة زبون ، شم أخر ، كانا أتيا إلى هناك رغم الساعة ورغم كونه يوم الأحد ، ليعهدا بوجهيهما إلى موسى حلاقته، فقدهما دون أن يفقد نغمة ؛ كان يعزف لى، هذه المجاملة جعلتنى أذهب بصورة صريحة إلى باب الدكان وأنظر إليه مباشرة داخله، في الجزء الخلفي ، رُفعت الستارة الشيّت التي تفصل الجزء الداخلي من البيت وظهرت امرأة سمراء شابة ، بفستان زاهي اللون ، وزهرة في الرأس، أعتقد أنها كانت لاحظتنى من الداخل وجات تشكرني بحضورها على الشرف الذي أسبغتُه على زوجها ، إذا لم أكن تشكرني بحضورها على الشرف الذي أسبغتُه على زوجها ، كان يعزف في مخطئا ، قالت أيضا مثل ذلك بعينيها ، فيما تعلق بزوجها ، كان يعزف في بلك اللحظة بحماس أكبر ، لم يَر زوجته ، ولم يَر الزبونين ، ألصق وجهه بالآلة ، وانتقل روحه إلى القوس ، وأخذ يعزف ويعزف ...

أيها الفن المقدّس! كان حشد يتجمّع، تركتُ باب الدكان وسرتُ نحو البيت، تركتُ نفسى أدخل وصعدتُ السلالم صامتاً. لم أنسَ مطلقا حادث هذا الحلاق إمّا لأنه كان مرتبطا بلحظة كثيبة في حياتي ، أو بسبب

هذه الحكمة ، التي يمكن المؤلفين أن يقتطفوها ويُدخلوها في كتبهم الدراسية. والحكمة هي أننا بطيئون في نسيان الأعمال الجيدة التي نقوم بها ، والواقع أننا لا ننساها أبدا. يا للحلاق المسكين ! فقد لحيتين في تلك الليلة ، وكانتا خُبُر اليوم التالي ، كلّ ذلك لكي يسمعه عابر سبيل.

والآن هُبُ أن عابر السبيل هذا ، بدلا من المضى فى سبيله ، بقى عند الباب ليسمعه ويغازل زوجته - عندئذ ، دون شك ، كان سيعزف باستماتة ، وكله قوس ، وكله كمان أيها الفن المقدس !

#### ١٢٨- حفنة أحداث

كما كنتُ أقول ، صعدتُ السلالم صامتا ، ودفعتُ فاتحاً البوابة ، التي كانت مواربة قليلا ، وفاجأتُ ابنة العم چوستينا وچوزيه دياس يلعبان الورق في حجرة الجلوس الصغيرة القريبة. نهضتْ كاپيتو من الأريكة وجاحتْ إلىّ، كان وجهها الآن هادئا وصافيا. توقّف الآخران مؤقّتا عن لعبتهما ، وتحادثنا كلّنا عن الحادث والأرملة. لامتُ كاپيتو إسكوبار على تهوّره ، ولم تُخف الحزن الذي سبّبتُه لها محنة صديقتها. سائتُها لماذا لم تُبْقَ مع صديقتها طول الليل.

« عندها أشخاص كثيرون جدا، مع ذلك ، عرضت عليها البقاء ، لكنها رفضت قلت لها أيضا أن الأفضل لها أن تأتى إلى هنا وتقضى أياما قليلة معنا ».

« رفضت هذا أيضا ؟ »

« هذا أيضا ».

« ومع ذلك فلابد أن يكون مشهد البحر مؤلما لها ، كلّ صباح » ، قال جوزيه دياس متفكرًا ، « ولا أدرى كيف ستكون قادرة … »

« ستمرّ. ما الذي لا يمرّ ؟ » قاطعت ابنة العم چوستينا. وعندما بدأنا نتبادل كلمات حول هذه الفكرة ، غادرت كاپيتر الحجرة لترى ما إذا كان ابنها نائما. وهي تمرّ بالمرآة ، توقّفت لتسوّى شعرها ، بتمهل كان من شئنه أن يجعلني أعتقد أنه تكلّف لو لم أكن أعرف أنها كانت مغرمة بنفسها للغاية. عندما عادت كانت عيناها حمراوين. قالت لنا أنها عندما رأت ابنها نائما ، فكّرت في ابنة سانشا الصغيرة ، وفي حزن الأرملة ، ثم ، دون أن تبالى بالزائرين أو ترى ما إذا كان تصادف وجود خادم قريبا منا ، ألقت بذراعيها حولي وقالت لي أنني إذا أردت التفكير فيها يجب أن أفكر أولاً في حياتي أنا. نطق چوزيه دياس عبارة « جميلة جدا » ، وسئل كاپيتو لماذا لم تكتب الشعر مطلقا ، حاولت أن أحوّلها إلى دعابة ، وعلى هذا النحو أنهينا الأمسية.

فى اليوم التالى كنتُ آسفا على أننى مزّقتُ خطبتى – ليس لأننى أردتُ نشرها بل لأنها كانت ذكرى من ذكريات الراحل، فكّرتُ فى إعادة تأليفها ، لكن كل ما استطعتُ أن أتذكّره كان عبارات مفككة لم يكن لها معنى عندما جمعتُها، فكّرتُ أيضا فى كتابة خطبة أخرى ، لكن ذلك كان صعبا آنذاك ، وربما كان سيُدرك زيفها أولئك الذين سبق أن سمعوها على القبر، وفيما يتعلق بجمع مزّق الورق التى ألقيتُ بها إلى الشارع ، كان الأوان فات، لابدٌ أنه كان تم كنسها فعلا،

أجريتُ جرداً لهدايا إسكوبار: كُتُب ، محبرة برونزية ، عصا برأس من العاج ، طائر ، ألبوم كاپيتو ، منظران طبيعيان من پارانا ، وهدايا أخرى، هو أيضا كان تلقّى بعض الهدايا منّى. كان من عادتنا أن نتبادل المتذكارات والهدايا من هذا القبيل في أعياد الميلاد ، أو بلا سبب محدد. كلّ هذا جعل عيني تُعتمان. ثم جاءتُ جرائد اليوم: قدّمتُ رواية لحادث ولوفاة إسكوبار ، لتعليمه ولمشاريعه التجارية ، سجاياه الشخصية ،

اهتمام عالم التجارة ، وتكلّمت أيضا عن الأموال التي تركها ، وعن زوجته وابنته. كلّ هذا كان يوم الاثنين، يوم الثلاثاء فتحت الوصية : عيّنتنى منفّذا بديلا ؛ وكان المكان الأول من نصيب زوجته، لم يترك لى أيّ شيء ، لكن الكلمات التي كتبها إلى في رسالة مستقلة كانت سامية في تعبيرها عن الصداقة والتقدير، في هذه المرة بكت كاپيتو بدمع غزير ، لكنها هدّأت نفسها بسرعة،

الوصية ، الجرد ، كلّ شيء جرى بنفس السرعة التي رُوى بها هنا تقريبا. وبعد فترة قصيرة ، انسحبت سانشا إلى موطن أقاربها في يارانا.

### ١٢٩ – إلى دونا سانشيا

يونا سانشا ، أتوسل إليك ألا تقرئى هذا الكتاب ! أو ، إذا كنت قرأت لغاية هنا ، اتركى الباقى. ليس عليك إلا أن تقفليه ! بل الأفضل أن تحرقيه ، حتى لا يكون مُغريا لك بأن تفتحيه مرة أخرى. إذا كنت ، رغم تحذيرى ، عاقدة العزم على الاستمرار إلى النهاية ، فالخطأ خطؤك ! لن أكون مسؤولا عن الألم الذى تُوشكين على تلقيه، ما أصبتك به من قبل بوصف بوادر ذلك الأحد البعيد – انتهى كله ، لأن الأحداث ، وأنا معها ، كذّبت وهمى ! لكن ما سياتى الآن لا يمكن محوه، لا ، يا عزيرتى ، لا تقرئى أكثر، استمرّى واكبرى ، بلا زوج ، بلا طفل ، كما أفعل وهذا أيضا أفضل ما يفعل المرء بعد أن يكون الشباب وأى. وذات يوم سنذهب من هنا إلى بوابة الفردوس حيث نلتقى مرّة أخرى ، متجدّدين كالنباتات من هنا إلى بوابة الفردوس حيث نلتقى مرّة أخرى ، متجدّدين كالنباتات

« متجدّدين - كما تُركّ الأشجار إلى الحياة من جديد

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بورقها الأخضر - مُطهِّرين ». والبقية ، عن دانتي.

# ۱۳۰ - ذات يوم

ذات يوم أرادت كاپيتو أن تعرف ما الذى جعلنى صامتا ومكتئبا إلى ذلك الحدّ. اقترحت أوروبا ، ميناس ، پيتروپوليس ، سلسلة من الحفلات الراقصة ، ألفاً من تلك الأدوية التى تُوصف للاكتئاب. لم أُدْرِ كيف أُجيبها ؛ وتفاديت الهجمات الخداعية، لأنها ألحّت ، أجبت بأن العمل لم يكن يسير سيرا حسنا. ابتسمت كاپيتو تشجّعنى، وماذا إن كان كذلك ؟ سيتحسن ، وإلى أن يحدث هذا ستباع مجوهراتها ، وأشياؤها التى لها أيّ قيمة ، وكان بوسعنا أن نذهب ونعيش في أحد الأزقة. كنّا سنعيش بهدوء ، ناسين ومنسيّن ؛ في وقت لاحق كنّا سنرتفع إلى السطح من جديد ، الحنان الذي قالت به ذلك كان من شأنه أن يُؤثّر في حجَر، لكنني ومكتئبا ، اقترحت لعبة ورق أو لعبة داما ، جولة ، زيارة إلى ماتاكاڤايّوس ؛ ولم كنت غير مستعد لأيٌ منها ، دخلت حُجرة النوم ، فتحت البيانو ، وبدأت تعزف ، استقدت بغيابها فأخذت قبّعتي وانصرفت.

... اعذُرنى ، لكن هذا الفصل كان ينبغى أن يسبقه فصل آخر ، كنتُ سأروى فيه حادثا وقع قبل ذلك بأسابيع قليلة ، بعد سفر سانشا بشهرين، سأكتبه، كان يمكننى أن أضعه قبل هذا الفصل مباشرة قبل إرسال الكتاب إلى صاحب المطبعة ، لكن سيكون أمرا بغيضا للغاية أن أغير أرقام الصفحات، فليكن هنا مباشرة ؛ وبعد ذلك سيتواصل السرد كما ينبغى له حتى النهاية. وعلاوة على ذلك ، فهو قصير.

### ١٣١ - وهو سابق للسابق

كانت الحقيقة أن حياتى غدت من جديد حلوة ورائقة. كان القانون يدر على ما فيه الكفاية تماما. كانت كاپيتو أكثر جمالا، وكان حرقيال يكبر. كنا ندخل سنة ١٨٧٧.

« هل لاحظتُ أن لحزقيال تعبيرا غريبا في عينيه ؟ » سألتُ كاپيتو، 
« لمْ أَرَ في حياتي سوى شخصين آخرين بنفس التعبير ، صديق لبابا 
وإسكوبار المسكين، انظر ، يا حزقيال ، انظر مباشرة ، هناك ، انظر إلى 
بابا – لا حاجة بك إلى أن تُقلّب عينيك ، هناك ، هناك ... . »

كان ذلك بعد الغداء. كنّا لا نزال نجلس إلى المائدة، كانت كاپيتى تداعب مازحة ابنها ، أو هو هى ، أو كلّ منهما الآخر ، لأنهما كانا شغوفين ببعضهما للغاية فى الحقيقة – لكنه فى الواقع ، كان شغوفا بى حتى أكثر، اقتربتُ من حزقيال ؛ وجدتُ أن كاپيتو على حقّ، على أيّ حال من المحتمل أنه ليس هناك سوى نصف دزينة من التعبيرات فى العالم ، وتحدث تشابهات كثيرة على نحو طبيعى، لم يفهم حزقيال ، نقل نظره بدهشة مفاجئة منها إلىّ ، وأخيرا قفز وألقى ذراعيه حول عنقى:

« فلنقُم بجولة ، بابا ؟ »

« قریبا ، یابنی »،

كانت كاپيتو، غافلة عنا نحن الاثنين، تحملق إلى الجانب الآخر من المائدة، لكن عندما قلت لها أنه من ناحية الجمال، تُشبه عينا حزقيال عينى أمه، ابتسمت كاپيتو وهزّت رأسها بترفع لم أجده أبدا في امرأة أخرى، ربما لأننى لم أحبّ الأخريات أبدا نصف حبّى لها. والناس

يساوون القيمة التى تخلعها عليهم عاطفتنا ، وإنما من هذا توصلنا إلى القول المأثور ، « القبيحة حسناء فى عينى عاشق ». كان لكاپيتو نصف دزينة من الإيماءات التى كانت فريدة من نوعها على هذه الأرض. ذهبت هذه الإيماءة مباشرة إلى قلبى – الأمر الذى يفسر لماذا سارعت إلى نوجتى وحبيبتى ، وغطيت وجهها بالقبلات. لكن الحادث الثانى ليس ضروريا بصفة جوهرية لاستيعاب الفصل السابق ولا الفصول التالية.

## ١٣٢ - الاسكتش واللون

ليس عيناه فقط ، بل باقى ملامحه أيضا ، الوجه ، الجسم ، شخصه بكامله ، كانت كلها تكسب التحدّد بمضى الوقت، كانت أشبه بمسودة اسكتش يعدّه الفنان شيئا فشيئا. تبدأ الصورة تطلّ ناظرة إليك ، تبتسم ، تنبض بالحياة ، تنطق تقريبا ؛ وأخيرا تعلّق الأسرة الصورة على الحائط إحياءً لذكرى ما كان ولم يعد بوسعه أن يكون ، في هذه الحالة ، أمكنه أن يكون وكان. العادة ساعدت على إخفاء التغيير ؛ مع ذلك ، حدث التغيير ، لم يحدث على طريقة المسرح ، بل مثل النهار ، الذي يظهر ببطء ، ببطء لا يكاد يمكن معه في البداية أن يقرأ المرء حرفا ، ثم بعد ذلك ، عجبا ، يمكن أن يُقرأ الحرف في الشارع ، في البيت ، في حجرة المكتبة ، دون فتح النوافذ ؛ فالضوء الذي يتسلل عبر الستائر المعدنية يكفي لتمييز الكلمات وأنا قرأت الحرف ، بلا يقين في البداية ، وإن لم يكن كلّه ؛ وفي وقت لاحق كنت قادرا على أن أميّزه بيقين متزايد ، وبصدق ، رفضت أن أقرأه ، وحشرت الورقة في جيبي ، وأسرعت إلى وبصدق ، وأغلقت على نفسي فيه ، ورفضت أن أفتح ستائر النوافذ ، بل

أغلقتُ عينيّ، عندما فتحتُ عينيّ مرة أخرى ، كان الحرف والكتابة واضحنن - وكانت الرسالة وإضحةً كاللّور،

خرج إسكوبار من القبر ، من المعهد الدينى ، من فلامنجو ؛ جلس إلى المائدة معى ، رحب بى على السلّم ، قبلنى كل صباح فى حُجرة مكتبتى أو طلب البركة المعهودة فى الليل. كلّ هذا أثار اشمئزازى ؛ تحملتُه حتى لا ينكشف الأمر لنفسى أو للناس. لكن ما كان بوسعى أن أخفيه عن نفسى – كنتُ أقرب إلى نفسى من أيّ شخص، وعندما لم يكن معى لا الأم ولا الابن ، كان يأسى بالغا ، وكنتُ أقسم أن أقتل الاثنين ، فجأة أو ببطء – ببطء ، حتى أنقل إلى موتهما ، كلّ لحظات حياتى المعذبة البليدة، عندما كنتُ أعود إلى البيت وأرى الطفل الصغير الأثير إلى نفسى ينتظر على رأس السلّم ، كنت أجد نفسى منزوع السلاح وأرجىء العقاب من يوم إلى يوم.

ان أسجّل هنا ما جرى بين كاپيتو وبينى فى غضون تلك الأيام القاتمة ؛ سيكون سجل كهذا مملاً للغاية. والآن ، بعد الأحداث بكل هذا الموقت الطويل ، لن أكون قادرا على أن أتذكّرها دون حذف أو إملال. اكننى ساروى الشىء الأكثر أهمية، كان الشىء الأكثر أهمية أن العواصف كانت أصبحت حينئذ مستمرة ومفزعة، قبل اكتشاف تلك الدنيا الشريرة للحقيقة ، كانت تهبّ علينا عواصف أخرى ، لكن قصيرة الأمد – قبل أن يمر وقت طويل ، كانت السماء تصفو ، والشمس تشرق ، والبحر يهدأ ، وكنا نبسط أشرعتنا من جديد ، وكانت تحملنا إلى أجمل جُزُر وسواحل الكون قبل أن تعصف ريح أخرى عاتية بكل شيء ، فكنا نوقف مراكبنا ، منتظرين سكون الرياح والأمواج من جديد ؛ ولم يكن يتوانى فى المجىء ، ولا كان يغدو مشكوكا فيه ، بل بالأحرى كاملا ، قريبا وشيكا ، وأكيدا .

اغفر لى هذه التعبيرات المجازية ؛ إنها تشى بنكهة البحر ومدّ

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

البحر اللذين جلبا الموت لصديقى ، عشيق زوجتى ، إسكوبار. وهى تشى أيضا بعينى كاپيتو ، عينان مثل مد البحر عندما يكون انحسار الموج قويا. وهكذا ، رغم أنى كنت دائما من سكان البر ، أروى هذا الجانب من حياتى كما يتذكر بحار عجوز غرق سفينته.

الشيء الوحيد الذي كان ناقصا بيننا في تلك اللحظة هو الكلمة الأخيرة. لكننا كنّا نقرأها في عيني كلّ منا الآخر ، مُدوّية وحاسمة. وكلما اقترب حزقيال منّا ، ما كان له إلاّ أن يفرقنا. اقترحت كاپيتو إلحاقه بمدرسة داخلية ، لم يكن ليعود منها إلى البيت إلاّ في نهايات الأسابيع. وكان من الصعب على الصبي الصغير أن يتقبّل هذا الوضع.

« سأذهب مع بابا ! بابا لابد أن يذهب معى ! » صرخ.

وكنتُ أنا الذى أخذتُه ، صباح يوم اثنين. كانت المدرسة في ميدان لاپا القديم ، غير بعيد عن البيت. ذهبتُ سيراً على القدمين ، ممسكا به بيدى ؛ نفس اليدين اللتين حملتُ بهما تابوت الآخر. رافقني الصبي الصغير ، يبكى ويوجّه أسئلة في كل خطوة ... هل سيعود إلى البيت ؟ ... هل ساتي لرؤيته ؟ ...

- « ساتى »،
- « ان تأتى ، يا بابا ».
  - « نعم ، ساتی ».
- « احلف ، یا بابا ! »
  - «طبعا».
- « بابا ، أنت لم تحلف على ذلك ».
  - « أحلف عليه »،

أوصلتُه إلى هناك وتركتُه، الغياب المؤقت لم يقض على الشرّ ، وكانت كل المحاولات البارعة لكابيت لتخفيفه بلا نتيجة: كنتُ أزداد سبوءًا

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باطراد. حزقيال كان لم يعد موجودا بصفة مستمرة ؛ لكن عودته في نهايات الأسابيع – إما لأننى كنت لم أعد معتادا عليه أو لأن الزمن كان ينجز التشابه ويستكمله – كانت تعنى عودة إسكوبار ، فقط أكثر نشاطا وجلبة. بعد فترة قصيرة ، حتى الصوت بدا نفس الصوت. أيام السبت تجنبت أن أتغدى في البيت ولم أكن أعود إلى أن يكون نام ؛ لكن لم يكن هناك مهرب منه أيام الأحد فيما كنت أنكب على الجرائد والعمل القانوني في حجرة مكتبتى. كان حزقيال يدخل ، صاخبا ، غير متحفظ ، مبتسما ومليئا بالحب ، ذلك أن الشيطان الصغير ظل يزداد عشقا لي. أنا ، على عن كاپيتو والآخرين. ولما كنت لا أستطيع أن أخفي حالتي المزاجية عن كاپيتو والآخرين. ولما كنت لا أستطيع أن أخفي حالتي المزاجية تماما ، ظللت بعيدا عن طريقه بقدر المستطاع، وكنت إما أعمل وهذا ما كان يُرغمني على إغلاق باب حجرة مكتبتي أو أخرج – أيام الأحد – أيام الأحد –

#### ١٣٣ - فكسرة

ذات يوم - كان يوم جمعة - لم أعد قادرا على التحملُ. فكرة ما ، وكانت تتّخذ هيئة سوداء داخلى ، بسطتُ جناحيُها وراحتُ ترفرف بهما من جانب إلى آخر ، كعادة الأفكار عندما تريد أن تتحرّر. أعتقد أن حدوث ذلك يوم جمعة كان مصادفة ، لكن ربما كان أيضا تدبيرا. كنتُ تربيتُ على الفزع من ذلك اليوم. كنتُ سمعتُ أغانى شعبية تُغنَّى في البيت ، أغانى شعبية من المزرعة والبلد القديم الذي كان يوم الجمعة فيه يوما مشؤوما. مع ذلك ، حيث أنه لا وجود لنتائج حائط في المخ ، من المحتمل أن الفكرة لم تكن لتصفق بجناحيُها إلا لحاجتها إلى أن تخرج

وتتنفّس هواء الحياة، والحياة جميلة حقا إلى حدّ أن فكرة الموت ذاتها لابد أن تُولد قبل أن يكون بإمكانها أن تتحقّق. لابد أنك تفهم الآن. والآن اقرأ فصلا آخر.

# ١٣٤ – الحفل الليلي للساحرات والسُّحرَة

أخيرا حرّرت الفكرة نفسها من مخى، كان الوقت ليلا ، ولم أستطع النوم ، رغم كل ما حاوات لأنفضها عن نفسى، مع ذلك لم يحدث قط أن مرّت ليلة بكل هذه السرعة، بدأ النور ينتشر، وكنت أعتقد أن الوقت ليس أكثر من الساعة الواحدة أو الثانية. خرجت ، قاصدا أن أترك الفكرة في البيت ؛ وجاءت برفقتى، في الخارج ، كان لها نفس اللون القاتم ، ونفس الجناحين المرتجفين ، ومع ذلك طارت ، كانت وكأنها مثبتة ، فحملتها على شبكيتى – لا يعنى هذا أنها أخفت الأشياء الخارجية عنى ، لكنها بدت من خلالها أكثر شحوبا من المعتاد ، وهاربة ، ولم يَبْق شيء.

لا أذكر كثيرا باقى اليوم، أعرف أننى كتبت بعض الرسائل، واشتريت مادة لن أسميها حتى لا أوقظ الرغبة فى تجربتها، الصيدلية انهارت ، هذا صحيح ؛ المالك صار صاحب بنك – وبنكه يزدهر، عندما وجدت نفسى مع الموت فى جيبى أحسست كأنى فُرت لتوى بالجائزة الكبرى – لا ، فرحة أعظم ؛ ذلك أن جائزة اليانصيب تتبدد ، أما الموت فلا، ذهبت إلى بيت أمى لاقول لها كلمة وداع ، لكن بذريعة القيام بزيارة، وسواء أكان الأمر كذلك حقا أم كان وهما ، بدا كل شيء هناك أفضل ذلك اليوم؛ أمى أقل حزنا ، الخال كوزمه غافلا عن قلبه ، ابنة العم چوستينا عن لسانها، قضيت ساعة في سلام، بل فكرت حتى في التخلّي عن مشروعي، ماذا كنت أحتاج لأحيا ؟ ألا أغادر أبدا ذلك البيت مرة أخرى ، أو أحفر تلك الساعة في داخلي... ،

تغدَّيتُ خارج البيت ؛ وذهبتُ إلى المسرح في المساء، تصادف أنهم كانوا يمثُّلون عطيل ، ولم أكن رأيتُها أو قرأتُها من قبل، كنتُ فقط على دراية بموضوعها ، فابتهجتُ بالمصادفة، شاهدتُ المغربي يثور بسبب منديل - مجرد منديل! - وأنا أقدَّم هنا مادَّة ليدرسها علماء النفس في هذه القارّة وبقية القارّات ، حيث لم أجد مفرًّا من ملاحظة أن منديلا كان كافيا لإشعال غيرة عطيل وتدبيج أسمى مأساة في هذا العالم. لقد انتهى زمن المناديل ؛ واليوم لابد للمرء من ملاءات وليس أقل من ذلك ، وأحيانا لسبت الملاءات بل القمصان الداخلية وحدها هي التي تهمّ، كانت هذه أفكارا مبهمة ومشوشة خطرت ببالى فيما كان المغربي يدور متشنجا وفيما كان إياجو يصبُّ فريته قطرة قطرة. أثناء الاستراحات بين الفصول لم أترك مقعدى، لم أرد أن أخاطر بمقابلة شخص قد أعرفه، أغلب السيدات بقين في المقصورات ، بينما خرج الرجال ليدخّنوا ، عندئد سالتُ نفسى ما إذا لم تكن واحدة من هؤلاء النساء أحبَّتُ شخصا كان يرقد أنذاك هادئا في القبر ؛ ثم داهمتني بعد ذلك أفكار مشوسة أخرى ، إلى أن رُفع الستار وتواصلت المسرحية. بيّن لي الفصل الأخير أن من ينبغي أن يموت اليس أنا ، بل كابيتو. سمعت توسلات ديدمونة ، وكلماتها الطاهرة والمُحبّة ، واحتدام غضب المغربي ، والموت الذي أنزله بها بين التصفيق المسعور للمشاهدين،

« وكانت بريئة ! » ظللتُ أقول هذا لنفسى على طول الطريق في الشارع. « ماذا كان سيفعل المشاهدون لو أنها كانت مذنبة حقا ، مذنبة

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثل كاپيتو ؟ وأى موت كان سينزله بها المغربي عندئذ ؟ لم يكن لوسادة أن تكفى ؛ كان الأمر سيحتاج إلى الدم والنار ، نار حامية هائلة تلتهمها تماما ، وتُحيلها إلى رماد ، الرماد يُلقَى به في وجه الربح ، للفناء الأبدى ... »

ظللت أهيم على وجهى فى الشوارع بقية الليل. تناولت العشاء ، كان مقدارا ضبيلا هذا صحيح ، لكنه كان كافيا لأعيش عليه حتى الصباح. شهدت ساعات الليل الأخيرة وساعات النهار الأولى، رأيت أواخر المتجوّلين وأوائل الكنّاسين ، أوائل عربات الكارو ، أوائل أصوات الضوضاء والجلبة ، أوائل خطوط النهار البيضاء ، نهار أتى بعد ذلك الذي فات وسيرانى أرحل بلا عودة أبدا، الشوارع التى طفت بها بدت تفرّ منى من تلقاء نفسها، أبدا لن أتأمل بعد الآن البحر فيما وراء جلوريا ، ولا سيرادوس أورجونس ، ولا حصن سانتا كروز ، والباقى، لم يكن هناك أشخاص كثيرون جدا فى الشارع كما فى أيام الأسبوع الآخرى لكن كان هناك فعلا عدد منهم خرجوا إلى الأعمال التى كانوا سيقومون بها من جديد ؛ لكننى لن أقوم بأى شيء من جديد.

وصلتُ البيت ، فتحتُ الباب ببطء ، صعدت على السلّم على أطراف أصابع القدمين ، وأدخلتُ نفسى في حجرة مكتبتى. كانت الساعة السادسة تقريبا، أخرجتُ السمّ من جيبى ، جلست خالعا الچاكيتَة وكتبتُ رسالة أخرى ، هى الأخيرة ، موجّهة إلى كاپيتو. لم تكن أيّ رسالة من الأخريات لها ، أحسستُ بضرورة كتابة كلمة ما تتركها نادمة على موتى . كتبتُ صيغتين ، أحرقتُ الأولى ، لاعتقادى أنها طويلة ومسهبة أكثر مما ينبغى ، لم تتضمن الثانية إلا ما كان ضروريا ، بوضوح وإيجاز . لم ينبغى ، لم تتضمن الثانية إلا ما كان ضروريا ، بوضوح وإيجاز . لم ينبغى ، لم المضينا ، ولا بالكفاحات التى خضناها ، ولا بأيّ فرحة: تكلّمتُ فقط عن إسكوبار وضرورة موتى .

## ١٣٦ - فنجان القهوة

كانت خطتى هي أن أنتظر قهرتي الصباحية ، فأذيب العقار فيها وأعبُّها عبًّا. في غضون ذلك ، لم أكن نسبتُ تماما تاريخي الروماني ، تذكّرتُ أن كاتو ، قبل أن يقتل نفسه ، قرأ وأعاد قراءة كتاب لأفلاطون ... لم تكن لدى كُتُب لأفلاطون ؛ لكن مجلَّدا وحيدا لبلوتارخ يروى حياة ذلك الروماني الشهير كان كافيا لشنِّعْل الوقت القليل الباقي. لأحاكيه في كل النقاط ، تمدّدتُ على الأربكة. على أن ذلك لم يكن بغرض محاكاته فقط ؛ كان عليَّ أن أثير في نفسي نفس الشجاعة ، تماما كما احتاج هو إلى أفكار الفيلسوف ليموت بجسارة، ويتمثِّل أحد شرور الجهل في الحرمان من هذا الدواء في الساعة الأخيرة. هناك أشخاص كثيرون يقتلون أنفسهم بدونه ، ويلفظون أنفاسهم الأخيرة بنُبل ؛ لكنني أعتقد أن أشخاصًا أكثر سيضعون حدًا لأيامهم في الحياة إذا أمكنهم أن يجدوا هذا النوع من الكوكايين المعنوي في كُتُب جيدة. مع ذلك ، لأنني أردتُ أن أتفادى كلِّ ارتباب في التقليد ، أتذكِّر بكل وضوح أنني ، لكي لا يعثروا على كتاب بلوتارخ بجوارى فينشار إليه في الجرائد ، إلى جانب لون البنطلون الذي كنت ألسِبه في تلك اللحظة ، خطِّطتُ لإعادة الكتاب إلى مكانه قبل أن أشرب السمّ،

أحضر كبير الخدم القهوة، نهضت ، ووضعت الكتاب في مكانه ، وذهبت إلى المائدة حيث كان فنجان القهوة موضوعا، كانوا بدأوا ينشطون فعلا في البيت ؛ وأن الأوان لوضع نهاية لنفسى، ارتعشت يدى وأنا أفتح الغلاف الورقى للعقار، مع ذلك كنت شجاعا بما يكفى لإفراغ المادة في الفنجان والبداية في تقليب القهوة ، وعيناى تائهتان ، وخواطرى مركّزة على ديدمونة البريئة. كانت مسرحية المساء السابق تُقحم نفسها في واقع

red by the combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك الصباح. لكن صورة إسكوبار الفوتوغرافية منحتنى الشجاعة التى كانت تنقصنى: كان هناك ، بيده على ظهر الكرسى ، يحملق فى البعيد ....

« لنضع حدًا لهذا » ، فكّرتُ،

وأنّا على وشك أن أشرب ، فكّرتُ فيما إذا كان من الأفضل أن أنتظر انصراف كاپيتو والصبى إلى القدّاس ؛ سأشربه حينئذ ، سيكون هذا أفضل. بعد البتّ في هذا ، بدأتُ أذهب وأجىء في حجرة المكتبة. سمعتُ صوت حزقيال في الصالة ، راقبتُه وهو يدخل ويجرى إلى ، صائحا ، « بابا ! بابا »

أيها القارىء ، عند هذه النقطة كانت هناك بادرة لن أصفها لأننى نسيتُها تماما ، لكنها ، صدّقنى ، كانت جميلة ومأسوية . من الناحية العملية ، جعلنى ظهور الصبى الصغير أتقهقر إلى أن اصطدمتُ بخزانة الكُتُب. ألقى حزقيال ذراعيه حول ركبتى ، شبّ على أطراف أصابعه كأنه أراد أن يتسلّق ويعطينى القبلة المعتادة ، وظل يردّد وهويشد نفسه إلى ، «بابا!»

# ۱۳۷ - دافع ثبان

لو لم أنظر إلى حزقيال ، من المحتمل أننى ما كنتُ لأكون هنا أكتب هذا الكتاب ، لأن دافعى الأول كان أن أسرع إلى القهوة فأشربها ، وصلتُ إلى حدّ رفع الفنجان ، لكن الصبى الصغير كان يُقبّل يدى ، كما فعل دائما ، وأعطانى مرآه ، وكذلك البادرة ، دافعا مختلفا يؤلنى أن أسجله ؛ لكن ، أوه ، حسنا ، ليرو كلّ شيء دعهم يعتبروننى قاتلا سفاحا إن شاءا ؛ فأنا لن أكون من يُنكر قولهم أو يعارضهم ، كان دافعى الثانى

إجراميًا ، انحنيتُ وسألتُ حزقيال ما إذا كان شرب قهوته.

« نعم ، يا بابا ؛ أنا ذاهب إلى القدّاس مع ماما ».

« خُذْ فنجانا آخر ، فقط نصف فنجان ».

« وأنت ، با بابا ؟ »

« سأقرع الجرس طالبا المزيد، هيّا ، اشريبها! »

فتح حزقيال فمه. أوصلت الفنجان إلى شفتيه ، بارتعاش كدت أدلقها معه تقريبا ، لكن مستعد لأن أصبها في حلقه في حالة أن يثير الطعم أو درجة الحرارة اشمئزازه – ذلك أن القهوة كانت باردة... لكني أحسست بشيء ما ، لا أعرف ما هو ، جعلني أتراجع، وضعت الفنجان على المنضدة ، ووجدت نقسى أقبل بجنون رأس الطفل.

« بابا ! بابا ! » صرخ حزقيال.

« لا ، لا ، استُ أياك! »

## ۱۳۸ - تدخل کابیتو

عندما رفعت رأسى ، كنت أنظر مباشرة إلى كاپيتى ، ها هو تطور آخر مفاجى و يذكّر بالمسرح ، ومع ذلك فهو طبيعى مثل الأول ، نظرا لأن الأم والابن كانا ذاهبين إلى القدّاس ، ولم تضرج كاپيتو من البيت أبدا دون أن تتكلّم معى . فى تلك الأيام لم يكن ذلك يتجاوز كلمة باردة سريعة ؛ وعادة لم أكن حتى أنظر إليها . أما هى فكانت دائما تنظر ، وتنتظر برجاء ،

وفى هذه المرة ، وأنا أواجهها ، لا أدرى ما إذا كانت عيناى خدعتانى ، لكن كاپيتو بدت شاحبة. تلا ذلك صمت من تلك الألوان من الصمت التى يمكن اعتبارها ، دون مبالغة ، عُمْرا كاملا. هكذا يكون

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امتداد الوقت خلال الأزمات الكبرى. استعادت كاپيتو هدوءها ، وطلبت من ابنها أن يضرج ، وطلبت منى تفسيرا ...

« ليس هناك شيء أفسره » ، قلتُ أنا .

« هناك كلّ شيء ينبغى تفسيره، لا أفهم دموعك ، ولا دموع حزقيال. ماذا جرى بينكما ؟ »

« ألم تسمعي ما قلتُه له ؟ »

أجابت كاپيتو بأنها سمعت بكاءً وهمهمة أصوات. وأعتقد أنها سمعت كل شيء بوضوح ، لكن إقراراها بذلك كان يعنى فقدان الأمل في الصمت والمصالحة. لهذا ، أنكرتُ السمع واعترفتْ بالرؤية فقط. دون أن أسرد واقعة القهوة ، كرّرتُ الكلمات الواردة في نهاية الفصل السابق.

« ماذا ؟ » سألتُ ، كأنَّها لم تسمع بالضبط.

« أنه ليس ابني ».

ذهول كاپيتو ، واستياؤها اللاحق ، كانا طبيعيين إلى حد أنهما كانا سيربكان أبرع شهود العيان في محاكمنا. لقد سمعت أن هؤلاء متوفرون بكثرة لكل أنواع القضايا — مسألة أسعار. وأنا لا أصدق ذلك ، خاصة لأن الشخص الذي قاله لى كان خسر دعوى منذ وقت قصير. لكن ، سواء أكان هناك أم لم يكن شهود للإيجار ، كانت شاهدتي حقيقية ، الطبيعة ذاتها اتخذت موقفها إلى جانبها ، ولم أكن لأفكر في الشك فيها ، لهذا ، دون أن ألتفت إلى كلمات كاپيتو ، وإيماءاتها ، والألم الذي اعتصرها ، أو أي شيء ، كررت الكلمات التي كنت نطقت بها مرتين ، بتصميم جعلها تنهار، بعد عدة لحظات قالت لى:

« هذه الإساءة الظالمة لا يمكن تفسيرها إلا بالاقتناع المخلص ؛ ومع ذلك فإنك ، أنت الذى كنت بالغ الغيرة من أدنى بادرة ، لم تُبد أبدا أدنى ظل من الارتياب، ما الذى أدخل فى رأسك هذه الفكرة ؟ قُلْ لَى » ،

وواصلت ، عندما لم أنطق برد ، « قُلْ كل شيء. بعد ما سمعت ، يمكن أن أسمع الباقي - لا يمكن أن يكون أكثر. ما الذي أدخل الآن في رأسك هذا الاقتناع ؟ هيا ، يا بنتينيو ، تكلّم ! الطردني ، لكن قُلْ لي أوّلاً كل شيء ». « هناك أشياء بعينها لا يقولها المرء ».

« وهي أشياء لا يقولها المرء نصف قول ؛ لكن مادمت قلت النصف ، قُلُ الكلّ »،

جلسته على كرسى قُرب المائدة، ربما كانت مرتبكة قليلا ؛ لم تكن جلستها جلسة شخص مُتُهم، توسلتُ إليها مرة أخرى ألاً تلح،

« لا ، يا بنتينيو ، إما أن تقول الباقى ، حتى يمكننى أن أدافع عن نفسى - إن كنت تعتقد أن هناك أىّ دفاع ممكن بالنسبة لى ، أو أرجو منك إجراء انفصال فورى ؛ لم يعد يمكننى أن أتحمّل! »

« الانفصال قرار متّخذ سلفا » ، رددت بسرعة ، متشبّنا بكلماتها .

« كان من الأفضل أن نفترق بأنصاف كلمات أو في صمت ؛ كان كل منا
سينصرف بجرحه هو. مع ذلك ، مادمت تُلحّين ، يا سنيورة ، إليك
ما يمكنني قوله ، وهو كل شيء ».

لم أقل كل شيء. استطعت بالكاد أن ألمّح إلى العلاقة مع إسكوبار دون ذكر اسمه. لم تتمالك كاپيتو نفسها عن الضحك ، ضحكة لا يمكننى لسوء الحظ أن أدوّنها، ثم بلهجة نصف تهكميّة ، نصف مكتئبة ،

« حتى الرجال الأموات! حتى الأموات لا ينجون من غيرتك! »

ثبتت الكاب الصغير على رأسها وقامت واقفة. تنهدت بارتياح ، أعتقد أنها تنهدت ، بينما نطقت ، أنا الذى لم أكن لأفضل شيئا على تبرئتها تماما ، بكلمات أو بأخرى في سبيل هذه الغاية. نظرت إلى كاپيتو بازدرداء ، وغمغمت:

« أعرف السبب وراء هذا : إنه صدفة الشُّبَّه ... مشيئة الرب ينبغي

أن تفسر كلّ شيء ... أنتَ تضحك ؟ هذا طبيعي ؛ رغم المعهد الديني ، أنتَ لا تؤمن بالرب ؛ أعتقد ... لكن دعنا لا نتكلم عن هذا، الأفضل ألا أقول أكثر ».

## ١٣٩- الصورة الفوتوغرافية

بكل صدق ، كنت على حافة تصديق أننى ضحية وهم كبير ، أوهام هلوسة ؛ لكن الدخول المفاجىء لحزقيال وهو يصرخ ، « ماما ! ماما ! هذا موعد القدّاس! » أعادنى إلى إحساس بالواقع، تطلّعنا كابيتو وأنا ، على نحو لا إرادى ، إلى صورة إسكوبار الفوتوغرافية ، ثم إلى كلِّ منا الآخر. هذه المرة كان ارتباكها اعترافا خالصا، كانا نفس الشخص ؛ لابد أنه كانت هناك صورة فوتوغرافية ما لإسكوبار وهو صبى صغير هى نفسها حزقيالنا الصغير، لكنها ، بشفتيها ، لم تعترف بشيء ؛ وكرّرت كلماتها الأخيرة ، وجرّت ابنها وراءها ، وانصرفا إلى القدّاس.

# ١٤٠ - العودة من الكنيسة

أما وقد تركانى بمفردى كان الشيء الطبيعى أن أشرب القهوة، حسنا ، لا ، يا سنيورة ؛ فقدت رغبتى فى الموت، كان الموت حلا واحدا ؛ وكنت عثرت لتوى على حل آخر ، أفضل بكثير لأنه لم يكن نهائيًا: فَتَح الباب للتكفير ، عند الضرورة، لم أقل الصفح ، بل التكفير ، أى ، المعدالة، مهما كان مبرّر هذا السلوك ، رفضت الموت ، وانتظرت عودة كاپيتو. تأخرت عودتها أكثر من المعتاد ؛ بدأت أخشى أن تكون ذهبت إلى بيت أمى ، لكنها لم تفعل.

« شكوت كل مرارتى إلى الرب » ، قالت لى كاپيتو عند عودتها من الكنيسة. « سمعت في داخلي الإجابة بأن انفصالنا محتوم ، وأنا تحت تصرفك ».

عيناها ، وهي تقول هذا ، كانتا ترتديان قناعا ، كأنهما تترقبان بادرة رفض أو تأجيل، كانت تعتمد على ضعفى أو على عدم يقينى بشأن أبوة الصبى ، لكن كل ذلك كان بلا طائل. هل من المكن أنه كان هناك إنسان جديد في داخلى ، خلقته ضغوط جديدة وقوية ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فإنه كان إنسانا مختبئا بالكاد تحت السطح، رددت بأننى سأفكر في الأمر مليًا ، وبأننا سنفعل كما أقرّر أنا، ولأصدقك القول ، كان كل شيء تمّ التفكير فيه مليًا وحسم.

في غضون ذلك ، كنتُ تذكرتُ كلمات المرحوم چورچيل في تلك المرة في بيته عندما أراني بورتريه زوجته ، والذي كان يشبه كاپيتو. لابد أنك تذكر تلك الكلمات ؛ وإلا ، أعد قراءة ذلك الفصل. وأنا لا أحدد رقمه هنا ، لأنني لا أذكر ما هو ، لكنه لا يمكن أن يكون إلى الوراء كثيرا. ويمكن اختصارها في هذا: هناك هذه التشابهات غير القابلة للتفسير.... في وقت لاحق من اليوم ، وفي أيام أخرى ، أتى حزقيال ليراني في حجرة المكتبة ، وكانت ملامح الطفل صورة واضحة من ذلك الذي مات ، أو ربما كنتُ أعيرها اهتماما أكثر. مختلطةً شدر مدر ، تدافعت إلى خاطرى وقائع قديمة مبهمة – كلمات ، ولقاءات ، وحوادث ، لم تر غفلتي فيها أي سيء وكانت غيرتي القديمة مفتقدة. ذات مرة عندما وجدتُهما منفردين وصامتين ، سر جعلني أضحك ، كلمة من كلماتها وهي تحلم ، كل هذه الذكريات انصبت علي في تلك اللحظة باندفاع جعلها تتركني دائخا.... ولماذا لم أشنقهما في ذلك اليوم ، عندما أدرتُ عيني بعيدا عن الشارع حيث كان عصفوران عاشقان يتسافدان على أسلاك التلغراف ؟ في

الداخل ، كان عصفوراى أنا يُسافدان الهواء ، بعينيْن مشتبكتيْن فى عينيْن ، لكنْ بحذر بالغ إلى حدّ أنهما فكا الاشتباك فى الحال ، مع كلمة مرحة وودية لى. حكيتُ لهما حكاية حبّ العصفوريْن فى الخارج ، وكان من رأيهما أنها مسليّة. أعلن إسكوبار أنه كان من الأفضل ، فيما يتعلّق به ، أن يكون العصفوران ، بدلاً من التسافد على أسلاك التلغراف ، موضوعيْن مشوييّن على مائدة الغداء. « لم آكل أبدا أعشاشها إلى اليوم » ، وواصل كلامه ، « لكن لابد أنها ستكون صالحة ، إذا اخترع الصينيّون الطبق ». ومضينا نتحدث عن الصينيّين ، وعن الكلاسيكيات التى تذكّرهم ، فيما انهمكت كابيتو ، بعد أن جاهرتْ بأننا أضجرناها ، في أعمالها . في تلك اللحظة تذكّرتُ كل هذا ، والذي بدا لا شيء في حينه .

### ١٤١ - الحسل

وإليك ما فعلنا. استجمعنا أنفسنا وسافرنا إلى أوروبا ، ليس من أجل رحلة للمتعة ، ولا لنرى أيّ شيء ، جديد أو قديم. سافرتا مباشرة إلى سويسرا، مربّية أطفال من ريو جرانده ، كانت سافرت معنا ، بقيت كوصيفة لكاپيتو ولتعلّم حزقيال لغته الأم ؛ كان سيتعلّم الأشياء الأخرى في مدارس ذلك البلد. هكذا تكيفت حياتي ، وعدت إلى البرازيل.

بعد عدّة أشهر ، بدأت كاپيتو تكتب إلى ؛ كنت أرد باختصار وبرود، رسائلها هي كانت مُذعنة ، بلا كراهية ، وربما حتى رقيقة ، وقُرْب النهاية مليئة بالشوق ؛ توسلت إلى أن آتى لأراها، أبحرت بعد ذلك بسنة ، لكننى لم أذهب لأراها ، وكرّت الرحلة ، بنفس النتيجة. عند عودتى ، سألنى أولئك الذين كانوا يتذكرونها عن الأخبار ، وأعطيتُها لهم وكأننى كنت مقيما معها. بطبيعة الحال ، قمت بالرحلتين بقصد إعطاء هذا لانطباع بالذات ، هذا الاعتقاد الخادع، وأخيرا ، ذات يوم ...

أنت تفهم أنه إذا كان چوزيه دياس لم يسافر معى فى تلك الرحلات إلى أوربا ، لم يكن ذلك لنقص فى الاستعداد من جانبه، كان بقى كرميف للخال كوزمه ، الذى كان شخصا عاجزا تقريبا ، ولأمى ، التى غدت عجوزا فجأة، هو أيضا كان عجوزا ، وإن كان قادرا على التحمل، كان يصعد إلى ظهر الباخرة ليودعنى ، وكانت الكلمات التى يقولها لى ، وتلويحاته بمنديل ، وذات العينين اللتين كان يمسحهما ، تصل إلى حد يجعلنى أتأثّر بدورى. وفي المرة الأخيرة لم يصعد إلى ظهر الباخرة.

- « میا .... »
- « لا أستطيع »،
- « هل أنت خائف ؟ »
- « لا ؛ لا ، لا أستطيع. ساقول وداعا الآن ، يا بنتينيو. لا أعرف ما إذا سنرانى مرة أخرى ؛ أعتقد أننى أوشك على السفر إلى أوروبا الأخرى ، أوروبا الأبدية .... »

لم يسافر في الحال ؛ كانت أمى هي التي سافرتُ أولاً، ابحثُ في مقابر سان چوان باپتيستا عن قبر بلا اسم ، لا يميّزه سوى هذا : قدريسة. ها هو هناك.

جعلتُهم يُعدُون لها هذه الكتابة على القبر بعد بعض الصعوبة، كان من رأى النحّات أنها غريبة ؛ استشار المشرف على الجبّانة قسيّس الأبرشية ؛ شرح لى هذا الأخير بأسلوب مُملّ أن القديّسين يوجدون على مذبح الكنيسة وفي السماء،

« اعذرنى » ، قاطعتُه ، « لكننى لا أقصد أن أقول أن هذا القبر يضم امرأة ضمن قائمة القديسين. فكرتى هى أن أنقل من خلال هذه الكلمة تعريفا دنيويا لكافة الفضائل التى تحلّت بها المرحومة أثناء الحياة. إلى حدّ أننى أرغب ، مادام التواضع واحدة من هذه الفضائل ، فى أن أحتفظ لها به بعد وفاتها ، بعدم كتابة اسمها ».

« مع ذلك ، الاسم ، النُّسُب ، التواريخ ... »

« مَنْ سيهتم بالتواريخ ، أو النُّسبَ ، أو حتى الأسماء ، بعد أن أموت أنا ؟ »

« أنت تعنى أنها كانت سيدة في عبداد القديسيين ، أهذا ما تعنى ؟ »

« هـذا بالضبط. لـو كان الأمين كابرال على قيد الحياة ، لأيد ما أقوله لك ».

« أنا لا أجادل فى حقيقة ذلك ، إنما أتردّد فقط فيما يتعلّق بالصيغة. كنت تعرف الأمين إذن ؟ »

« كنتُ أعرفه، كان أباً مثالياً »،

« عالم قانون كنسى ، عالم لغة لاتينية ، تقى ورع ، ومحسن » ، واصل القسيس،

« وكانت له بعض المواهب الاجتماعية » ، قلتُ أنا . « كنتُ عادة أسمعهم يقولون في البيت أنه كان لاعب طاولة فذًا .... »

« كانت له طريقة مميزة مع الزَّهْر ! » تنهّد القسيس برقة. « رمية أستاذ ! »

« هل تعتقد إذن ؟ .... »

« نظرا لأنه لا يُقصد معنى آخر ، ولا يمكن أن يكون أيّ معنى آخر ، مكنا ، نعم ، يا سنيور ، هذا جائز .... »

حضر چوزیه دیاس هذا النقاش ، باکتئاب بالغ، أخیرا ، عندما ابتعدنا ، تكلّم بقسوة عن القسیّس ، واعتبره مُوسوسا، العذر الوحید الذی التمسه له كان أنه لم یعرف أمی - لا هو ولا باقی رجال الجبّانة.

« لم یعرفوها، لو عرفوها ، لأصروا علی أن یكتبوا قدیسه القدیسات ».

# ١٤٣- صبغة التفضيل العلما الأخبرة

لم تكن تلك صيغة التفضيل العليا الأخيرة لچوزيه دياس، كانت له أخريات لن أزعج نفسى بتسجيلها هنا، سأقفز إلى الأخيرة ، أفضلها جميعا ، أحلاها ، واحدة جعلت الموت جزءًا من الحياة، كان يعيش فى تلك الفترة معى، رغم أن أمى لم تترك له سوى هبة ضئيلة للذكرى ، قال لى أنه ، بالتركة أو بدونها ، لن يُفارقنى، ربما كان يأمل فى أن يدفننى، كان يتراسل مع كابيتو. طلب منها أن ترسل إليه صورة لحزقيال ، لكن كابيتو ظلت تؤجّل إرسالها من بريد إلى بريد إلى أن كف عن طلب أى شىء ، إلا إن كان قلب الطالب الشاب، طلب منها ألا تنسى أن تحكى لحزقيال عن الصديق العجوز لأبيه ، ولجده ، والذى « قضت عليه السماء بأن يحب نفس الدم »، بهذه الطريقة أعد نفسه للعناية بالجيل الثالث ، لكن الموت أتى قبل حزقيال. كان المرض سريعا جدا، وكنت اعتزمت أن أرسل الى طبيب « هوميوباشى ».

« لا ، يا بنتينيو » ، قال ، « طبيب « ألّوباثي » سيفى بالغرض ؛ يمكن للمرء أن يموت في أيّ مدرسة في الطب، فضلا عن ذلك ، كانت تلك أفكار شبابي ، وقضى عليها الزمن، إننى أعود إلى معتقد أجدادي. « الألّوباثيا » هي كاثوليكية الطبّ ».

مات هادنًا ، بعد احتضار قصير. قبل ذلك بقليل ، سَمِعَنا نقول أن السماء جملة وطلب منا أن نفتح النافذة.

« لا ، الهواء قد يضرك »،

« أي ضرر ؟ الهواء هو الحياة »،

فتحنا النافذة. فى الواقع ، كانت السماء زرقاء وصافية. رفع چوزيه دياس رأسه وحملق إلى الخارج. بعد عدّة لحظات ، سقط إلى الخلف وهو يغمغم ، « الأجمل! » كانت الكلمة الأخيرة التى تفوّه بها فى هذا العالم. چوزيه دياس المسكين! لماذا ينبغى أن أنكر أنى بكيتُه ؟

## ١٤٤ - سيؤال متا خر

لعلّ كل عيون الأصدقاء الذين سأتركهم في هذا العالم يبكون على كذلك ، الرجال والنساء ؛ لكن هذا ليس من المرجّح. لقد غدوت منسيًا. وأنا أعيش مبتعدا عن الناس ، وأخرج نادرا، والواقع أننى لم أصل طرفى حياتى ببعضهما، هذا البيت في إنچنيو نوفو ، رغم أنه نسخة طبق الأصل من بيت ماتاكا قايوس ، لا يفعل أكثر من أن يذكّرنى بالبيت القديم ، وهذا – كنتيجة للمقارنة والتأمل أكثر منه للمشاعر، لكنّى سبق أن قلتُ هذا.

ستسأل لماذا ، ما دمتُ كنتُ أملك البيت القديم ذاته ، فى نفس الشارع القديم ، جعلتُهم يهدمونه وأتيتُ لأبنى نسخة طبق الأصل منه هنا . هذا السؤال كان ينبغى أن يُسأل فى البداية ، لكن ها هى الإجابة السبب هو أننى ، بعد أن ماتت أمى مباشرة ، أردتُ أن أنتقل عائدا إلى هناك ، لكننى قمتُ فى البداية بزيارة تفقّد طويلة دامت عدّة أيام ، فأنكرنى البيت بكامله . خارج البيت – شجرة الأرويرا الضخمة وشجرة البيتانجا ، بركة بكامله . خارج البيت – شجرة الأرويرا الضخمة وشجرة البيتانجا ، بركة

البئر ، الدل القديم ومكان الفسيل – لا شيء عرفني. كانت شجرة الجازوارينا هي نفس الشجرة التي كنت تركتُها في الطرف البعيد للعزبة ، لكن الجذع ، بدلا من أن يكون مستقيما كما كان في الأيام الخوالي ، اتّخذ آنذاك هيئة علامة استفهام: من المحتمل أنه فوجيء بالمتطفّل، حدقت حولي ، أفتش عن فكرة ما كنت تركتُها هناك ، ولم أعثر على فكرة ، بالمعكس ، بدأت أوراق وأغصان الشجر تُدندن بشيء ما لم أفهمه في الحال ، لكنّي أعتقد أنه كان أغنية صباحات الشباب. تحت هذه الموسيقي الطنانة والمرحة ، سمعت أيضا قباع الخنازير ، نوع من الجوقة المكتفة السخرية الفلسفية.

كان كل شىء غريبا ومعاديا، جعلتهم يهدمون البيت ، وفيما بعد ، عندما أتيت إلى إنچنيو نوقو ، قررت بناء النسخة طبق الأصل هذه وفقا للتوجيهات التى أعطيتُها للمهندس المعمارى ، وقد رويت ذلك من قبل فى مكانه الملائم.

### ١٤٥ – العودة

حسنا ، في هذا البيت بعينه ذات يوم ، فيما كنتُ ألبس لتناول الإفطار ، جيء إلى بكارت بهذا الاسم:

حزقيال أ. ده سانتياجي

« هل السيد هنا ؟ » سألتُ الخادم.

« نعم ، يا سنيور، هو ينتظر ».

لم أذهب على الفور. تركتُه ينتظر حوالى عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة فى حجرة الجلوس، ثم خطر على بالى أنه سيكون من الناسب أن أبدى قدرا ما من الدهشة والفرح ، فأجرى إليه ، أعانقه ،

أتكلّم معه عن أمه. أمه – أعتقد أننى لم أذكر بعد أنها كانت ماتت ودُفنت، نعم ماتت ودُفنت؛ وهى ترقد هناك رقدتها الأبدية ، فى البلاد القديمة ، فى سويسرا. لبستُ بقية ملابسى بسرعة، عندما غادرتُ الحجرة ، اتّخذتُ هيئة أبوية ، شىء ما بين المعتدل والفظ ، نصف دون كازمورو. عندما دخلتُ حجرة الجلوس وجدتُ الشاب وظهره إلى ، ينظر إلى التمثال النصفى لما سينيسا المحفور فى الحائط، تقدّمتُ بحدر ، دون أن أصدر صوتا، مع ذلك ، سمع خطوى ودار حول نفسه، عرفنى من صورى ، وأسرع نحوى، لم أحرّك يدا أو قدما ؛ لم يكن أكثر ولا أقل من رفيق شبابى القديم فى المعهد الدينى فى سان چوزيه ، أقصر قليلا ، أقل وزنا شبابى القديم فى المعهد الدينى فى سان چوزيه ، أقصر قليلا ، أقلٌ وزنا يلبس ملابس حديثة ، بطبيعة الحال ، وكانت تصرفاته مختلفة ، لكن يلبس ملابس حديثة ، بطبيعة الحال ، وكانت تصرفاته مختلفة ، لكن المظهر العام كان نسخة طبق الأصل من ذلك المتوفى. كان إسكوبار الحقيقى ، بذاته ، بعينه، كان عشيق زوجتى ؛ ابن أبيه، كان يلبس ثياب الحداد على أمه ؛ أنا أيضا كنتُ ألبس الأسود، وجلسنا .

« أنت لا تختلف إطلاقا عن صنورك الأخيرة ، يا بابا » ، قال لي.

الصوت كان صوت إسكوبار ؛ واللكنة فرنسية. قلت له أننى لم أختلف في الواقع إلا قليلا جدا عما كنت من قبل ، وبدأت سلسلة من الأسئلة حتى لا أقول إلا القليل ، فأسيطر بالتالى على انفعالى. لكن هذا في حد ذاته أفعم وجهه بالحيوية ، وظل زميل دراستى في المعهد الديني يبعث حيا من قبره على نحو مطرد. هنا كان أمامى ، بنفس الضحكة ، وباحترام أكبر ؛ باختصار ، نفس العذوبة ونفس السحر، كان متلهفا على رؤيتى. كانت أمه تتكلم معه كثيرا عنى ، فتمتدحنى على نحو استثنائى ، بوصفى أروع إنسان في العالم ، والأكثر جدارة بالحبّ.

« كانت جميلة في الموت » ، ختم كلامه.

« دعنا نتناول الإفطار ».

إذا كنت تعتقد أن الإفطار كان أكثر مرارة ، فأنت مخطىء. كانت له لحظاته الملة ، هذا صحيح، في البداية المني أن حزقيال لم يكن ابني في الحقيقة ، أنه لم يكملني ولم يستمر بي. لو كان الشاب شابه أمه ، لانتهيت إلى تصديق كل شيء ، بل بكل سهولة لأنه بدا وكأنه لم يغادرني إلا في المساء السابق، تذكّر طفولته ، المشاهد والكلمات ، ذهابه إلى المدرسة الداخلية ...

« أما زِلْتَ تذكُر ، يا بابا ، عندما أخذتَنى إلى المدرسة الداخلية ؟ » سأل ضاحكا .

« طبعا ، لماذا لا أذكر ؟ »

« كانت فى ميدان لاپا. كنت يائسا ، ولم تتوقّف أنت مرة واحدة أبدا ، يا بابا ، وجررتنى وراك فى كل خطوة ، وبساقى الصغيرتين ... نعم ، يا سنيور ، من فضلك »،

مد كأسه لأصب له النبيذ الذي عرضتُه عليه ، وأخذ رشفة ، واستمر يأكل. كان من عادة إسكوبار أن يأكل بتلك الطريقة أيضا ، بوجهه في طبقه، حكى لى عن حياته في أوروبا ، دراساته ، خاصةً تلك التي في علم الآثار ، الذي كان حُبّه، تكلّم عن العصور القديمة بهيام ، ألقى نظرة سريعة على قصة مصر بالآلاف من عمرها دون أن يتوه في الأرقام ؛ كانت له موهبة أبيه في الرياضيات. رغم أن فكرة أبوّة الآخر كانت مألوفة لدي ، لم أبتهج بالبعث، أحيانا ، كنتُ أغلق عيني حتى لا أرى الإيماءات ، أو أي شيء ، لكن الوغد كان يتحدث ويضحك ، وكان الشخص المتوفى يتحدث ويضحك ، وكان الشخص المتوفى يتحدث ويضحك من خلاله.

لأنه لم يكن هناك مفر من أن أكون معه ، لعبت دور الأب بجدية. فكرة أنه ربما رأى من قبل صورة فوتوغرافية ما لإسكوبار ، ربما كانت

أخذتُها كاپيتو معها دون أن تنتبه ، لم تخطر مطلقا على بالى ، أو إن كانت خطرت ، لم تَدُمْ. كان حزقيال يؤمن بى كما كان يؤمن بامه. لو كان چوزيه دياس على قيد الحياة ، لوجده صورة طبق الأصل منى. رغبت ابنة العم چوستينا فى أن تراه ، لكنها ، لأنها كانت ضعيفة خائرة القوى ، طلبت منى أن أتى به إليها. كنت أعرف تلك القريبة. أعتقد أن رغبتها فى رؤية حزقيال كانت بقصد أن تتحقق فى الشاب من الاسكتش الذى كانت وجدت ، ربما ، فى الطفل. كانت ستكون متعة أخيرة ؛ واعترضت سبيلها فى الوقت المناسب.

« هى مريضة جدا » ، قلت لحزقيال ، عندما طلب أن يراها ؛ « أى انفعال من شانه أن يؤدى إلى موتها ، سنراها عندما تتحسن ».

لم نذهب أبدا، أخذها الموت في غضون أيام قليلة، وهي تستريح في حضن الرب ، أو حيث تشاء أيها القارىء، رأى حزقيال وجهها في التابوت وام يتعرف عليه ، ولا كان يمكنه ذلك ، كان متغيرا اللغاية بفعل السنين والموت. على طول الطريق إلى الجبّانة ، ظلّت الأشياء تعود إلى ذاكرته – شسارع ، برج ، امتداد شاطىء ؛ وكان بالغ السعادة. هذا ما كان يحدث كلما عاد إلى البيت في نهاية اليوم: كان يحكى لى عن الذكريات التي ظلّت تعود إليه ، عن الشوارع والبيوت. كان مندهشا لأن كثيرا منها ما زالت نفس تلك التي كان تركها وراءه ، وكأن البيوت تموت صغيرة.

بعد ستة أشهر ، كلّمنى حزقيال عن رحلة إلى اليونان ، ومصر ، وفلسطين ، رحلة علمية ، وعد مقطوع لبعض الأصدقاء.

« من أيّ الجنسين ؟ » سألتُ بضحكة.

ابتسم ، متضايقا قليلا ، وأجاب بأن النساء هن مخلوقات الموضعة والوقت الحاضر ، وأنهن لن يفهمن أبدا خرابة عمرها ثلاثون قرنا. كانا

زميلى دراسة من الجامعة. وعدت بإمداده بالمال اللازم ، وأعطيته في نفس المكان والزمان مقدمًا على المال المطلوب. قلت لنفسى أن إحدى النتائج المترتبة على الحب المسروق هي أننى أعطيت المال من أجل علم آثار الابن، كان الأجدر بي أن أعطيه الجُذام...عندما التمعت هذه الفكرة في رأسي ، أحسست بأننى قاس وشرير إلى حد أننى أمسكت بالولد وكنت سأضمة إلى صدرى ، لكنّي تراجعت ؛ ثم حملقت في عينيه كما يفعل المرء مع ابن حقيقي، كانت نظرته المستجيبة حانية وممتنة.

## 187 - لا جندام

لم يكن هناك أى جُذام ، لكن هناك حُميّات في كل أنحاء كل بلاد البشر هذه ، قديمة كانت أم جديدة. بعد ذلك بأحد عشر شهرا ، مات حزقيال بالتيفود ودُفن قُرْب القدس ، حيث شيّد له الصديقان الجامعيان قبرا كتبوا عليه هذا النقش ، المأخوذ من النبي حزقيال ، باليونانية: « كنت كاملا في طُرُقك ». أرسلا إلى كلا النصيّن ، اليوناني واللاتيني ، ورسما تخطيطاً للمقبرة ، وحساباً للنفقات ، وباقي المال الذي كان أخذه معه – كنت مستعدًا لدفع ثلاثة أضعافه مقابل ألا أراه أبدا بعد ذلك.

لأننى أردتُ أن أتحقّق من النصّ ، راجعتُ الترجمة اللاتينية التى عندى للكتاب المقدّس فوجدتُه صحيحا ، لكن كانت هناك تكملة له: « أنت كامل فى طُرُقك ، من يوم خُلقت ». توقّفتُ وسألتُ هذا السؤال غير الملفوظ: « متى كان يوم خلق حزقيال ؟ » ولم يُجبنى أحد، ها هو لغز آخر جديد يُضاف إلى ألغاز هذا العالم الكثيرة، ورغم كل شيء ، أكلتُ غداءً جيدا وذهبتُ إلى المسرح.

# ۱٤٧ - المعرض الشامل «رتر وسيكتيث» \*

سبق لك أن عرفت أن روحى ، وإن كان معذبًا ، لم يبق فى زاوية كزهرة منزوية شاحبة. لم أسمح له بذلك اللون ، أو الافتقار إلى اللون. عشت أفضل ما كان بوسعى ، وليس بلا رُفقة نساء يُعزيننى عن المرأة الأولى، نزوات قصيرة الأمد ، هذا صحيح. هن اللائى كُن يتركننى ، مثل الأشخاص الذين يذهبون إلى معرض استعادى فإما يتعبون من النظر ، أو يخبو الضوء فى المعرض. واحدة فقط من هؤلاء الزائرات كانت تملك عربة تنتظر على الباب وحوذيا يلبس زيا خاصاً. الأخريات كُن يذهبن بتواضع سيرا على الأقدام ، وإذا كانت السماء تمطر ، كنت أنا الذى أبحث عن عربة خفيفة وأساعدهن على ركوبها ، بتوديعات مسرفة وتوصيات أكثر إسرافا:

« هل عندك الكاتالوج ؟ »

« نعم، عندى ؛ إلى الغد ».

« إلى الغد ».

لم يعدن أبدا. كنتُ أقف على الباب ، كنتُ أذهب إلى الناصية ، أنظر هنا وهناك ، أراجع ساعتى ، ولا أرى شيئا ، لا أحد، ثم ، إذا ظهرت زائرة أخرى ، كنتُ أعطيها ذراعى ، وندخل ، وأريها المناظر الطبيعية ، الرسومات التاريخية ، رسومات الحياة اليومية ، لوناً مائيًا ، باستيل ، جواش ، وكانت بدورها يصيبها التعب ، فتنصرف والكاتالوج في يدها ....

<sup>\*</sup> رتروسيكتيف، معرض شامل لأعمال فنان أو مدرسة أو حقبة - المترجم

والآن لماذا لم تجعلنى أي واحدة من سيدات نزوتى هؤلاء أنسى حُبّ قلبى الأول ؟ – ربما لأن أي واحدة لم تملك عينيها اللتين مثل مد البحر ، أو عيني غجرية خبيثة ، منحرفة، لكن هذا ، إن شئنا الدقة ، ليس بقية الكتاب. ما يبقى هو اكتشاف ما إذا كانت كاپيتو جلوريا موجودة من قبل داخل كاپيتو ماتاكاڤايوس ، أم تحوّلت هذه الكاپيتو إلى الأخرى كنتيجة لحادث ما عرضي. لو علم يشوع بن سيراخ\* ، بنوبات غيرتى الأولى ، لقال لى ، كما في أصحاحه ٩ ، الآية ١: « لا تكن غيورا على امرأتك حتى لا تشرع في خداعك بالمكر الذي تعلّمته منك ». لكنى لا أعتقد أن الأمر كان كذلك ، وستُوافقنى أنت. إن كنت تذكر كاپيتو الطفلة ، سيكون عليك أن تقر بأن الواحدة كانت داخل الأخرى ، مثل الثمرة داخل سيكون عليك أن تقر بأن الواحدة كانت داخل الأخرى ، مثل الثمرة داخل قشرتها.

حسنا ، مهما كان الحلّ ، يبقى شىء واحد هو خلاصة الخلاصات ، وبقية البقية: إدراك أن حبّى الأول وصديقى الأعظم ، وكلاهما يحباننى إلى ذلك الحدّ ، وكلاهما محبوبان إلى ذلك الحدّ ، كان مقدّرا عليهما أن يتحالفا ويخدعانى .... عسى أن يرقد الثرى الذى أهيل عليهما خفيفا عليهما ! فلننتقل إلى تاريخ الضواحي .

<sup>\*</sup> يشوع بن إليازار بن سيراخ صاحب كتاب Ecclestiacus (أو: حكمة يسوع بن سيراخ) الذى ألفه فى أورشليم بالعبرية حوالى ٢٠٠–١٨٠ ق.م ، والذى يعتبره أغلب البروتستانت منتحلا بينما يعترف به الروم الكاثوليك وتراث الكنيسة الارثونوكسية الشرقية – المترجم.



rerted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

## دون کازمورو بقلم خلیل کلفت

بعد بداية أحداث الرواية بقرابة أربعين سنة بعود بطل وبالأحرى لا بطل الرواية إلى تلك الأحداث ليحكى ، نافخا الحياة في « الأيام الخوالي » ، قصة تحوَّله من الصبي العاشق : ينتو إلى الكهل المعتزل ، المنسحب ، المنزوى : يون كازمورو. هي رواية تراجيكوميدية ... التراجيدي هو هذا التحول ذاته ، هذا الموت في الحياة ، هذا الموت المعنوي الذي هو فجيعة أكبر من الموت البيولوجي الذي هو رحمة وخلاص في عين عاشق للحياة تحالف ضدَّه الحب في شخص محبوبته والصداقة في شخص أعزًّ أميدقائه. كان قد انتصر من قبل على تحالف أكثر رسيها ، بين سلطة الأسرة وسلطة أيديولوجيا الدين ، أراد أن يفرض على الصبي العاشق طريقا في الحياة بعيدا عن الحياة كما يقهمها عاشق بسيط للحياة لا دور له فيها أبعد من أن يعيشها كما أحبها. لكن التحالف الجديد ضده ، الهشَّ هشاشة أبطاله ، لكن القوى كقدر إغريقي ، لأنه تحالف بين حليفيه السابقين ضد التحالف القديم ، لأنه تحالف « قدري » بين حبيبيه لكونهما . حبيبيّه ، كان أقوى منه و كان لابد له أن ينتصر ، أن يحوّل ينتو إلى كازموري أو دون كازموري ، وعاشق الحياة إلى الحي الميت رغم أن المنتصرين سبقاه كلاهما إلى العالم الآخر ... الكوميدي بدوره هناك ... هناك سخرية ما شابق ... فأنت تقرأ ملهاة تستدرجك شيئا فشيئا إلى أن تجد نفسك في قلب المأساة، وعندما تصل إلى هناك لا تكتفي الملهاة بحقيقة أن خديعتها انطلت عليك وأدت دورها بل تظل معك طوال الرحلة ، وريما حتى النهاية، ورغم أن المأساة ستبقى في صميم قلبك ،

verted by 11ff Combine - (no stamps are applied by registered version

ستضحك من كل قلبك. لكن هناك أيضا التجديد والإحياء والاستباق ... هذه الرواية الصادرة في ١٩٠٠ أي منذ قراية قرن نقرأها الآن فتصدمنا بجدّتها ، بحداثتها ، بعصريتها ، كشكل لرواية ... هي رواية ذكري استباقا لبروست الذي ظهرت روايته الضخمة: البحث عن الزمن الضائع بين ١٩١٣ و ١٩٢٧ ... وهي رواية ساخرة ، مقسمة إلى فصول قصيرة للغاية ، ومن خلال حديث متصل مع القارىء. ومن هنا يقارنها نقادٌ مع رواية : حياة و آراء تريسترام شاندي (٥٩١ - ١٧٦٧) للكاتب الإنجليزي لورنس ستيران (١٧١٣ - ١٧٦٨) فهي إحياء لكن تجديد لشكل روائي من القرن الثامن عشر ... وأخيرا: هل لهذا التغريب الماثل في صميم الشكل الروائي والمتعدد الوسائل والأساليب و (الحيل) علاقة بالتغريب أو التبعيد البرشتي في زمن لاحق ؟ ... ويرى والدُّو فرانك (في مقدمته الطبعة الأنجليزية لرواية دون كازمورو) أن كلا من بروست وماشادو غنّى ترنيمة لإبهام الحياة : الأول في رواية ضخمة والآخر في أخرى قصيرة. ولهذا السبب بالذات يتوقع أن يقرأ الناس دون كازموري زمنا أطول ... وهو يشبُّه هذا بتفوق إيجاز حوليات وتاريخ تاكيتوس (٥٥ – ١٢٠م) على إسهاب مذكرات الدوق سان سيمون (وهي مذكرات عظيمة وضحمة تفطي فترة ١٦٩٤ -- ١٧٢٣ في فرنسا لكنها لن تجد اليوم من يقرأ حتى مقتطفات منها كما يقول)، فهل لنا أن نأمل أن تحتل شخصية أدبية تحمل اسم دون كازمورق المكان الذي يليق بها في لغتنا إلى جانب شخصيات أدبية لامعة تحمل نفس اللقب: دون جوان ، دون كيخوته!

المترجم

### سلسلة القصة العالمة

- ۱ السراية الخضراء للكاتب البرازيلي ماشابوده أسيس ترجمة خليل كلفت
- ۲ الشوارع العارية
   للكاتب الايطالي فاسكو پراتوليني ترجمة ادوار الخراط
- ٣ شتاء في يوليو
   الكاتبة البريطانية دوريس ليسنج ترجمة عنان على الشهاوي
  - ٤ دون كازمورو.
     ١ دون كازمورو.
     ١ الحاليل ماشادوده أسيس ترجمة خليل كلفت

#### الكتب القادمة

- مجنون السرقة و قصص أخرى
   للكاتب المجرى ديسنو كوستولانى ترجمة محمد سيف
- الداء الأسود
   الكاتبة الروسية نينا بربروقا ترجمة أحمد على بدوى









مرة ثانية تُقدَم رواية لماشادو ده أسيس الذي ظلّ شبه مجهول في عالمنا العربي رغم مكانته العالمية في الأدب البراذيلي الحديثة بوجه عام، ورغم أهمنته التي لا حدال فيها كروائ غالب

قصة تحول صببى عاشق للحياة انتصر على تحالف سلطة الاسرة وسلطة ايدولوجيا الدين ليواجه تحالفاً جديداً خده بين الحب في شخص محبوبته والصداقة في شخص أعز أصدقائه، هذا التحالف بين حبيبيه كان أتوى منه وكان لابد أن ينتصر فيتحول بنتر الصبي العاشق إلى درن كازمورة الكهل المعتزل.

دون كازمورى رواية تراجيكوميدية ، وهي رواية ساخرة .. فأنت تقرأ ملهاة تستدرجك شيئاً فشيئاً إلى أن تجد نفسك في قلب المأساة ، ورغم أن المأساة ستبقى في صميم قلبك ، ستضحك من كل قلبك ..

سلسلة القصة العالمية تصدرعن دار الياس العصرية

الكتاب القادم مجنون السرقة و قصص أخرى السرقة والمصدى الكاتب المجرى ديسنو كرستولاني ترجمة محمد سيف